مجلة الدراسات الإيرانية

مجلة علمية نصف سنوية محكمة تصدر باللغتين العربية والإنجليزية
عن المعهد الدولي للدراسات الإيرانية

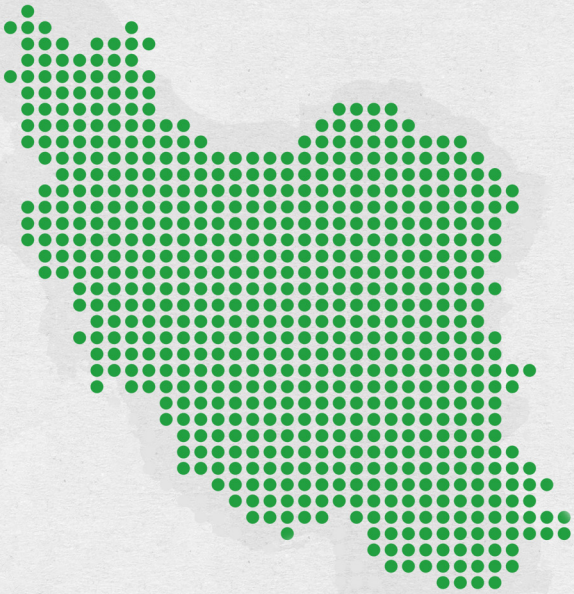

- دور الحرس الثوري الإيراني في الفضاء الإعلامي الدعاية والإستراتيجية وسردية القوة
- إيران والحملة البحرية للحوثيين في البحر الأحمر.. دراسة تطبيقية لنموذج «الراعي-الوكيل»
- الإستراتيجية البحرية والتوجُّهات الإيرانية نحو البحر المتوسِّط
- مستقبل العلاقات الإيرانية-الروسية في ظل رئاسة بزشكيان
- العلاقات الروسية بجماعة الحوثي في إطار الصراع الجيوسياسي مع الغرب
- آفاق الوساطة الدبلوماسية الصينية بين المملكة العربية السعودية وإيران
- التداعيات المحتمَلة للانسحاب العسكري الأمريكي من العراق

مجلة الدراسات الإيرانية

دراسات وأبحاث علمية متخصصة

مجلة علمية نصف سنوية محكمة تصدر باللغتين العربية والإنجليزية

السنة الثامنة – العدد العشرون – أكتوبر 2024م

تصدر عن

RASANAH
المعهد الدولي للدراسات الإيرانية
International Institute for Iranian Studies

مجلـة الدراســات الإيـرانيـــة

مجلة علمية نصف سنوية محكمة تصدر باللغتين العربية والإنجليزية

المملكة العربية السعودية، الرياض، حيّ الصحافة، طريق الملك فهد
صندوق بريد: 12275 الرمز البريدي: 11473

للتواصل مع المجلة عبر البريد الإلكتروني

JIS@rasanahiiis.com

ISSN: 1658-7464

حقوق النشر محفوظة، ولا يجوز الاقتباس من موادّ المجلة دون إشارة إلى المصدر، كما لا يجوز إعادة نشر الدراسات دون موافقة إدارة المعهد.

www.Rasanah-iiis.org

Rasanahiiis info@rasanahiiis.com +966112166696

ضوابـط ومعاييـر النشـر

- أن تكون الدراسة وثيقة الصلة بالشأن الإيراني.
- أن لا تكون الدراسة قد نُشرَت من قبل أو أُرسِلَت إلى جهة نشر أخرى.
- أن توثَّق الدراسة توثيقًا علميًا، مع العناية بالمصطلحات وضبط أسماء الأعلام.
- يفضَّل إرسال المادة عبر البريد الإلكتروني للمعهد.
- أن تكون المادة أصلًا، وأن لا تُرسَل صورة منها.
- لا تعيد المجلة المادة المرسلة إلى أصحابها إذا لم تُقبَل للنشر.
- يُمنَع إعادة نشر أي مادة من موادّ المجلة دون إذن كتابي من رئيس التحرير.
- تخضع الأعمال المرسلة إلى المجلة للتحكيم قبل نشرها.

JIS@rasanahiiis.com

الهيئـة الاستشاريـة

أ.د.أحمـد الشـاذلـي

أ.د.رضـوان السيـد

أ.د.صـالـح الـخثـلان

أ.د.عبد الحميـد الأنصـاري

أ.د.محمد السعيد جمال الديـن

أ.د.مـهنـد الـمبيضـيـن

أ.د يحيى بن محمود بن جنيـد

د.سلطـان النـعيمـي

د.عبـد الكريـم جـرادات

رئيس التحرير
د. محمد بن صقر السلمي

مدير التحرير
د. محمود حمدي أبو القاسم

هيئة التحرير
اللواء/م. أحمد بن علي الميموني
د. معتصم صديق عبد الله
د. عبد الرؤوف مصطفى الغنيمي
د. محمد السيد الصياد
د. يحيى بوزيدي
أحمد شمس الدين ليلة
حشر مجاهد البدراني
نورة السبيعي
نويد أحمد

سكرتير التحرير
أسماء المطيري
محمود جمعه

إخراج وتنفيذ
هاني ياسين

المحتـويـــات

■ دور الحرس الثوري الإيراني في الفضاء الإعلامي..
الدعاية والإستراتيجية وسردية القوة
عبـد الكريـم رستمـي 7

■ إيران والحملة البحرية للحوثيين في البحر الأحمر..
دراسة تطبيقية لنموذج «الراعي-الوكيل»
ليوناردو جاكوبو ماريا مازوكو 27

■ الإستراتيجية البحرية الإيرانية والتوجُّهات نحو البحر المتوسِّط
د. خديجة عرفة محمد 57

■ مستقبل العلاقات الإيرانية-الروسية في ظل رئاسة بزشكيان
د. حمدي بشير 73

■ العلاقات الروسية بجماعة الحوثي في إطار الصراع الجيوسياسي مع الغرب
د. يوسـف مرعـي 93

■ آفاق الوساطة الدبلوماسية الصينية بين المملكة العربية السعودية وإيران
محمـد زريـق 111

■ التداعيات المحتمَلة للانسحاب العسكري الأمريكي من العراق
د. عبد الرؤوف مصطفى الغنيمي 131

دور الحرس الثوري الإيراني في الفضاء الإعلامي.. الدعاية والإستراتيجية وسردية القوة

عبـــد الكريـــم رستمـــي

باحث في شؤون الشرق الأوسط والدراسات الإيرانية-
المدرسة التطبيقية للدراسات العليا في باريس

مستخلص:

أصبح لوســـائل الإعلام التقليدية والحديثة آلية فعالة في تشـــكيل الوعي العام، وتُوظف بعض الأنظمة هذه الآلية؛ من أجل فرض ســـرديتها وتحطيـــم أي خطاب مُخالف، ويعد الحرس الثوري الإيراني من أهم الجهات التي نجحت في استغلال وسائل الإعلام بكافة صورها التقليدية والحديثة، والحد من فاعليتها بوصفها فضاءً للتفاعل الاجتماعي والســـياسي، ليس من خلال الحجب وحســـب، بل من خلال السيطرة وتشكيل الاعتقاد العام، فكيف تمكّن الحرس الثوري من استعمار هذا الفضاء الإعلامي؟ وما هي إستراتيجيته وتكتيكاته في هـــذا المجال؟ وكيف نجح في تغيير الواقع من خلال هذه الإستراتيجية بل وتحقيق الضبط والســـيطرة الاجتماعية؟ ستحاول هذه الدراســـة أن تقدم إجابة عن هذه التساؤلات من خلال تقديم مقاربة مفاهيمية مناســـبة لموضوع الدراسة، وتحديد أنواع الإستراتيجية التي يتبعها الحرس الثوري ومحتواها، ونتائج هذه الإستراتيجية وتأثيراتها.

الكلمات المفتاحية:

إيران، الحرس الثوري، الإستراتيجية الإعلامية، وسائل التواصل الاجتماعي، العسكرة الإعلامية، إدارة الوعي.

Abstract

Traditional and modern media have become effective mechanisms for shaping public consciousness, and some regimes utilize these mechanisms to impose their narratives and dismantle any opposing discourse. The Iranian Revolutionary Guard Corps (IRGC) is one of the primary entities that has succeeded in exploiting media in all its traditional and modern forms, limiting its effectiveness as a space for social and political interaction — not only through censorship but also by controlling and shaping public belief. How has the IRGC managed to dominate this media space, and what are its strategies and tactics in this domain? How has it succeeded in changing reality through this strategy, thereby achieving social control and regulation? This study answers these questions by providing an applicable conceptual approach to the subject, identifying the types of strategies pursued by the IRGC and their content, as well as the results and impacts of these strategies.

Keywords: Iran, IRGC, media strategy, social media, media militarization, consciousness management.

مقدمة

دائمًـا ما أراد النظام الإيراني بسـبب بنيته «الأيديولوجية» السـيطرة على الفضاء العام والخاص للمجتمع الإيراني، وقد أدى الإنترنت والتوسع المتزايد في العلاقات الإنسانية في الفضاء الإلكتروني إلى خلق عالم جديد يفتقر إلى التجسيد المادي، وهو فضاء غير محدود جعل سردية النظام الإيراني تواجه تحديات حقيقية من حيث الخطاب، لدرجة أن الباحث صادف في أدبيات القادة السياسيين والعسكريين الإيرانيين في العقدين الماضيين مزيجًا مفاهيميًا جديدًا يسمى «الحرب الناعمة»، وبالتالي فإن مفهوم «الحرب» بالنسبة للنظام الإيراني أصبح لا يقتصر فقط على المجالات العسـكرية، بل يدخل في المجالات الثقافية والاجتماعية والعلوم والتكنولوجيا؛ ولذلك فإن «السيطرة على وسائل الإعلام» التي يمكن السـيطرة عليها، مثل الإذاعة والتلفزيون، والصحف، والمجلات، وحتى الكتب من خلال الرقابة والحجب، و«المكافحة من خلال الجيش السيبراني» في مجال وسائل الإعلام التي لا يمكن السيطرة عليها، مثل شبكات التواصل الاجتماعي-على الرغم من وجود الحجب- هي في الحقيقة واحدة من أهم أركان ميدان الحرب الجديد للحرس الثوري.

تجادل هذه الدراسة بأنه في حين أصبحت وسائل الإعلام وشبكات التواصل الاجتماعي والفضاء الإلكتروني بشكل عام امتـدادًا للفضاء الاجتماعي المادي، أو بمعنى آخر «امتدادًا للوعي» حسـب رأي ماكلوهـان (Herbert Marshall McLuhan)، فإن النظام الإيراني من خلال الحرس الثوري دائمًا ما حاول استعمار هذا الفضاء الاجتماعي، وبالتالي ستحاول هذه الدراسة تحليل دور الحرس الثوري الإسلامي في الفضاء الرقمي، وما يتبناه من إستراتيجية تغيير بناء الواقع، والسيطرة على البُعد السـردي، مع التركيز على إدارة الوعي الاجتماعي، وكيفية تشكيل الاعتقاد العام في اتجاه الأهداف الأيديولوجية للحرس الثوري، وذلك بهدف توفيـر أرضية لفهم أفضل لكيفية عمل الحرس الثوري فـي البيئة الإعلامية والافتراضية، وشـرح عملية التغيير في بنية الواقع مـن خلال التأكيد على تأثير الإسـتراتيجيات، وفي هذا الإطار يتم تناول إسـتراتيجيات النظام الإيراني في مواجهة وسـائل الإعلام وشبكات التواصل الاجتماعي، التي تُعرف في الأدبيات الرسـمية للنظـام بالحرب المعرفية، وذلك للوصول إلى طبيعة إسـتراتيجيات النظام الإيراني وتكتيكاته في السيطرة على المعلومات وتشويه الحقيقة، وكذلك استخدام وسائل الإعلام وشبكات التواصل الاجتماعي لترسيخ وتعزيز خطابه السلطوي، فضلًا عن أساليب الإقناع وصناعة المُخاطب، وكذلك السيطرة الاجتماعية.

أولًا: مدخل مفاهيمي

يُسـهم توضيح مفاهيم الدراسـة في اختيار إطار نظري مُحدد لتحليل الجوانب المختلفة لموضوع البحث ودراستها، وفي هذا الإطار يمكن الإشارة إلى ما يلي:

1. الحرب الناعمة / القوة الناعمة

القوة الناعمة مفهوم جذب الكثير من الاهتمام في العلاقات الدولية، وغالبًا ما يتم تعريف هذا النوع من القوة بأنــه القدرة على التأثير في الآخرين، مــن خلال الجذب والإقناع بدلًا من الإكراه أو القوة، وهذا الشكل من القــوة هو عكس القوة الصلبة، التي تعتمد على القوة العسكرية والاقتصادية للتأثير على الدول الأخرى[1]، ويمكن استخدام القوة الناعمة بوصفها أداةً لخلق الانســجام والتعايش، فضلًا عن الترويج لقيم بلدٍ ما[2]، وتعتمد القوة الناعمة على القدرة على تشــكيل رغبات الآخرين وانتماءاتهم، وطبيعة هذا النــوع من القوة تقوم على جذب الشخص أوالمجتمع المستهدف وإغوائهم وافتتانهم[3].

2. استعمار الحقيقة

«استعمار الحقيقة» هو مفهوم اســتخدمْتهُ لوصف البيئة الإعلامية الافتراضية الحالية في إيران، ويشــير هذا المفهوم إلى هيمنة الأنظمة ذات الطبيعة الأيديولوجية والسلطوية على وسائل الاتصال الجماهيري، وخاصة وسائل الإعلام، والأهداف الرئيسة لهذه الهيمنة هي التحكم في المحتوى، وتشكيل معتقدات اجتماعية مبنية على فهم أيديولوجي خاص.

3. العسكرة الإعلامية

الجمهورية «الإسلاميــة» هي نوع من حكــم «أصولي» ديني ذو طبيعــة أيديولوجية- عســكرية، بمعنى أنها «أيديولوجية» دينية، تدعي أنها تغطي جميع المجالات الاجتماعية والثقافيــة، وفي الوقت نفســه «أيديولوجية» مدعومة بقوة عســكرية، وخاصةً الحرس الثوري، وهــذا الدعم متطــرف لدرجة أن مفهوم «الحرب» بالنســبة لــه لا يقتصر على المجالات العسكرية فحســب، بل يدخل أيضًا في المجالات الثقافية والاجتماعية، فضلًا عن العلــوم والتكنولوجيا، وفي الواقع فإن الســردية الصلبة للجمهوريــة الإسلامية أكثر حساسية تجاه المستويات «الأكسيولوجية[4*]» والقيمية من المصادر الوطنية والإقليمية، ولذلــك فإن مفهوم «الحــرب» وحالة «المؤامــرة الحربية» يدخل أيضًا على المســتوى الثقافي[5]، وهو ما يشار إليه في السردية الرسمية بـ«الحرب الناعمة»[6]، وعندهم أن لها أيضًا بعدًا غائيًا، وهو مصطلح أبعد بكثير مما يُقصد به في العلوم العســكرية، لدرجة أنه أصبح أحد أكبر اهتمامات المرشــد الإيراني خامنئي في العقدين الأخيرين، فنجده يصف الحرب الناعمة في خطابٍ له في بدايات تســعينيات القرن الماضي علــى النحو الآتي: «الحرب الناعمة هي غزو ثقافي، بل هي غارةٌ ومجزرة ثقافية»[7]؛ ولذلك فإن «الســيطرة على وسائل الإعلام» التي يمكن الســيطرة عليها مثل الإذاعة والتلفزيون والصحف والمجلات، وحتى الكتــب، من خلال الرقابة والحذف، ومن خلال «النضال عن طريق الجيش الســيبراني» في مقابل وسائل الإعلام التي لا يمكن الســيطرة عليها مثل شبكات التواصل الاجتماعي- على الرغم من وجود الحظر- هي في الواقع إحدى أهــم ركائز الحرب الناعمة لدى الحرس الثوري، ولا تقتصر الإستراتيجيات والتكتيكات المختلفة للجمهورية الإسلامية في الحرب

الإعلامية الناعمة على إدارة المعلومات والسيطرة عليها فحسب، بل تشمل أيضًا التلاعب بالمعلومات وتشويهها وتزييفها، واختلاق معلومات مضادة.

وبالطبـع ليس الهدف الرئيس من هذه الدراسـة الولوج إلى تفاصيـل هذه التكتيكات والإسـتراتيجيات، بل الهدف هـو كيف أن تلك السـردية أوجبت مثل هـذه التكتيكات والإسـتراتيجيات، وطبيعة هذه السـردية يمكنها تحديد مدى اتّسـاع رقعـة العمليات الإعلامية للحرس الثوري، وأخيرًا تُمكن من فهم واضح لأهدافها.

ولا شك أن أسـاس هذه «الأيديولوجية»، بوصفها «أيديولوجية» دينية شمولية تؤمن بأن المذهب الشيعي الإثني عشري بحسب رواية ولاية الفقيه التي جاء بها آية الله الخميني مؤسـس الجمهورية «الإسلامية»، يشـمل الهندسـة الأيديولوجيـة لجميع المجالات الأخلاقية للحياة الاجتماعية، وهنا لا يقتصر معنى الأخلاق على الأخلاق المهنية فحسب، بل منظومة الأخلاق ككل، أي بمعنى أن «علم الأخلاق» يجب عدُّه مرادفًا لـ«العلوم الإنسانية» برمتها، وحتى إن الجمهورية الإيرانية لديها ميل إلى توطين العلوم الطبيعية والرياضية من منطلق «التوطين» وفق التراث الإسلامي، إذ تحاول في بعض العلوم مثل «الطب» وضع «الطب التقليدي» في مواجهة «الطب الحديث»، وهذا الأمر يسـبب «التشاؤم التام» للجمهوريـة الإيرانية تجاه «العلوم الإنسـانية» وروح العالم الحديث برمتها، والتشـاؤم النسبي تجاه العلوم الطبيعية والفنون والتكنولوجيات، وخاصة فكرة «التنمية»، والنتيجة أن أي «محاكاة» ومدخل لهذه الأفكار، خاصة عبر وسائل الإعلام، سيُعد «تهديدًا» يستلزم شكل الحرب في بُعدها الناعم، ولهـذا تعد كافة الاحتجاجات المدنية «مؤامرة من العدو» تُعزى إلى عناصر خارجية[8].

4. أفق التهديد

إن نطاق «التهديدات» وأفقهـا التي تتعرض لها أيديولوجية الجمهورية الإسلامية يتجاوز بكثير ما رأيناه في «الأيديولوجية» الماركسـية اللينينية في الاتحاد السـوفييتي السابق، فبالنسـبة لهم يمكن عد طبقات مثل الاقتصاد والتاريخ وما إلى ذلك «تهديدات» بالنظر إلـى الاختلافات مع الأيديولوجية الليبرالية أو المحافظة للكتلة الغربية، إذ يحاولون إزالتها من الحياة اليومية لمواطنيهم، ولكن بالنسبة للجمهورية الإيرانية، فهذه التهديدات تشمل أصغر أمور الحياة اليومية حتى القضايا الفنية في علوم مثل القانون «خاصة قضايا حقوق الإنسان»، والسياسة، والأدب، والفلسفة وغيرها. فكل شيء من شرب الكحول إلى ارتداء الملابس والعديد من أنواع العلاقات بين الرجال والنسـاء، التي تظهر في وسـائل الإعلام العالمية، إلى المناقشـات الفلسفية المتعلقة بالأفكار والأديان الأخرى وخاصة العلمانية، كُلها تُعد تهديدات، لذلك فإن دائرة «التجريم» في الجمهورية الإسلامية واسعة جدًا، وبما أنها لا تستطيع أن تُغطي هذا النطاق الواسع، فقد ركزت أكثر على مراقبة البيانات الإعلامية الثقافية وإدارتها، ومعاقبة البعض بشكل انتقائي واستعراضي لإظهار سلطتها.

ومـــن ناحية أخرى، فإن وســـائل الإعلام في إيـــران تتصرف «غير مُباليـــة» بالتطورات الثقافية الداخلية وتتجاهلهـــا، وعلى الرغم من أن العديد من نماذجها منســـية في الحياة اليومية، إلا أنها تستمر في عرضها، ما يسبب انفصالًا ثقافيًا عن الحياة اليومية في الأماكن الرســـمية مثل المدارس أو الإدارات، خاصة أن كثيرًا من الأشخاص المرتبطين بالجمهورية «الإسلامية» لديهم «حياة مزدوجة»، وهذا الصـــراع الثقافي عندما يصل إلى صراع لحد الانفجار مثلما حدث في انتفاضة «المرأة، الحياة، الحرية»، فإنه يلجأ إلى القمع الاجتماعي الشديد الذي لا يتوانى عن ارتكاب أي مجزرة.

لقد فقدت وســـائل الإعلام الرســـمية عمليًا جمهورها الحقيقي، ويحاول الجمهور العام متابعة تدفق المعلومات عبـــر الأقمار الصناعية أو الفضاء الافتراضـــي، وبالتالي فالنظام فـــي الخطوة الأولى يبادر لحجب هذه الفضاءات على نطاق واســـع، ولكن بما أنه لا يحصل على نتيجة، نجده ينشر «جيشه السيبراني» في الفضاء الإلكتروني؛ لتحريف المعلومات وتشويه تدفقها، كما أنه ينتج محتوىً إعلاميًا للاستهلاك الخارجي، ليتمكن أيضًا من تغيير الرأي العام العالمي، رغم أنه يتعارض مع المحتوى المخصص للاستهلاك الداخلي.

ومع اندلاع ثورة 1979م، اســـتولت هذه الطائفة على الســـلطة أخيـــرًا، وحاولت فرض أســـلوب حياتها بطريقة راديكالية على جميع الطبقات والأطياف والديانات الأخرى، وفي هذه الأثناء كان الإعلام من الأشـــياء التي أصبحت موحـــدة تمامًا، وتتحرك وفق المنظومة القيميـــة لهذه الطائفة، وكان الحرس الثوري الإيرانـــي عمليًا قوة القمع الداخلي لأي رد فعل واحتجاج، وكانت بقية المنظمات تسير معه بانسجام تام.

5. جهاد التبيين

إن قضيـــة أفق التهديد والحرب الناعمـــة مهمة للغاية، لدرجـــة أن خامنئي بدأ في صناعة المفاهيم الخاصة بها، واستخدم مصطلح جهاد التبيين لها، وفي عام 2021م، أصدر رسميًا أمـــر جهاد التبيين، وعـــدّه واجبًا طارئًا ومفروغًـــا منه[9]، وهو يراه ضرورة ضـــد ما يعتقد أنه تحريف للحقائق، فيقول: «اليوم هناك سياسة مؤكدة لوسائل الإعلام المعادية للجمهورية الإسلامية والإسلام، وهي أنهم منهمكون باستمرار في تحريف الحقائق والكذب، ويخلطون الأخبار التي تخص الجمهورية الإسلامية بكل أنواع الأكاذيب (الأكاذيب المهنية، الأكاذيب التي جلســـوا وعملوا وعولوا عليها)، وفـــي المقابل يجمّلون الوجه القبيح الفاســـد لنظام الطاغوت، ويُخفون آلاف الجرائم والخيانات التي ارتكبوها»[10]، وبحســـب تعريف خامنئي، فإن جهاد التبيين يعنـــي القيام بأعمال علمية وبحثية وتنويرية في الفضاء الإعلامي، يكون هدفها مواجهة وساوس العدو، وبيان الأمور التي تحتاج إلى توعية داخل السلطة الإيرانية[11].

ومن وجهة نظر المرشد الإيراني، فإن جهاد التبيين في مجال قضايا مختلفة مثل: فاعلية النظام، وتحقيق الاقتصاد المقاوم، ومكافحة خطر النفوذ، وإضعاف معتقدات الناس تجاه المُثُل العليا للثورة، وفكر المقاومة، وأســـلوب الحياة وغيرها من القضايا التي يجب تناولها

في هذا الجهاد، ومن هـذا المنطلق، يُعد جهاد التبيين من وجهة نظـر النظام الإيراني أداة إستراتيجية للحفاظ على الأمن الثقافي، وزيادة الوعي الشعبي، وتعزيز الهياكل الاجتماعية والاقتصادية ضد الحرب الناعمة.

6. تشكيل المؤسسات

إن موضوع الإعلام والفضاء الافتراضي مُهم للغاية بالنسـبة للنظام، لدرجة أنه بدأ في بناء مؤسسـات مختلفة، ووفقًا لآخر الإحصائيات، تم رصد ميزانية قدرها 15 ألف مليار تومان لهذه الغاية[12]، والمؤسسات الثلاث الرئيسة التي تتحكم في الفضاء الإعلامي والافتراضي في إيران، تشـمل المجلس الأعلى للفضاء الافتراضي[13]، والحرس الثوري، ومجموعة عمل تحديد المحتوى الإجرامي[14]، ومن خلال تنفيذها سياسات مختلفة، تتخذ هذه المؤسسات إجـراءات مثل حجب المواقـع، ومراقبة الاتصـالات، والهجمـات الإلكترونية، واعتقال الناشـطين عبر الإنترنت، ويعمل المجلس الأعلى للفضاء الافتراضـي كهيئة صُنع القرار بشأن سياسات الفضاء الافتراضي، ويستجيب هذا المجلس لآراء النظام، وينفذ سياسات مختلفة، بما في ذلك حظر المحتوى ومراقبته، ويلعب الحرس الثوري[15]، بصفته مؤسسـة عسـكرية دورًا في أمن الفضاء الافتراضي، وتشـارك هذه المؤسسـة بفاعلية في مراقبة الاتصالات، وحماية الأمن السيبراني للنظام.

كمـا أن مجموعة العمل المعنيـة بتحديد أمثلة المحتوى الإجرامي هي المسـؤولة عن تحديد معاييـر وتعريفات المحتوى الإجرامـي وجمعها، وتحدد -وفقًـا لمعايير النظام- هـذه المفاهيم التي قد تعد ضد النظام أو ضارة به، وتشـجع هذه المؤسسـة عبر موقعها الإلكتروني المواطنين على كشـف المواقع الإجرامية، وأعلنت أنه «حتى الآن تم إرسـال ما يقرب مـن نصف مليون تقرير من الناس إلى هذه الأمانـة حول عرض محتوى إجرامي، وطلبات بتصفية مواقع الويب المختلفة، وتمّ إحالتها إلى الخبراء المعنيين للمراجعة»[16].

وبالتعاون مع هذه المؤسسـات الثلاث، ينفذ النظام الإيراني سياسـات واسعة النطاق للسـيطرة على الفضاء الافتراضي وإدارته، ما يترك آثارًا واسعة على التطورات الاجتماعية والثقافية في هذا البلد.

7. إستراتيجية استعمار الحقيقة

قدم ماك لوهان، وهو منظر بارز في مجال الإعلام، تفسـيرًا رائعًا للعلاقة بين التكنولوجيا والفكرة والحقيقة في كتابه «فهم وسـائل الإعلام»، وهو يعتقد أن كل تقنية جديدة أو كل فكرة هي في الواقع «امتدادات» للحواس البشـرية أو للجسـم ذاتـه، ويوضح هذا الرأي التأثير العميق للتكنولوجيا على حياتنا ووعينا[17]، وفـي هيكلية الجمهورية الإسلامية، يعد الجسـد والذاكرة الاجتماعية مكانًا لزراعـة «الأيديولوجيا» والترويـج لها، وتصبح هذه البيئة في مواجهة الأدوات الإعلامية، وخاصةً في مؤسسـة الحرس الثوري، ساحةً لتنفيذ إسـتراتيجيات استعمار الحقيقة، فالحرس الثوري من خلال السيطرة على وسائل الإعلام،

يســـعى إلى تحقيق أفكاره في ترســـيخ مرجعية الحقيقة وتعزيزها، لدرجة أن القائد العام للحرس الثوري حســـين سلامي في تصريح له قال: إن «هذه القوة العســـكرية لديها ألفي كتيبة في الفضاء الافتراضي تنتج المحتوى وتنفذ العمليات»[18].

ثانيًا: أنواع الإستراتيجيات الإعلامية للحرس الثوري لاستعمار الحقيقة

تعتزم الجمهورية الإسلامية من ناحية الحفاظ على ســـلطتها فـــي الفضاءات الإعلامية، خاصةً للاســـتهلاك المحلي، وهـــو ما تفعله مـــن خلال الفلترة والرقابـــة الصارمة وإدارة الانتقادات الصورية والاســـتعراضية، باســـتخدام جميع أنواع المغالطات المنطقية، مثل مغالطة التشبيه الخاطئ، ومن ناحية أخرى تحاول أن يكون لها صورة مقبولة في الفضاءات الخارجة عن ســـيطرتها ووسائل الإعلام الدولية، ولهذا السبب هناك فرق كبير بين إعلامها الدولي وإعلامها الوطني، ويوضح الرســـم البياني الآتي الترتيب الإســـتراتيجي لوســـائل الإعلام من حيث الأدوات:

ويمكن تصنيف الإســـتراتيجيات التي تخلق من خلالها أجواء اســـتعمارية للحقيقة عبر الوسائل التي تسيطر عليها، على النحو الآتي:

1. وسائل الإعلام ذات الاتجاه الواحد

وسائل الإعلام الرسمية (الإذاعة والتلفزيون والصحف الرسمية): وهي التي تتمثل مهمتها في نقل الســـردية الرسمية بشكل مباشر، وتخضع لرقابة صارمة، وتحت إشراف مباشر من الحرس الثوري، ولا يوجد تساهل في وسائل الإعلام هذه، ويجري فيها عدد محدود جدًا من «الانتقادات الاســـتعراضية» أو «المناظرات الصورية» بشكل مؤقت، على سبيل المثال في أوقات الانتخابات، لجذب الناس إلى صناديق الاقتراع، وهذه الانتقادات:

أ. موجهـــة للأفراد أو الحكومات، ولا تطال أبدًا النظام أو شـــخص المرشـــد، أو الهياكل العامة أو الحرس الثوري نفســـه، وهذه الانتقادات لها طبيعة اختزالية فيما يخص القضايا ذات المســـتوى الأدنى التي لا تؤدي إلا إلى خلق الإثارة والأمـــل الكاذب، وأحيانًا تجعل من الأشخاص تروسًا للدفاع، وبالتالي يتظاهرون بأنهم مجتمع ديمقراطي.

ب. هذه الانتقادات مؤقتة، وسرعان ما تُنسى، ولا تترك أثرًا.

ج. هذه الانتقادات تبتذل الانتقاد في حدّ ذاته، وتدمّر أهميته.

د. أحيانًا نجد هذه الانتقـــادات تظهر بالمظهر «الراديكالي» فـــي أوقات الأزمة، ولكنها في الحقيقة يطرحها منتقد سُـــمح له بطرح هذه الانتقـــادات الراديكالية من خلال الإذاعة والتلفزيون، ولها هدفين:

الأول: التضحيـــة بمصلحة صغيرة من أجل مصلحة أكبر في أوقات الأزمة، ولإبعاد الرأي العام عن أمور أكثر جديّة.

الثاني: إيجـاد الأمل الكاذب لدى المجتمع، لينتبه الرأي العـام إلى أمرٍ آخر ثانوي، وهذا المنتقد بعد مدة من الاشتهار خلال الفضاء الافتراضي يقوم بتغيير كلامه وتعديله، وبذلك يسيطرون على موجة الانتقادات ويوجهونها.

2. وسائل الإعلام شبه الرسمية

وتشمل: المطبوعات والمجلات ذات التوجه «الإصلاحي»، وقنوات الأفلام والمسلسلات المنزلية وما شـابه ذلك، وعلى الرغم من عدم وجود مكان لها في الفضاء الإعلامي الرسمي، فإنه مسـموحٌ لها ببث رسـالتها إلى حد ما، وبالطبع تُوبخ من حين لآخر، وفي الحقيقة لقد أخذ النظـام بعين اعتباره منح هؤلاء مجالًا للمناورة، حتـى يتمكنوا إلى حد معيّن من إبقاء العقول الأكثر انتقادًا في المجتمع منشـغلة بالقضايا القابلة للنقد، التي يمكن السـيطرة عليها، وفي الحقيقة من يديرون هذه الوسـائط لا يتقاضون أجورهم مباشـرة من النظام، ولكن حُددت دائرة من المناورة لهم للسير في الإطار نفسه، وفي الواقع هدفهم هو السيطرة على الحماس الاجتماعي، وإلقاء شعور زائف بالحرية، وتراعي وسائل الإعلام هذه الخطوط الحمراء، ولكنها تتجاوز أحيانًا الخطوط الصفراء لإثارة الشعور بالحرية لدى عامة الناس.

وجدير بالقول، إنهم يتجاوزون هذه الخطوط الصفراء في وسائل الإعلام الدولية الرسمية الموجهة للمخاطب الأجنبي أيضًا، فمثلًا يكون لباس مقدمات القنوات الدولية ومكياجهن أكثر انفتاحًا وأكثر أناقة وعصرية، لكنهن في النهاية ما زلن يرتدين الحجاب.

وفي الحقيقة، إن تيار «الإصلاحات» فـي الجمهورية الإسلامية لم يكن تيارًا إصلاحيًا حقيقيًا قادرًا على تعديل الأمور وتصحيحها تدريجيًا، لكنه لعب في الواقع دور صمام الأمان لتحرير الطاقات والحماس، وعندما وجدت هذه التيارات «الإصلاحية» القليل من الرغبة في الإصلاح الحقيقي، تم حذفها وقمعها بشـدة، وكانت النتيجة أن دُمّر صمام الأمان هذا أيضًا، وحوّل الناس شـعاراتهم الاحتجاجية، التي كانت موجّهة نحو المستويات الثانوية، نحو أسـس النظام وفواعله الحقيقية، وأدى ذلك إلى رد فعل حاد جدًا من النظام الإيراني، تجلى في القمع الشديد والقتل على نطاق واسع.

3. وسائل الإعلام المغايرة

حاول الحرس الثوري الإيراني بمختلف الحيل الترويج لسرديته في مواجهة وسائل الإعلام التي هي في الحقيقة مُخالفة ومضادة للنظام، على سـبيل المثـال، قام من خلال الخبراء بترويج كلمات سـرديّته باستخدام تركيز هذه الوسـائط على حرية التعبير، وكانت وسائل الإعلام الصفراء المُخالفة من بين الإمكانيات التي استغلتها الجمهورية الإسلامية لتوجيه الرأي العام إلى القضايا الهامشـية، وبشكل عام يسـتفيد النظام بشكل مسيطر عليه من وسائل الإعلام ذات الخطابات المُماثلة، حتى لو كانت متعارضة قليلًا، وعلى سبيل المثال، فهو ينقل إلى حدٍ ما انتقادات اليساريين طالما أنها تشوّه الكتلة الغربية والعالم الأوروبي.

4. وسائل الإعلام ثنائية التوجه

مع تطوّر الإنترنت، خرجت وسائل الإعلام من الوضع الأحادي التوجّه، ووجدت الإمكانية للمشاركة في الاتجاهين، في الخطوة الأولى، حاول النظام حذف شبكات التواصل الاجتماعي الأكثر انتشارًا، مثل «فيسبوك وتويتر وتيليغرام وواتساب وحتى إنستغرام»، من خلال الحجب على نطاق واسع، ولكن بطبيعة الحال أدّت الضرورة والحاجة لهذه الوسائط في حياة الناس اليومية إلى أن يتوجه الناس إلى الاستخدام الواسع النطاق لتطبيقات كسر الحظر (VPN)، ولذلك فقد قام النظام باستمرار باختبار العديد من الإستراتيجيات والتكتيكات في هذه الفضاءات ذات الاتجاهين للتحكم في تدفق المعلومات، ومنها:

أ. **الخبير المباشر:** يعني أنه يستدعي كوادره الأيديولوجية الملتزمة للدفاع المباشر عن الجمهورية الإسلامية في الفضاء الافتراضي.

ب. **الخبير والناشط غير المباشر:** أي أنه يستدعي القوى التابعة له على شكل مواطنين عاديين، حتى لو كانوا منتقدين لبعض القضايا، وذلك ليحقنوا الأفكار الأساسية للنظام.

ج. **نشر الأفكار وإثارة المشكلات:** أي أنهم يحاولون إنتاج الأفكار والمفاهيم والخطابات التي تشغل الرأي العام ببعضه البعض وتعزيزها، وتصرفه عن انتقاد النظام بأي شكل من الأشكال، مثل تعزيز العصبيات ونزاعات العرقيات مع بعضها البعض، وخلق المخاوف القومية وما إلى ذلك.

د. **الموجات الإخبارية-المتأزمة:** من الإستراتيجيات المهمة جدًا للنظام الإيراني خلق أخبار مضللة صاخبة، وذلك عندما ينتبه الرأي العام إلى أزمة حقيقية، والتي تتحول أحيانًا إلى تضحية مخيفة، مثل إطلاق النار على الطائرة الأوكرانية، وذلك بعد اغتيال قاسم سليماني، الذي كان بإمكانه أن يؤدي إلى أزمةٍ شرعيةٍ حقيقية، وتغيير اتجاه المناورة في الفضاء الإلكتروني نحو أخبار هذه الأحداث الثانوية.

هـ. **أمواج التعليقات:** من الأعمال الأخرى الإعلامية تربية كوادر كتائب البسيج والحرس الثوري السيبرانية، التي تتمثل مهمتها في التعليق على نطاق واسع أسفل المنشورات المهمة ذات المشاهدات الكثيرة، وذلك من أجل تشويهها أو تحويل الانتباه.

و. **أنواع الحوارات:** أي إنشاء أو اختراق غرف الحوار بهدف التعرف، والسيطرة على الأذهان، وتحريف الحقائق، وحقن الأفكار بشكل مباشر أو غير مباشر.

ز. حشد أشخاص للدفاع بشكل ضعيف عن المعارضة، ورسم رسومات كاريكاتيرية لهم.

ح. التشويه والاغتيال الإعلامي للشخصيات بكافة أنواع التوقيعات أو «الميمات» والمحاكاة الواسعة النطاق.

ط. الحرب النفسية والتشويه النفسي للكتاب والشخصيات البارزة من خلال الشتائم على سبيل المثال.

ي. تعزيز الأجواء الصفراء حتى تضمحل في خضمها الأخبار السياسية.

ك. إنشاء أجواء من الرعب من خلال عمليات الاعتقال والعقوبات الإعلامية الثقيلة.

ل. خلق متاهة السكوت، وإيجاد حالة من الاكتفاء بالتفرّج عن طريق تفريغ الطاقات في الفضاء الافتراضي في المستويات الثانوية، وخلق منطق رمي الكرة في ملعب الآخر.

م. صناعة أساطير مزيفة ومسيطر عليها في الفضاء الافتراضي.

ن. تشويه النقد والفكاهة من خلال اختزال طبيعة الفكاهة في التهريج، حتى في القضايا المهمة، وجعل الطبيعة الفكاهية النقدية ركيكة للغاية، على سبيل المثال في برامج مهران مديري في التلفزيون، ومحاكاة هذا الأسـلوب في فضاء الإنترنت، ما يسبب اقتصار النقد على انتقاد سلوك الموظفين في المكاتب.

ثالثًا: الإستراتيجيات الإعلامية للنظام من حيث المحتوى

يُشير الرسـم الآتي إلى الإستراتيجيات الإعلامية للنظام الإيراني من حيث إنتاج المحتوى، وسنتناول كل واحدة من هذه الإستراتيجيات لاحقًا:

1. المحاكاة (Representation)

المحاكاة هي إنتاج المعنى من خلال الأطر المفاهيمية والخطابية التي تُشكل البنية التحتية للمفاهيم الاجتماعية، وهذا يعني أن المعنى يتم إنتاجه من خلال الإشارات، وخاصة اللغة، واللغـة هي النافذة التي نتواصل من خلالها مع العالم، وهي خالقة المعنى للظواهر المادية والأساليب الاجتماعية، وهي ليسـت مجرد وسيط مُحايد لصياغة المعاني والمعرفة حول العالم، ولكن الظواهـر الاجتماعية والدينية والسياسـية وغيرها دائمًـا ما تدخل مرحلة التفسـير لجعل هذه الظواهر ذات معنى من خلال شـبكة اللغة، ولذلك فإن ما يسـمى بـ «الحقيقة» ليس خارجًا عن عملية المحاكاة[19].

وتُعد السـيطرة على مجال المحاكاة مـن خلال المراقبة والتحكم فـي إنتاج المحتوى والأخبار على مسـتوى وسـائل الإعلام الوطنية والمواقع الحكومية وشـبكات التواصل الاجتماعي، من العناصر الأولى التي يسـتخدمها الحرس الثوري للدخول إلى بنية الحقيقة والتلاعب بها؛ لأن العالم يتم إنشاؤه وإعادة بنائه من خلال المحاكاة[20].

وكما نعلم، فإن الحقيقة ليست موجودة بطريقة ذات معنى، والمحاكاة هي أحد الأساليب الفعالة لإنتاج المعنى، لأن المعنى ليس واضحًا أو شفافًا في ذاته، وهو لا يبقى ثابتًا مع مرور الوقت من خلال المحاكاة، والمعنى غير مسـتقر أو زلق[21]. والصراع الرئيس للحرس الثوري في إيران، هو في الواقـع نوع من الصراع حول المعنى، لأن المعانـي لا بد أن تجد مفهومها حسب ما تريده السلطة المسيطرة.

ويتبع الحرس الثوري الإيراني في سياسة المحاكاة عدة إستراتيجيات محددة، وسنجيب عن عدة أسئلة ناجمة عن هذه الإستراتيجيات لاحقًا، ويسعى إلى الإجابة عن الأسئلة التي تطرحها هذه الإستراتيجيات، وهي أسئلة مهمة للغاية.

أ- من الذين تسيطر محاكاتهم؟

ب-مـــن الذي يمكنه (لديـــه القوة) لمحـــاكاة الحقيقة، أو لديه ســـلطة على المفاهيم الاجتماعية على نحو ما؟

ج-من الذين يجب استدراجهم للسكوت حتى تسيطر هذه المحاكاة؟

د-من الذين يجب إسكات أصواتهم حتى تسيطر هذه المحاكاة؟

إن الرقابة لمعارضـــي النظام الإيراني وتصفيتهم وإبعادهم وســـجنهم، هي الإجابة التي قدمها الحرس الثوري على الأســـئلة المذكـــورة أعلاه خلال العقود الثلاثة الماضية[22]، وفي إســـتراتيجية تغيير بنية الحقيقة، يحاول الحـــرس الثوري دائمًا تقديـــم شكل جديد وفقًا لتقســـيماته المفاهيمية والأيديولوجية من خلال التدخّل في بنيـــة الحقيقة ومراجعتها، وفـــي الحقيقة يجب أن يتم نقل الصورة إلى المجتمع من منظور يمكن أن يمثل واقع النظام المنشود للمجتمع من خلال القنوات الإعلامية، وتحقيق هذا الهدف يتم من خلال المحاكاة الزائفة وتغيير الدلالات.

2. المحاكاة وتغيير الدلالات

وبما أن وسائل الإعلام هي المؤسسة الأكثر شـــمولًا لإنتاج المعرفة والوعي وتوزيعهما في العالم الجديد، فيمكن عد محتواها مصدرًا قويًا للمعنى حول العالم الاجتماعي، حيث تعد المحـــاكاة الإعلامية مهمة من حيث أنها تُشكّل المعرفـــة والاعتقاد العام، لذا فإن المحاكاة الإعلامية ليست صناعة محايدة للمعنى، لأن أي محاكاة متجذرةٌ في الخطاب والأيديولوجية التي تتم محاكاتها، فعلى ســـبيل المثال نجدها تصنع من الخطاب الإيراني الشـــيعي وهما طرفا القوميـــة الإيرانية معنى بطريقة مـــا، ومن ثم تُعيد إنتاج العلاقـــات التي تتوافق مع خطابـــه الأيديولوجي وتحافظ عليها، بمعنى آخر، تنتج الـــدلالات نوعًا من العلم والمعرفة تُفيد لإنشاء علاقات السلطة واســـتمراريتها في الإطار الأمني للحرس الثوري والمنظمات الخاضعة لقيادته، بحيث يكون كل معنى مســـتخدم في الخطاب الإعلامي للنظام الإيراني نابع من علاقات السلطة، وفي الوقت نفسه من توسيع تلك العلاقات وتحكيمها.

يعتقد معظم المنظرين في مجال الإعلام، من خلال تبنيهم نظرة تكوينية حول المحاكاة والدلالـــة، أن الظواهر في حد ذاتها ليســـت قادرة على الدلالة، ولكـــن معنى الظواهر لا بد أن تتـــم محاكاته من خلال الثقافة، ودور الحرس الثوري والأجهزة الســـيبرانية التابعة لهذه المؤسسة هي الوساطة بين الدلالات والمعاني التي يتم إيصالها إلى المستوى الاجتماعي، بعبارة أخرى، إنهـــا تُعيد تكوين ما حدث من خلال عمليـــات التوصيف وصناعة المفاهيم واســـتبدالها، ولا شك أن العالم موجود بعيدًا عن المحاكاة التي تجري عنه، ولكن ليصبح له معنى فهذا رهنٌ بمحاكاته، لذلك يمكن القول إن المحاكاة هي وسيلة نصنع من خلالها معنى للحقيقة، إذا قبلنا أن المعنى ليس له طبيعة ثابتة ومضمونة، ولكنه ينشأ من محاكاة خاصة للطبيعة في الثقافة، فيمكننا أن نســـتنتج أنه لا يمكن لمعنى أي شـــيء أن يكون ثابتاً، وفي الحقيقة، إن معنى كل شيء يأتي دائمًا من سياقٍ ما، ويخضع لعوامل أخرى، ويتبع لعلاقات

القوة المتغيرة، على سـبيل المثال عد قاسم سليماني، القائد السابق لفيلق القدس، وعلي خامنئي، في خطاباتهما في أوائل القرن الحادي والعشرين، أن الافتخار بالحكومة الأخمينية مجرد وهـم، وقامت أجهزة الدعاية بالترويج لذلك على نطاق واسـع في الداخل من خلال وسـائل الإعلام، ولكنهم بعد بضع سـنوات فقط أشـادوا في خطاباتهم بالهوية الإيرانية والتاريخ القديم[23]، ولذلك فإن المحـاكاة الثقافية والإعلامية والتلاعب بالمعاني ليس أمًرا محايدًا، بل يمتزج بعلاقات القوة لإنتاج المعاني المرجعية في المجتمع ونشرها.

3. محاكاة المفاهيم وإضفاء الطابع السلبي عليها

يتم إنتاج المحاكاة وتوزيعها في سياق المعاني مثل الفطرة السليمة، لكن هذا الوضع يخضع لإدارة وسـيطرة نظام سـلطة يُعطي الشـرعية لبعض المعاني دون غيرها، فتسود بعض الأفكار والمعاني ويُسـتثنى الباقي، كما أن سيطرة الحرس الثوري على الإعلام وإنتاج آلاف الناشـطين الإعلاميين والافتراضيين، يؤدي إلى طرح العديد من الأفكار والقيم ووجهات النظر المرتبطة بالفهم الأيديولوجي الإيراني الشـيعي للحكم، سـواء في مجال السياسة الداخلية أو الخارجية، على أنها الفطرة السـليمة أو الطبيعية، وبعبارة أخرى ما يتم تقديمه ليس الحقيقة، بل مُحاكاة الحقائق التي يرغب بها الخطاب الإعلامي للحرس الثوري.

إن العالـم الذي تصوره وسـائل الإعلام، مثل العالم الذي نعيش فيه ونشـعر به، عبارة عـن مجموعة ثقافية منظمة من «المقولات» أو «المفاهيم العامة»، نحن ندير العالم من خلال صناعة المفاهيم أو تصنيف المفاهيم[24]، ويقوم أسلوب صنع المعنى هذا على عملية «أيديولوجية»، وبعبـارة أخرى في عملية تصنيف الظواهر، فـإن الصور النمطية العقلية التـي يُمليها المجتمع هي المهمة، وليـس تجربتنا وفهمنا المباشـر للظواهر، والوصمات المفاهيمية مـن قبيل مقاومة العدو، والمومس، والمثليّ، وغيـر ذلك، تزودنا ببنية العالم «الأيديولوجي» الذي يتم عرضه في وسـائل الإعلام، ويـدل على موقف ذلك الإعلام من الطريقة التي تُنظّم العالم على أسـاس تلك الآراء والقيم. على سـبيل المثال الصورة التي ينقلهـا جهاز الدعاية عن الحرية الاجتماعية في الغرب تُنقَـل للمجتمع على أنها عبارة عن فجور وسـقوط أخلاقي، وأي رغبة في مفهوم الحرية الاجتماعية تتحول إلى وضع أخلاقي سـلبي من خلال وصمها[25]، أو على سـبيل المثال ما يتعلق بمفهـوم التنمية وما حدث في العقديـن الأخيرين في دول الخليج العربية، نجد أن التنمية والحكم القائم على القانون في هذه الدول، يجري نقله للمجتمع من خلال وسـائل الإعلام بعـد محاكاته وصبغه بالطابع السلبي، لدرجة أنه في محاكاة مفهوم التنمية، توصف بأنها حالة استعمارية من قبل الدول الغربية، فعلى سـبيل المثال، عد المرشد الإيراني علي خامنئي في خطاب ألقاه عام 2017م أن بناء الأبراج والمطارات في الإمارات بمنزلة تراجع ونوع من التخلف[26]، وهذه المواجهة في صبغ المفاهيم بالسلبية ستؤدي في النهاية إلى نوع من المقاومة لدى اللاوعي الاجتماعي

فـــي تقبّل الأفكار الحديثة، لدرجة تبدو فيها أي مواجهة ســـلبية أو أي قـــرار تتخذه الهيئة الحاكمة الصلبة في إيران بخصوص المجتمع أمرًا طبيعيًا.

4. المحاكاة والسردية

جـــرى تناول عبارة «الحرب هي حرب الســـرديّات» على نطاق واســـع في ســـياق الحرب الإعلامية وأجهـــزة الدعاية في إيران، لدرجة أن علي خامنئي عبّر عن أهمية هذه المســـألة بهـــذه الطريقة بقوله: «أنتم اســـردوا حقائق مجتمعكم وبلدكم وثورتكم، إذا لم تســـردوها فسيسردها العدو. إذا لم تسردوا الثورة، فسيسردها العدو»[27].

هذا المصطلح يُشير إلى التوجّه الذي يؤكد أهمية السيطرة الدقيقة وتجميع المعلومات في الفضاء الإعلامي، بعبارة أخرى الحرب لا تدور في ميدان المعركة العسكرية فحسب، بل تستمر أيضًا في الفضاء المعلوماتي والإعلامي.

وفي هذا السياق، تُعد إجراءات النظام الإيراني الرامية لتشكيل السرديات وتدوينها التي تتفق مع نظريات هذا النظام وأهدافه مصيرية للغاية، ومن خلال تبني هذه الإستراتيجية، تهدف الجهود إلى الحفاظ على الصورة الإيجابيـــة لخطاب الثورة الإسلامية وأهدافها في أذهان العامة وتعزيزها.

وبعبـــارة أخرى فهذه الجملـــة لا تُمثل مبدأً في الحرب الإعلامية فحســـب، بل هي أيضًا رمز للإســـتراتيجية العامة لجهاز الدعاية في إيران، الذي يهدف إلـــى الحفاظ على الرغبة الشـــعبية بأهداف النظام تحت أي ظرف من الظروف، لدرجة أن هذا الهدف جعل مسؤول العلاقات العامة في الحرس الثوري يُعلن في عام 2011م عن تنظيم 21 ألف مراســـل فخري داخل الباسيج، وقال إن هذا العدد من الصحافيين يتعاونون مع الحرس الثوري والبسيج في المجالات الثقافية[28].

الثقافة هي نظام من القصص أو السرديات التي يتم إنتاجها بشكل مكثّف، وتلعب دورًا وسيطًا بين الوجود والوعي بالوجود، وبالتالي تساعد كليهما، ووسائل الإعلام بصفتها أكثر رواة القصص انتشارًا، لها دور أساس في زرع الأيدولوجيات والقيم والمعتقدات المشتركة، وفي الحقيقـــة فإن الفضاء الاجتماعي البيـــن ذاتـــي (intersubjectivity) هو دائمًا هدف خطاب الحرس الثوري لبث السردية وتوزيعها.

السردية هي نموذج ثقافي معرفي بمنزلة نوع من النسخة العامة والمبسطة للتجربة البين ذاتية في العالم، تشمل النماذج الثقافية المعرفية على وجه التحديد جميع المعلومات التي يمتلكهـــا أبناء ثقافة ما، وتلك المعلومات تجعل من الممكن تنســـيق أفعالهم ومعتقداتهم وقيمهم وأعرافهم وتفسيرها وتوجيهها، والسرديات هي أُطر وخرائط معرفية يفسر الإنسان من خلالها الواقع، والنقطة المهمة في الحرب الســـردية التي يمارسها الحرس الثوري، هي أن الرواية تدل على رؤية صاحبها، لأنه في إستراتيجية تغيير بنية الحقيقة، هناك مقولات وقوالب لغوية يعكـــس اختيارها رؤية أو وجهة النظر المفروضـــة من قبل خطاب الحرس

الثوري، لأن القرار الذي يتخذه الناس في الحياة الاجتماعية، يعتمد على ما يدور في أذهانهم، والذي ينبع بدوره من الصورة أو الفكرة التي خلقتها وسائل الإعلام وسيطرة الحرس الثوري على السردية.

5. إدارة الوعي

تحدث قادة الحرس الثوري الإيراني مرات عديدة عن حرب الوعي واسعة النطاق في مختلف خطاباتهـم[29]، وهي الحرب التي تُعـرف في أدبيات الجمهورية الإسلامية باسـم «الحرب المعرفية»، وتتم إدارة هذه الحرب من قبل النظام على مستوى السياسة الداخلية من خلال الدخول في بنية الحقيقة وإعادة بنائها، وقد أشرنا إلى هذا في الرسم البياني «الإستراتيجية والمنهج والهدف» من هذه الدراسـة، لأنه في عملية تفسير الظواهر الاجتماعية، يستفيد الأشـخاص من طرق مختلفة لتحقيق فهـمٍ أفضل للبيئة المحيطة بهـم[30]، وتتشكل هذه التفاسير، سـواء في المجال السياسي أو الاجتماعي، بناء على تصورات ومعتقدات فردية، وسلوك الناس، ليس فقط على المستوى السياسـي، بل أيضا على المستوى الاجتماعي، ويعتمد على كيفية فهمهم وإدراكهم للحقائق.

العوامل الرئيسية المؤثرة في تكوين سلوك الأفراد هي نوع الإدراك والأفكار والمعتقدات المتأصلة في أذهانهم، وترتبط هذه المعتقدات والتصورات ارتباطًا وثيقًا بالموضوعات أو الأهـداف التي يدركها الناس، كما أن الأرضية التي يحدث فيها الإدراك تلعب دورًا مهمًا في تكوين هذه المعتقدات؛ لذا فإن السـيطرة على الأرضية مثل شبكات التواصل الاجتماعي ووسائل الإعلام، والمحتوى، هما عاملان مصيريان في إدارة الوعي من قبل الحرس الثوري.

وفي عملية إدارة الوعي، يسـتخدم الحرس الثوري أدوات مختلفـة، ومن هذه الأدوات العبث بالحقيقة والمحاكاة والتلاعب بالمعاني وصبغ المفاهيم بالطابع السلبي، وتُستخدم هذه العمليات على مستوى السياسة الداخلية من أجل السيطرة على التصور العام وكسب تأييد الناس، ولذلك فإن فهم الناس العميق للبيئة المحيطة بهم وسـلوكهم، لا يعتمد فقط على الوعي الفردي، بل يعتمد أيضًا على كيفية استخدام المؤسسات والأجهزة لأدوات إدارة الوعي.

ويلعب التلاعب ببنية الحقيقة والسـيطرة على السـردية دورًا مصيريًا في إدارة وعي الأفراد، ولهذه العمليـة تأثير كبير على فهم الأفراد وإدراكهـم لمختلف القضايا من خلال تغيير المعلومات والأحداث وإعادة النظر فيها، ويمكن لتكتيكات مثل اختيار مجموعة من الحقائق، وتجاهل أجزاء من الأحداث، أو إنشاء ترتيب زمني مختلف، أن تُغير الصورة العامة بطريقة تقود الناس إلى فهم محدد.

ومن خلال السيطرة على السردية، تُصبح لدى المؤسسات والأجهزة القدرة على تقديم مفاهيمها ووجهات نظرها إلى المجتمع، ولهذه السـردية تأثيـر مُحتمل على الوعي العام، ويمكن أن تشكل المسار الفكري للناس بشأن القضايا الاجتماعية والسياسية، كما أن هذه

السـيطرة تؤثر على الوعي بتركيزها على قضايا محددة، وتحديد الأولويات، وتشـجيعها التفكير في اتجاه محدّد.

كما يُشير اسـتخدام مفاهيم مثل «مصفاة الحقيقة» و«وسـائل الإعلام المؤثرة» إلى تأثير المؤسسـات في عملية تكوين الوعي، وأخيرًا، فإن الجمع بين التلاعب ببنية الحقيقة والسيطرة السردية، هي عملية متعددة الجوانب ومؤثرة في إدارة الوعي الجماعي وتشكيل الرأي العام.

خاتمة

تُعِد الجمهورية الإسلامية المجال الإعلامي ساحة معركة، وتحاول تعزيز قيم الثورة ومثلها من خلال صناعة المفاهيم، وإنشـاء المؤسسـات في المجال الإعلامي، وتعد أي خطاب خـارج إطار قيم الثورة خطابًا للعـدو، وتدخل معها في أجواء هجوميـة، وقد اختارت لهذه الحرب الناعمة إستراتيجية استعمار الحقيقة.

وفي عملية اسـتعمار الحقيقة، تسـتخدم الهياكل الحاكمة للنظام الإيراني وعلى رأسها الحـرس الثوري أدوات الاتصال الجماعي لتعزيز سـلطتها والحفاظ عليها، وتشـمل هذه الأدوات وسـائل الإعلام والتلفزيـون والإذاعة والإنترنت، وباسـتخدام هذه الأدوات، يتم تنظيم المعلومات والآراء والمحتويات الثقافية، بحيث تُقدم المعتقدات والأيديولوجيات السائدة على أنها واقع المجتمع.

تؤدي هذه السـيطرة تدريجيًا إلى حدوث تحول في الفهـم الاجتماعي، ومن خلال هذه التغييرات في أدوات الاتصـال الجماعي، يتم توجيه الأفراد إلـى معتقدات وقيم جديدة، ولا شـك أن اسـتعمار الحقيقة بوصفها أداة سـلطة، له تأثير كبير على تشـكيل الفضاء الأيديولوجي والاجتماعي، ويمكن أن يكون له تأثير عميق على الرؤية العالمية الجماعية.

إن المركز والنقطة المحورية التي يستخدمها الحرس الثوري في الإستراتيجية الإعلامية والمحاكاة هو الخطاب الأيديولوجي الشيعي-الإيراني، ويسعى الإعلام في هذه البنية إلى تقديم صور وأخبـار تتوافق مع مبادئ صياغة هذا الخطاب وقيمهـا، وتأتي هذه المحاولة للتكيف مـع المفاهيم الدينيـة وإيجاد ارتباط وثيـق بين المعلومات المنشـورة والقيم الطائفية-القومية، من أجل السـيطرة على الوعي العام وتعزيز الهوية الشيعية-الإيرانية للمجتمع، وفي هذه البنية يُسـتخدم الإعلام كوسيلة لتشـكيل الدور الثقافي والاجتماعي وتحديده، لتنشغل بترويج القيم والالتزامات الدينية والوطنية.

وبالنظر للتكتيكات الدعائية التي يسـتخدمها النظـام الإيراني، وخاصة من قبل الجهاز الدعائي التابع للحرس الثوري، يمكن ملاحظة أن هذا الجهاز يسعى إلى خلق جو أيديولوجي خـاص، وإيجاد مفهوم للمقاومة فـي مواجهة تأثير المفاهيم الحديثـة، كما هو الحال في العالم الواقعي، إذ يسـعى من خلال تشكيل الجماعات الشـيعية، إلى خلق صورة مثالية للنضال والمقاومة بالتلاعب بالمعاني والمفاهيم، ويسـتخدم في الإستراتيجية الإعلامية

تكتيكات مـن قبيل انتقاء جزء من المعلومات، وترتيب الأولويات، والتعميمات الواسـعة للتأثير على أذهان المجتمع الإيراني والسيطرة عليها.

ومن ثَّم يحاول هذا النهـج الدعائي الحفاظ على خطابـه «الأيديولوجي» وتعزيزه من خلال إيجاد غطاء «أيديولوجي» قوي وزيادة حجم الأكاذيب، ولا تسـاعد هذه العملية على تأسيـس النظام «الأيديولوجي» وتعزيزه للنظام الإيراني فحسـب، بل تقلل أيضًا من تأثُّر الناس بالأفكار الحديثة والمفاهيم الغربية، وتروّج للمقاومة في وجه هذه المفاهيم.

المصادر والمراجع

(1) Vuving, Alexander, The Logic of Attraction: Outline of a Theory of Soft Power, a paper presented at the American Political Science Association meeting in Toronto, September 3, 2009, accessed: October, 8. 2024, https://2h.ae/SOnG

(2) William A. Callahan.Identity and security in china: the negative soft power of the china dream, politics, (Sage Journals, Volume 35, Issue 3–4, March 16, 2015), https://2h.ae/oUyU

(3) لمزيد من الاطلاع انظر:
Joseph Samuel Nye Jr.Soft Power: The Means to Success in World Politics (New York: Public Affairs, 2004).

(4) الإكسيولوجيا يراد بها: العلم الذي يبحث في ما هو(قيّم) و(ثمين) و(جديد)، وتكون الفلسفة المتصلة به هي (فلسفة القيم) أو (نظرية القيم)، فالقيمة هي: كل ما له شأو في التصور وفي الفعل لدى الأفراد والجماعات.

(5) "لقد قلت في وقت ما بأنهم يهاجموننا ثقافياً، وهذا صحيح والله يعلم إنه صحيح. البعض لا يفهم ذلك. يعني أنهم لا يرون المشهد. من ينظر إلى المشهد، يعلم ما الذي يفعله العدو. ويعلم أنه هجوم، ويا له من هجوم!" (خطاب خامنئي خلال لقائه بأعضاء مجلس الثورة الثقافية –1991م).

(6) الهدف النهائي في الحرب الناعمة هو الهدف في الحرب الصلبة نفسه، يعني السيطرة وانهيار نظام سياسي، لكن أدوات هذا الأمر مختلفة. فإن كان إسقاط نظام سياسي يمكن تحقيقه في الحرب الصلبة من خلال احتلال الأرض، وبالتالي ينهار النظام الدفاعي والأمني لبلد ما، فإن المحاولات في الحرب الناعمة تتجه نحو التأثير على المعتقدات والقيم لشعب ما، وتحدي الفكر وطريقة إدارة البلد التي تمنح النظام السياسي هويته. في حال نجح العدو في الإسقاط، فهو سيحقق نجاحًا في الحقيقة من خلال نزع الشرعية والثقة عن النظام السياسي.

(7) زهرا قاسمي، تبيين مفهوم جنگ نرم در انديشه رهبر جمهوري إسلامي، فصلنامه حبل المتين، (دوره دوم، شماره 3 و4، تابستان وپاييز/ 1392 هـ ش)، تاريخ الاطلاع: 7 أكتوبر 2024م، https://2h.ae/Wkzs

(8) على سبيل المثال، وصف المرشد الإيراني خامنئي في خطابه في 12 أكتوبر 2023م. خلال لقائه الأعضاء الجدد في مجمع تشخيص مصلحة النظام، الأحداث الجارية في البلاد، بـ"الاضطرابات المتفرقة" وأنها "تخطيط سلبي وأخرق من العدو في مواجهة التطورات والحركات الكبيرة والمبتكرة للشعب الإيراني". وهذه القضايا "ليست مسألة عفوية داخلية. بالطبع، ربما استخدموا بعض المجالات، لكن إجراءات العدو، مثل الدعاية ومحاولة التأثير الفكري وإيجاد الحماس والتشجيع وحتى تعليم طرق صنع المواد الحارقة، أصبحت الآن واضحة تماماً". موقع مكتب خامنئي، الصمود هو الحل الوحيد للعداوات، والأحداث الصغيرة لا ينبغي أن تلهي المسؤولين عن الإعمار، (12 أكتوبر 2022م)، تاريخ الاطلاع: 7 أكتوبر 2024، https://2h.ae/GhzU

(9) خبرگزاری بین‌المللی قرآن (ایکنا)، جهاد تبیین در بیانات رهبر انقلاب اسلامی، (20 تیر 1401هـ ش)، تاريخ الاطلاع: 8 أكتوبر 2024م، https://iqna.ir/fa/about

(10) khamenei.ir، بیانات در دیدار مداحان اهل بیت علیهم السلام، (1400/11/03)، تاريخ الاطلاع: 7 أكتوبر 2024م، https://farsi.khamenei.ir/speech-content?id=49448

(11) خبرگزاری بین‌المللی قرآن (ایکنا)، جهاد تبیین در بیانات رهبر انقلاب اسلامی / مرجع سابق.

(12) ديجياتو، پیشنهاد دولت برای بودجه سال 1402 وزارت ارتباطات: 15,6 هزار میلیارد تومان، تاريخ الاطلاع: 6 أكتوبر 2024، https://2h.ae/HcSk

(13) تم تأسيس المجلس الأعلى للفضاء الافتراضي بتاريخ 7 مارس 2012م. بأمر من علي خامنئي.

(14) تم تشكيل مجموعة عمل تحديد المحتوى الإجرامي في عام 2008م. بموجب المادة 22 من قانون الجرائم الإلكترونية الذي كان قد أُقِرَ في نفس العام، ويرأسها مدعي عام إيران.

(15) تم إنشاء هذه المؤسسة العسكرية رسميًا في مايو 1979م. بأمر من آية الله الخميني قائد الثورة، لقمع الثورة المضادة وحماية مكتسبات الثورة. وتحولت هذه المنظمة تدريجياً إلى تحالف كبير ومتشعب موجود في جميع مجالات إيران. وقد أدت هذه المكانة الخاصة التي يتمتع بها الحرس الثوري إلى تحويله إلى المؤسسة الأكثر مشاركة في الرقابة على الإنترنت وقمع المدوّنين.

(16) گران بدون مرز را قادر، دشمنان اینترنت –إیران: سپاه پاسداران انقلاب اسلامی، شورای عالی فضای مجازی، کارگروه تعیین مصادیق محتوای مجرمانه، (12/ 03/ 2014هـ ش)، تاريخ الاطلاع: 7 أكتوبر 2024، https://2h.ae/cIlt

(17) Marshall McLuhan, Understanding Media: The Extensions of Man (1st ed.), (New York: McGraw Hill, 1964), accessed: Oct. 7, 2024, https://2h.ae/RDrh

(18) في الوقت الحاضر يتولى الحرس الثوري أكبر مشاريع إنتاج المحتوى والعمليات النفسية في الفضاء الافتراضي، ومن أهم المؤسسات التابعة له مؤسسة "سراج". منذ عام 2008م. وصعاداً أعلن قادة هذه المؤسسة العسكرية مراراً عن تنظيم كتائب افتراضية في الفضاء الافتراضي هدفها محاربة "الحرب الناعمة"، ويُنفق سنوياً مليارات التومانات على هذه الكتائب الافتراضية التي غالباً ما تتمركز في مقرّات البسيج والمساجد، ويمارس أعضاؤها نشاطهم من المنزل، راجع: ایندیپندنت فارسی، فرمانده سپاه: دو هزار گردان سایبری سازماندهی کرده‌ایم، (15 شهریور 1401هـ ش)، تاريخ الاطلاع: 5 أكتوبر 2024، https://2h.ae/rWVM

(19) Chris Barker, Emma A. Jane, Cultural Studies Theory and Practice, SAGE Publications Ltd; 2004).

(20) Ben Calvert, Neil Casey, Bernadette Casey, Liam French, Justin Lewis, Television Studies: The Key Concepts, (Routledge: 2002), P200 .

(21) Stuart Hall, Christophe Jaquet et Kolja Lindner, Signification, représentation, idéologie (Althusser et les débats poststructuralistes, no 48, novembre 2012,1991), accessed : Oct. 8, 2024, https://2h.ae/voyR

(22) . في مارس 2013، نشرت منظمة مراسلون بلا حدود تقريرًا عن اليوم العالمي لمكافحة الرقابة الإلكترونية، حيث أُطلق فيه على إيران، والصين وسوريا والبحرين وفيتنام، تسمية الدول الخمس المعادية للإنترنت. ووضعت منظمة مراسلون بلا حدود المركز الوطني للفضاء الإلكتروني في إيران على قائمة المؤسسات القامعة للفضاء الإلكتروني في العالم، ووصفت أنشطته بأنها "خطر واضح على حرية الرأي والتعبير المنصوص عليها في المادة 19 من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان". وأيضًا، أدرج بيت الحرية في قائمته لعام 2022 النظام الإيراني على قائمة أسوأ الدول من حيث حرية الوصول إلى الإنترنت. وفي عام 2022 أيضًا، فرض النظام الإيراني الرقابة الأكثر صرامة على الإنترنت في إيران.

(23) موقع youtube.com، أنصار كليپ، 17.رهبر انقلاب: افتخار به هخامنشیان توهم است، (23 نوفمبر 2021)، تاريخ الاطلاع: 8 أكتوبر 2024، https://2h.ae/sWxq

(24) Eoin Devereux, Understanding the Media, (London; sage, 3 ed., 2003), accessed: Oct. 7, 2024, https://2h.ae/rkCw

(25) تسنیم نیوز، آمار تکان دهنده از تجاوز به دختران وزنان در آمریکا، (27 دی 1401هـ ش)، تاريخ الاطلاع: 8 أكتوبر 2024، https://2h.ae/vThs

(26) خبرآنلاین، فیلم | رهبرانقلاب: امروز بلندترین برج منطقه در بی‌عُرضه‌ترین کشور است!، (2 اسفند 1396 هـ ش)، تاريخ الاطلاع: 7 أكتوبر 2024، https://2h.ae/bBpU

(27) دفاع مقدس، جنگ روایت‌ها در اندیشه رهبر معظم انقلاب اسلامی / اگر روایت نکنید، دشمن روایت می‌کند، (01 دی 1400هـ ش)، تاريخ الاطلاع: 8 أكتوبر 2024، https://2h.ae/YuUs

(28) رادیو فردا، یک مقام سپاه پاسداران: 21 هزار خبرنگار افتخاری در بسیج به کارگرفته خواهند شد، (مهر 17, 1390 هـ ش)، تاريخ الاطلاع: 8 أكتوبر 2024، https://2h.ae/vgsT

(29) وکاله ایسنا، وارد جنگ ادراکی وشناختی با دشمن شده ایم، (11 / 07 / 1401 هـ ش)، تاريخ الاطلاع: 8 أكتوبر 2024، https://2h.ae/DIqt

(30) Robert S. Feldman, Robert A. Baron, Social Psychology: Understanding Human Interaction, (Allyn and Bacon, 1974).

إيران والحملة البحرية للحوثيين في البحر الأحمر.. دراسة تطبيقية لنموذج «الراعي-الوكيل»

ليوناردو جاكوبو ماريا مازوكو

باحث متخصص في الشؤون الأمنية لمنطقة الخليج
بمعهد واشنطن للشرق الأوسط

مستخلص:

تبحث هذه الورقة البحثية في العلاقة بين جماعة أنصار الله «الحوثي» وإيران في إطار النقاش الأكاديمي حول ديناميات نموذج «الراعي-الوكيل»، وذلك بأخذ حملة «الحوثي» في مهاجمة السفن البحرية داخل البحر الأحمر وما حوله نموذجًا لهذه الدراسة. ويتمثل الهدف الأساس للدراسة في تسليط الضوء على الكيفية التي تمكَّن «الحوثي» من خلالها تشكيل ارتباطات أعمق وأكثر تطورًا أمنيًا مع إيران، مع احتفاظه بسُلطة كبيرة على هيكل السيطرة والتحكم، وعمليات صنع القرار الداخلي، ووضع الأولويات الإستراتيجية.

تبدأ الورقة بدراسة عقيدة إيران العسكرية بالتركيز على الدور الذي يلعبه الردع، والدفاع الأمامي، و«محور المقاومة» في إمداد العقل الإستراتيجي الإيراني بالبيانات وفي رسم خياراتها في السياسات. ومن ثم التركيز على تحليل جذور نشأة «الحوثي» كقوة بحرية إقليمية، ودور إيران متعدد الأوجه في تعزيز قدرات «الحوثي» العسكرية في البحر، كما تُحلل الورقة حملة «الحوثي» البحرية ضد السفن في البحر الأحمر، باستعراض الاعتبارات الإستراتيجية، والوسائل التكتيكية التي استخدمها الحوثيون في حملتهم البحرية ضد السفن التجارية الدولية.

الكلمات المفتاحية: الحوثي، إيران، البحر الأحمر، حرب الوكالة، الحرب البحرية غير المتكافئة.

Abstract

This research article investigates the relationship between the Houthis and Iran within the framework of the sponsor–proxy academic debate using the Houthis' Red Sea campaign as a case study. The primary goal of the article is to highlight how the Houthis have cultivated deeper, more sophisticated security engagements with Iran while preserving significant agency over its command–and–control structures, internal decision–making processes, and agenda–setting of strategic priorities. It starts by examining Iran's military doctrine, focusing on the role that deterrence, forward defense, and the "Axis of Resistance" play in informing the Iranian republic's strategic thinking and shaping its policy options. It focuses on analyzing the origins of the Houthis as a nascent maritime force regionally, specifically singling out Iran's multifaceted role in consolidating Houthi force projection capabilities at sea. It then delves into the study of the Houthi attacks in the Red Sea, mapping the strategic considerations and tactical means underpinning the Houthis' campaign against international commercial shipping.

Keywords: Houthis, Iran, Red Sea, Proxy Warfare, Asymmetric Maritime Warfare.

المقدمة

في 19 نوفمبر عام 2023م، استولت جماعة «أنصار الله» المسلحة المعروفة باسم «جماعة الحوثي» أو «الحوثيين» في اليمن على حاملة المركبات «جالكسي ليدر| Galaxy Leader»، وهي سفينةٌ تجاريةٌ ترفع علم جزر البهاما، وتشترك في ملكيتها شركة «راي كار كاريرز| Ray Car Carriers» للشحن المرتبطة بإسرائيل، وأثناء عبورها البحر الأحمر في طريقها من تركيا إلى الهند، هبَط على متن السفينة عناصر «الحوثيين» من طائرة هليكوبتر وسيطروا عليها، ومنذ الاستيلاء على حاملة المركبات «جالكسي ليدر»، شن «الحوثيون» عشرات الهجمات متعددة الجوانب على السفن التجارية والعسكرية في البحر الأحمر ومحيطه، وقد استخدم الحوثيون في هجومهم على السفن أنواع مختلفة من الأسلحة تراوحت من الصواريخ الباليستية المضادة للسفن، وصواريخ كروز، وأساطيل من الزوارق السريعة، والطائرات المسيرة، وكذلك السفن المسيرة.

ورغم أن «الحوثيين» نشؤوا وكبروا بوصفهم جماعةً مسلحةً تعمل برًا، إلا أن توسعهم العسكري في عام 2014م نحو محافظة الحديدة، حيث تُوجد أهم الموانئ اليمنية، دفعهم إلى تعزيز تكتيكاتها البحرية، وانعكس هذا التطور المتزايد على قدراتهم الهجومية البحرية في إطلاق عدة عمليات من الحرب الهجينة صغيرة النطاق في البحر الأحمر منذ عام 2015م، لكن منذ منتصف نوفمبر عام 2023م، أصبح حجم الهجمات، وأنواع أنظمة الأسلحة المستخدمة، ونطاقات العمليات الهجومية على السفن غير مسبوق.

وقد أطر «الحوثيون» حملتهم في مهاجمة سفن الشحن بأنها خطوة عسكرية تُعبر عن دعمهم لـ«حركة حماس»، وتهدف إلى الضغط على إسرائيل لوقف عدوانها على قطاع غزة، ومع أن المشاعر المعادية لإسرائيل والولايات المتحدة تلعب دورًا في تشكيل الموقف الإستراتيجي والعسكري لـ«الحوثيين»، إلا أن طموحاتهم الإستراتيجية في اليمن والمنطقة هي القوة الدافعة الرئيسة لشنهم هجمات تستهدف الملاحة البحرية الدولية. وهكذا تُقدم عمليات «الحوثيين» البحرية غير المتكافئة، في السياق الأوسع للحرب بين إسرائيل وغزة، إضاءات مهمة توضحُ دور المساعدات الأمنية الإيرانية في تعزيز قدرات «الحوثيين» في الحرب البحرية، وماهية الشبكة المعقدة من العلاقات العسكرية والسياسية الخارجية التي تربط بين «الحوثيين» وإيران، كما تكشف مدى التطورات التي لحقت بدور «الحوثيين» كآلة حرب في شبكة وكلاء إيران في المنطقة، والمعروفة باسم «محور المقاومة».

تبدأ الورقة باستعراض موجز للنقاش الأكاديمي المعاصر حول الحرب بالوكالة، ومن ثم يستعرض المحور الثاني تطور العقيدة العسكرية الإيرانية وخصائصها الرئيسة، مع تسليط الضوء خاصةً على مفهوم «الردع»، ومفهوم «الدفاع الأمامي»، و«محور المقاومة»، ويناقش المحور الثالث العلاقة بين الحوثيين وإيران في ضوء النقاش العلمي

حول مفهوم «الراعي والوكيل»، ويستعرض المحور الرابع جذور قدرات «الحوثيين» في الحرب البحرية غير المتكافئة، ويناقش المحور الأخير حملة «الحوثيين» ضد سفن الشحن في البحر الأحمر، مع تسليط الضوء على الاعتبارات الإستراتيجية التي تدعم الهجوم البحري للجماعة والوسائل التكتيكية التي تنفذها من خلالها هجماتها.

أولاً: نظرة عامة حول ديناميات نموذج «الراعي-الوكيل»

منذ بداية الحرب الباردة، جذبت الحروب في إطار العلاقة بين «الراعي والوكيل» اهتمام الباحثين، وفي إطار المنافسة على السلطة في النظام العالمي ثنائي القطبية، كانت حروب الوكالة تُدرس في المقام الأول من منظور المواجهة بين القوى العظمى، لذلك ليس من المستغرب أن تركز أدبيات حقبة الحرب الباردة على حروب الوكالة بصورة أساسية، بشكل يفوق تحليل الجهات الفاعلة المتدخلة، والجوانب القابلة للقياس في علاقة «الراعي-الوكيل»[1].

ومع ذلك، فقد سلطت الدراسات المعاصرة حول «الحروب في إطار الراعي والوكيل» الضوء على التطور الكبير في «حروب الوكالة» منذ بداية ظهورها في حقبة الحرب الباردة[2]، وعلى الرغم من أن المصطلحات والمقاييس لدراسة «الحروب في إطار الراعي والوكيل» لا تزال موضع خلاف في المناقشة الأوسع نطاقًا حول «حروب الوكالة»، فقد توصلت التعريفات الحديثة لحروب الوكالة إلى إجماع حول بعض السمات المهمة لحرب الوكالة المعاصرة، وتشمل هذه السمات: أن حروب الوكالة واسعة وليست نتاجًا ثانويًا للمنافسة بين القوى العظمى فحسب، والجهات الفاعلة غير الحكومية (الوكلاء) هم مستفيدون محتملون، والتركيز على البُعد العلائقي للتفاعل بين الراعي والوكيل[3].

على سبيل المثال، عرّف الباحث أندرو مومفورد andrew mumford الحرب بالوكالة «باعتبارها المشاركة غير المباشرة في صراع من أطراف ثالثة ترغب في التأثير على نتائجه الإستراتيجية»[4]، ويؤكد مومفورد أن الجهات الفاعلة الحكومية وغير الحكومية يمكن أن تكون مستفيدة، وتتدخل كجهات فاعلة خارجية في الشؤون الداخلية للدولة، وتوفر الأسلحة والتدريب والتمويل لوكيل مختار[5]، وعلى نحو مماثل، عرّف الباحث غروه الحرب بالوكالة بأنها «توجيه استخدام القوة من جهة فاعلة محلية ذات دوافع سياسية للتأثير بصورة غير مباشرة على الشؤون السياسية في الدولة المستهدفة»[6]، والمثير للاهتمام هنا أن تعريف غروه يوضح كيف تولد ديناميكية الراعي والوكيل بطبيعتها علاقة هرمية بين الفاعلين؛ بحيث يعطي الوكيل الأولوية لمصالح الراعي على أجندته الخاصة ويقلص استقلاليته من أجل الوصول إلى دعم الجهة الفاعلة المتدخلة[7].

وقد حدد دانيال بايمان Daniel Byman العوامل الإستراتيجية، والأيديولوجية، والداخلية، باعتبارها ثلاثة دوافع رئيسة تدفع الجهات الفاعلة إلى التدخل في الشؤون الداخلية للدولة. تشمل المخاوف الإستراتيجية: زعزعة استقرار أو إضعاف الجار،

واســـتعراض القوة، وتغيير النظام، وتشكيل المعارضة. وتشـــمل العوامل الأيديولوجية: تعزيز المكانة الدولية، وتصدير النظام السياســـي. وأخيرًا، تتضمن الاعتبارات السياسية الداخلية مســـاعدة الأتباع والحصول على المساعدات العســـكرية أو العملياتية[8]، ويظل دعم الطرف الخارجي المتدخل لفاعل محلي هو حجر الأساس للعلاقة بين الراعي والوكيل، وقد حدد بايمان ســـتة أنواع من الدعم الحكومي للجماعات غير الحكومية وهي: التدريب والعمليات، والمال والأسلحة والخدمات اللوجستية، والدعم الدبلوماسي، والمساعدة في التنظيم، والتوجيه الإيديولوجي، والملاذ[9].

ثانيًا: عقيدة إيران العسكرية «الدفاع بالردع»

منذ نشـــأة الجمهورية الإيرانية، خلق تواجد قوات الولايات المتحدة في الشـــرق الأوسط، وعـــدم تكافؤ الكفة بين ما تمتلكه إيران من قدرات عســـكرية تقليديـــة مقارنة مع جيرانها وأعدائها من خارج المنطقة عاملًا قويًا في تشـــكيل منظور القيـــادة الإيرانية حول مفهوم التهديد[10]، ولقد لعبت الضرورة الملحة لضمان أمن النظام والتعويض عن الضرر الناتج عن القيود التي تواجهها البلاد في مجالات القوة الخشنة (أي القوة العسكرية) دورًا أساسيًا في تشكيل العقيدة العســـكرية الإيرانية وخياراتها الإستراتيجية[11]، وكان لخبرة إيران في حرب الثمان ســـنوات مع العراق (1980–1988) دورٌ محوريٌ في تأطير عقلية إيران العســـكرية لسببين رئيسين: أولًا: كشفت الحرب مواطن ضعف إيران في خوضها حربًا تقليدية. وثانيًا: وضحت مدى شـــعور القيادة الإيرانية بعدم الأمن والضعف من الهجمات الخارجية، وفي ظل حرصها على بقاء النظام واستمراره في ظل التهديدات الأمنية المستقبلية، استثمرت إيران بشكل رئيس في تطوير قدرات ردع عسكرية فعالة[12]، وفي هذا السياق، أصبح التهديد لشن حرب غير تقليدية والتوسع السريع في تطوير برنامجها للصواريخ الباليستية أساس موقف الردع الإيراني[13].

1. مسار عقيدة «الدفاع الأمامي»

تأثـــر تعريف القيـــادة الإيرانية لمفهوم التهديـــد وتباعًا العقيدة العســـكرية للدولة بعدة عوامل، على رأسها: إعادة تشكيل موازين القوى والنظام السياسي في المنطقة أعقاب غزو الولايات المتحدة أفغانستان عام 2001م، والعراق عام 2003م، ومن ثم ثورات ما يسمى بـ «الربيع العربي» عام 2011م، وبســـبب خوفها من أن تصبح الهدف التالي لواشنطن تحت ما يُســـمى بـ «الحرب على الإرهاب»، ونظرًا لإدراكها عدم تكافؤ قوتها مع القوة العسكرية الأمريكية، طورت إيران هيكلة دفاعية متعددة الطبقات–المســـتويات، بحيث شملت كلا خواص الحرب التقليدية وغير التقليدية، وهذا ما يعرف بمفهوم «دفاع الموزاييك»[14]. يقوم أساس هذا المفهوم على التفكير الإستراتيجي المعتمد على الردع، ويشمل أيضًا فكرة منع أي غازٍ محتمل من التفوق جوًا أو بحرًا أو برًا، وذلك بدفعه لخوض حروب غير متكافئة وجعله يعاني داخليًا من قتال استنزاف قوي على أرضه من خلال الحشد الشعبي الشامل[15].

الأســـاس المنطقي الذي تقوم عليه الحرب غير المتكافئـــة لا يتلخص بهزيمة الخصم هزيمة عسكرية مطلقة، ولكن باستغلال مواطن ضعفه وثغراته العسكرية لإرهاق عزيمته في خوض عمليات عســـكرية متواصلة، وفي هذا الســـياق، بدأ توحيد قدرات الحرب غير المتكافئة وتوطيدهـــا بهدف تعزيز قدرات وأســـلحة «منـــع الوصول-رفض المنطقة» المعروفة باسم «AD/A2» تأخذ أهمية متزايدة في تشكيل العقيدة العسكرية الإيرانية.

وتهدف قدرات «منع الوصول» إلـــى منع أي قوة غازية مُحتملة من الدخول إلى أراضي الدولـــة، وتهدف قدرات «رفض الوصول» إلى تثبيط قدرة القوة الغازية من إجراء عمليات في المناطق القتالية[16]. وتدريجيًا، بنت إيران عقيـــدة مركبة للحروب غير المتكافئة تعتمد على دمج نشـــر الأنظمة الدفاعية المتنقلة، والصواريخ الباليستية، والهجمات السيبرانية الحربية، والعمليات الحربية البحرية[17].

وبعد أحداث ما يســـمى بالـــ «الربيع العربي» عام 2011م، أضافت إيران عامل الهجوم إلى عقيدتها في الردع الدفاعي المعروفة بإســـتراتيجية «الدفـــاع الأمامي»، وكان الهدف الأساس لإضافة مستوى جديد إلى العقيدة الدفاعية الإيرانية إعطاء إيران عمق إستراتيجي على مســـتوى المنطقة؛ من أجل اعتراض أعدائها والتصـــدي للتهديدات التي قد تصيب نظامها الأمني ما بعد حدودها الوطنية، وتتمثل الغاية القصوى لعقيدة «الدفاع الأمامي» فـــي تجنب تعريض أراضي الدولة الإيرانية من الارتدادات الســـلبية للحرب، وذلك بإجراء عمليـــات القتال مع أعدائها في مناطـــق عازلة بعيدة عن ترابها الوطنـــي[18]، وتعتمد أدوات «الدفـــاع الأمامي» الإيراني على أربع ركائز أساســـية هي: برنامج الصواريخ الباليســـتية، وقدراتها في الحروب الســـيبرانية، وأنظمة التحكم الذاتي، وشبكة وكلائها من الجماعات المسلحة من غير الدول المنتشرة في المنطقة[19]، المعروفة أيضًا باسم «محور المقاومة».

2. محور المقاومة

في العقد الثاني مـــن الألفية الثالثة، أصبح دور الجماعات المســـلحة من غير الدول أكثر بـــروزًا في التفكير الإســـتراتيجي الإيراني، ولكن منـــذ الثمانينات من القـــرن الماضي كان لجماعات الوكالة وظيفة إســـتراتيجية ومحورية في العقيدة العسكرية الإيرانية. ويعرف «محور المقاومة» أنه تكتل سياســـي أمنـــي بقيادة إيران يتكون مـــن دول تتوافق مع إيران فكريًا، والفاعلين من غير الدول في الشـــرق الأوسط ممن يشاركون إيران أيضًا فكرها تجاه النظام العالمي المناوئ للإمبريالية والقائم على الأجنـــدة الإسلامية العالمية[20]، وفي هذا الصدد، ثمة مشـــاعر معينة تمتاز بها «الجمهورية الإيرانية الإسلامية» مثل التعاطف مع الشيعة وكراهية الغرب، هذه المشاعر أســـهمت بشكل كبير في تشكيل إستراتيجية إيران لبناء محورها في الشرق الأوسط[21].

وعلـــى الرغم من صعوبة تحديد رقم معين بعدد أعضاء شـــبكة هذا المحور الذي تقوده إيران، ولكن من المتعارف عليه أنه يشـــمل مجموعة من الجماعات المســـلحة في العراق،

ونظام الأسد في سوريا، وحزب الله في لبنان، وحركة حماس في غزة، والحوثيين في اليمن[22]، وتطور هذا المحور إيديولوجيًا من كونه «مبادرة على مستوى الدول.... إلى مشروع عابر للحدود الوطنية، مدعوم بشبكة أعضاء من الحركات الشعبية المسلحة من كافة أرجاء المنطقة»[23]. مثلت قوة القدس التابعة للحرس الثوري الإيراني رأس الحربة في تنفيذ إستراتيجية حروب الوكالة، وذلك بتزويد الفاعلين من غير الدول ممن يتشاركون الفكر مع إيران بالسلاح، والمساندة التقنية بهدف توطين التقنيات العسكرية المتقدمة المصنوعة في إيران والتدريب العسكري[24].

كان لـ «محور المقاومة» وظيفة مركزية في عقيدة إيران العسكرية؛ لأنه سمح للجمهورية الإيرانية ممارسة الرد غير المتكافئ ضد أعدائها من داخل المنطقة وخارجها، وتوسيع عمقها الإستراتيجي في المنطقة، ومحاولة تحقيق غايات سياسية عسكرية دون المخاطرة بالانجرار إلى مواجهة شاملة ضد أعدائها مع الاحتماء خلف ستار «الإنكار المعقول»[25]، كما تخدم إستراتيجية «الراعي والوكيل» الإيرانية مقتضيات الأمن الوطني الإيراني؛ لأنها تمنح إيران منصة فعالة تصدر من خلالها أيديولوجيتها الثورية السياسية والدينية إلى كل المنطقة، وتوظيف حلفاء جدد لحماية مصالحها الوطنية[26]، وقد تنامت مركزية الجماعات المسلحة من غير الدول في إستراتيجية الردع الإيرانية خلال العقود الأربع الماضية؛ مما دفع إيران لتصميم نموذج خاص بالدعم العسكري الذي يشمل اعتبارات تقنية، واقتصادية، وإستراتيجية بالإضافة إلى نشر التشيع[27].

ولكن توظيف إيران لـ «محور المقاومة» بوصفها أداةً للسياسة الخارجية خطوةٌ لا تَخلو من المخاطر؛ فثمة مخاطر كامنة في إستراتيجية الردع الإيرانية المعتمدة على الوكلاء، منها: تشدد الموقف العسكري لأعدائها، وتأجيج صورة الدور الإيراني في عيون جيرانها، وإدامة بيئة جيوسياسية موائمة لحالة عدم الاستقرار وعدم استتباب الأمن، وإشعال اضطرابات سياسية داخلية[28]. وعلى المستوى الإقليمي، على الرغم من أن إيران تؤطر مفهومي: «الدفاع الأمامي» و«محور المقاومة» داخل هيكلها الدفاعي المعتمد على الردع، إلا أن تصاعد دورها العسكري ما بعد ثورات «الربيع العربي» 2011 عام م عزز شكوك أعدائها، من أن إيران تُعد سياسة خارجية توسعية ولديها طموحات عسكرية؛ مما أجج المعضلات الأمنية التي قد تتطور إلى توترات إقليمية[29].

وفي ظل الوظيفة المركزية للجماعات المسلحة من غير الدول في عقيدة إيران المسلحة، فمن المحتمل أن تتخذ إيران خطوات مدروسة للحفاظ على عمقها الإستراتيجي في المنطقة؛ وذلك بتثبيت تموضعها في المناطق ولدى الجماعات الفاعلة، ولكن هذا قد ينطوي على مخاطر تدفع إلى مزيد من التصعيد في المنطقة التي تعاني من واقع سياسي وأمني هش[30]، وعلى الرغم من أن إيران أصبحت أكثر قدرةً على تعديل إستراتيجيتها بالوكالة، لتتلاءم مع البيئة الجيوسياسية الإقليمية المتغيرة، وأولويات الأمن القومي المتطورة على

مدى العقود الأربعة الماضية، فإن خطر التصعيد الدائم والتوترات الإقليمية المتصاعدة يخيم على استمرارية عقيدة الحرب بالوكالة الإيرانية لفترة طويلة[31].

ثالثًا: العلاقة الإيرانية الحوثية وجدلية «الراعي والوكيل»

غالبًا ما يوصف «الحوثيون» بأنهم وكلاء إيران في شبه الجزيرة العربية، متساوين في ذلك مع الجماعات المسلحة المرتبطة بـ «محور المقاومة» الإيراني، مثل حزب الله في لبنان، والجماعات الشيعية المسلحة في العراق، ولكن هذه المساواة غير دقيقة ولا تعكس الصورة الكاملة للعلاقة المعقدة بين إيران والحوثيين؛ لأنه خلال العقد الماضي تمكن الحوثيون من تعزيز اندماجهم الإستراتيجي مع طهران ومع شبكتها من الجماعات المسلحة في المنطقة؛ وذلك بهدف خدمة أجندتهم السياسية وتحقيق أهدافهم العسكرية في اليمن[32].

وغالبًا ما تحصل «الحوثيون» على مكاسب مهمة – سواء أكانت رمزية أم ملموسة – من انتهاج سلوكيات تقليدية تقوم بها قوات الحرب بالوكالة ذات الصلاحيات الكاملة. مثلًا: عندما ادعى «الحوثيون» أنهم من قاموا بهجمات الـ 14 سبتمبر على منشآت النفط السعودية في بقيق وخريص[33]، فإنهم تلقوا دعمًا أمنيًا كبيرًا من إيران وشبكة جماعاتها المسلحة في المنطقة، على شكل تدريبات عسكرية، أو إمدادات الذخيرة والأسلحة، ونقل التكنولوجيا، وكل هذا عزز بلا شك من صورة «الحوثيين» بأنهم النسخة اليمنية لحزب الله اللبناني[34]، وعلى الرغم من انخراط «الحوثيين» المتنامي في «محور المقاومة» بقيادة إيران، فإن علاقة إيران بـ «الحوثيين» تفوقت على التصورات التقليدية للعلاقة بين «الراعي والوكيل».

ومقارنةً بعلاقات إيران المتجذرة بعمق وبعدة أوجه مع حزب الله في لبنان، والجماعات الشيعية المسلحة في العراق، تشكلت العلاقة بين إيران و«الحوثيين» نتيجةً للتطورات الجيوسياسية التي حدثت منذ وقت قريب نسبيًا. ولكن تاريخيًا، دائمًا ما كانت السياسة الداخلية اليمنية على هامش أولويات إيران الإقليمية[35]، ومن المحتمل أن تهريب الأسلحة الإيرانية إلى «الحوثيين» سبق اندلاع الثورة على الرئيس اليمني آنذاك على عبد الله صالح، ولاسيما أن دلالات تقديم إيران دعمًا أمنيًا للحوثيين تنامت كثيرًا منذ عام 2011م[36].

وثمة مجموعة من الأدلة المتزايدة، وتوافق قوي في المجتمع البحثي المتخصص حول دراسة علاقة إيران بـ «الحوثيين»، مفاده أن الجمهورية الإيرانية لعبت دورًا بالغ الأهمية في تعزيز قدرات الجماعة الهجومية خلال العقد الماضي[37]، بدءًا بشحنات الأسلحة النارية والذخيرة ذات العيار الصغير، والمساعدات الأمنية الإيرانية التي تطورت تدريجيًا لتشمل أيضًا أنظمة أسلحة أكثر تقدمًا، مثل أنظمة الدفاع الجوي والطائرات دون طيار[38]، وإلى جانب تزويد الحوثيين بأسلحة متطورة، ركزت المساعدات الأمنية الإيرانية أيضًا على تزويدهم بالتدريب والمساعدة الفنية حول كيفية تشغيل أسلحة الدفاع الجوي، والأهم من ذلك، طرق تجميعها وتصنيعها محليًا[39].

بالإضافة إلى تعزيز القدرات القتالية للحوثيين، ثمة أدلة مهمة تُشير إلى الطرق التي قدمت بها إيران وأعضاء «محور المقاومة» دعمًا مهمًا لهم، بهدف تعزيز هياكلها التنظيمية والعسكرية، والتواصل الإعلامي، والمكانة الدبلوماسية[40]، وعزز هذا الدعم الأمني الشامل فكرة الجماعة كقوة وكيلة لإيران في شبه الجزيرة العربية[41].

ورغم أن الأدلة المتزايدة تُشير إلى تعزيز المشاركة العسكرية بين «الحوثيين» وإيران و«محور المقاومة»، ثمة مجموعة من البحوث الموجهة نحو السياسات والدراسات الأكاديمية توضح كيف تجاوزت علاقة إيران بـ «الحوثيين» ديناميكيات العلاقة التقليدية بين الراعي والوكيل، وفي هذا الصدد يعترض الباحث بيتر سالزبوري Peter Salisbury على الحجة القائلة بأن الدعم الأمني الإيراني للحوثيين كان عاملاً حاسمًا في تمهيد الطريق لصعودهم إلى السلطة في عام 2014م، إذ يرى أن الجزء الأكبر من القوة المالية والعسكرية لـ «الحوثيين» نشأت من مصادر محلية، بما في ذلك تحالف المصلحة مع الرئيس اليمني السابق على عبد الله صالح[42]، ويتفق الباحث أليكس فاتانكا Alex Vatanka مع الرأي القائل إن تأثير النفوذ الإيراني على موازين القوى كان منخفضًا في المراحل الأولى من الحرب الأهلية، مؤكدًا كيف سعت إيران للاستفادة من النجاح العسكري لـ «الحوثيين» إلى حد المبالغة في تقدير دورها؛ وذلك لتعزيز مصالحها الإستراتيجية في خضم صراع القوى الإقليمي مع المملكة العربية السعودية[43].

أما الباحث توماس جونو Thomas Juneau، يرى أن المحرك الرئيس الذي حث الجهد الحربي لدى «الحوثيين» هو دخولهم في تنافس مع قوى فاعلة محلية للسيطرة على السلطة ومصادرها، وليست الاعتبارات الأيديولوجية والمذهبية، مضيفًا أن دور «الحوثيين» الهامشي في الأولويات الإستراتيجية الكبرى الإيرانية دفع طهران إلى دعمهم بموارد محدودة، ناهيك عن اشتراطها تحقيق انتصارات على الأرض مقابل تقديم دعم عسكري أوسع، والأهم من ذلك يقارن الباحث جونو بين حجم الدعم الإيراني المحدود للحوثيين قبل سيطرتهم على صنعاء وتزايد هذا الدعم بعد سيطرتهم على صنعاء، مشيرًا إلى أنه لا توجد علاقة هرمية بين إيران و «الحوثيين» تثبت أن الحوثيين وكيل إيراني شامل، وأخيرًا، يرى جونو أن دعم إيران للجماعة كان استثمارًا قليل الكلفة بالنسبة لطهران، لكنه أثمر مكاسب متواضعة فيما يخص جهودها لتعزيز أجندتها الإقليمية[44].

إن العلاقة بين إيران و «الحوثيين» غير ثابتة لا في الزمان ولا المكان؛ فهي عرضة لتغيرات ولإعادة تشكيل وتعديلات، ورغم أن الدعم الأمني الإيراني لـ «الحوثيين» شهد زيادة ملحوظة في الحجم والتعقيد بعد سيطرة الجماعة على صنعاء[45]، إلا أنه من الخطأ أن نساوي بين زيادة الدعم الإيراني المادي للجماعة وزيادة نفوذ إيران على الجماعة، وهنا ترى الباحثة إليزابث كندل Elisabeth Kendall أن براغماتية «الحوثيين» لعبت دورًا محوريًا في جعل الجماعة أقرب إلى المعسكر الإيراني، مع احتفاظها باستقلاليتها في عملية صنع

القرار، كما تسلط الباحثة الضوء على تحالف المصالح الذي جمع الرئيس اليمني آنذاك علي عبدالله صالح مع الحوثيين كمثال نموذجي لميل الجماعة لعقد صفقات عملية بهدف نيل دعم عسكري ضروري[46].

ويوافق الباحث أليكس فاتانكا Alex Vatanka مع الرأي القائل إن زيادة الدعم الإيراني لـ «الحوثيين» على مستويات متطورة لعب دورًا محوريًا في تعزيز القدرات الهجومية للجماعة، ولكنه يرى أن تردد «الحوثيين» في تبني أهداف سياسة إيران الخارجية تجاه المنطقة وتمددها الإستراتيجي في جبهات سوريا، والعراق، ولبنان كان من العوامل الرئيسة التي حالت دون أخذ العلاقة بين الجماعة وإيران شكل «الراعي والوكيل»[47].

وعلى المنوال نفسه، يرى الباحث جونو أن دعم إيران الأمني أسهم في تسهيل صعود «الحوثيين» كفاعل مسيطر في الصراع الداخلي اليمني على السلطة، مضيفًا أن نجاح تثبيت أركان «الحوثيين» سياسيًا وعسكريًا في شمال غرب اليمن خلق للجماعة الزيدية بيئة موائمة لتبني أجندة خارجية مستقلة، مما حول «الحوثيين» من لاعب مدفوع بتنافس داخلي إلى لاعب يستعرض قدراته وطموحاته على مستوى المنطقة[48].

وفي هذا السياق، ترى الباحثة ماريا لويس كلاوسن Marie-Louise Clausen أن التوافق الوثيق الناشئ بين الأجندات الخارجية للحوثيين وإيران لا يتجاهل حقيقة مفادها أن «الحوثيين» طوروا تدريجيًا موقفًا مستقلاً في السياسة الخارجية، فعلى الرغم من العزلة الدبلوماسية الشديدة دفعت «الحوثيين» إلى زيادة اعتمادها على إيران سعيًا منها لنيل الاعتراف الدولي بها، فإن الجماعة استفادت من قوتها على المستوى المحلي، وقدرتها المستقلة على تنفيذ أعمال عسكرية لتعزيز أوراق اعتمادها كجهة فاعلة مستقلة على المستوى الإقليمي[49].

وعلى الرغم من أن التعاون العسكري بين «الحوثيين» وإيران واندماجهم في معسكر «محور المقاومة» بقيادة إيران قد نما نموًا كبيرًا منذ استيلاء الجماعة على صنعاء، فإن هذا ليس دليلاً كافيًا لتصنيف الجماعة وكيلًا إيرانيًا كاملًا، حيث ترى الباحثة إليونورا أردماني Eleonora Ardemagni، أن هناك أربعة عوامل رئيسة تميز «الحوثيين» عن الجماعات الأخرى في «محور المقاومة» بقيادة إيران، هي: الاستقلال المالي عن تدفقات الإيرادات الأجنبية، ومركزية الصراع على السلطة المحلية في أجندتها السياسية، وبنية سلطتها القائمة على سلالة العائلة والانتماء الطبقي، وعدم التزامها بالرؤية الدينية الأيديولوجية للشيعة الخمينية الإثني عشرية[50].

وطالما حافظ «الحوثيون» على تنظيمهم مستقل مع إدارتهم عمليات صنع القرار والهياكل العسكرية للقيادة والسيطرة، وتمتعهم باستقلال مالي كبير عن مصادر التمويل الخارجية، مع خلفية دينية أيديولوجية مستقلة، فسيكون من الخطأ وتحليل مجتزئ

أن يُصنفوا وكيلًا لإيران على غرار حزب الله في لبنان، والجماعات المسلحة الشيعية في العراق.

رابعًا: ولادة قوة بحرية غير متكافئة

نشأ «الحوثيون» ونمت قوتهم في محافظة صعدة ذات الطبيعة الجبلية الوعرة شمال اليمن، ولطالما حرصت الجماعة على استخدام وعورة تضاريس هذه المنطقة لصالحها أثناء الاقتتال مع أعدائهم الذين يتفوقون عليهم بالقوة النارية التقليدية، ومن ثم اتخذت الجماعة تكتيكات حروب العصابات والاستنزاف ركائز رئيسة لقدراتها القتالية، سعيًا منها للسيطرة على ساحة المعركة في وجه خصومها[51]. المواجهات العسكرية الست بين «الحوثيين» والحكومة المركزية اليمنية المعروفة بـ «نزاع صعدة أو الحروب الست» من الفترة من 2004–2010م هي مثال لقدرات الجماعة في شن حرب غير متكافئة في المناطق الجبلية[52].

وكانت سيطرة «الحوثيين» على الحديدية نقطة تحول في عقيدتهم للحروب غير المتكافئة وتكتيكاتها، ليس هذا فحسب، فقد تمكنت الجماعة من مَد سيطرتها لمناطق كبيرة في الساحل الغربي لليمن والتحكم بأهم ميناء في البلاد، كما استولت على أسلحة مخازن أسلحة الجيش اليمني وما لديه من قطع بحرية؛ مما منحها الأدوات اللازمة والركيزة الإستراتيجية لفرض نفوذها على القطاع البحري في سعيها لتحقيق أهدافها السياسية الداخلية، ومن بين الأسلحة والأنظمة البحرية المهمة التي سقطت في أيدي «الحوثيين» كانت بطاريات الصواريخ الساحلية، وقوارب الدورية، ومستودعات الذخيرة، ومع إحكام «الحوثيون» قبضتهم على السلطة في شمال غرب اليمن، طورت الجماعة تدريجيًا شبكة ممتدة من المواقع العسكرية في المناطق الساحلية والجزر، كما سعت إلى توسيع قدرتها بهدف فرض قوتها على مضيق باب المندب، من خلال إطلاق حملة توسع عسكري جنوبًا بين عامي 2015 و2017م، وبالإضافة إلى التوغلات البرية، تضمّن هجوم «الحوثيون» عمليات بحرية، وذلك بشن هجمات تستهدف السفن في منطقة مضيق باب المندب[53].

لقد قاومت القوات المناهضة لـ «الحوثيين» في اليمن زحف الجماعة عسكريًا نحو الجنوب، مما أجبرهم في نهاية المطاف إلى تقليص هجومهم العسكري، ومع «اتفاق ستوكهولم» الذي توسطت فيه الأمم المتحدة في عام 2018م لوقف القتال في مدينة الحديدة الواقعة على البحر الأحمر، وشن «الحوثيون» معركة في محافظة مأرب، الغنية بالنفط والغاز، التي تتربع على رأس الطموحات العسكرية التوسعية للجماعة، تراجعت أولوية «الحوثيين» الإستراتيجية للقيام بعمليات بحرية في البحر الأحمر[54]، ومع ذلك استمرت التوترات البحرية بالتصاعد بين الحين والآخر. على سبيل المثال، اندلعت اشتباكات لفترة وجيزة في أكتوبر ونوفمبر عام 2022م عندما شن «الحوثيون» هجمات بالصواريخ والطائرات المسيرة على موانئ النفط اليمنية في مدينتي الضبة وقنا

الخاضعتين لسيطرة الحكومة، وذلك بهدف الضغط على الحكومة اليمنية المعترف بها دوليًا وسط المفاوضات الدائرة لتجديد الهدنة[55].

ومنذ عام 2015م تمكن «الحوثيون» من تشكيل ترسانة عسكرية، توسعت بسرعة وشملت الأسلحة وتكتيكات حرب العصابات؛ بهدف شن الحروب البحرية غير المتكافئة، وتشمل هذه الترسانة مجموعة واسعة من أنظمة الأسلحة، منها: الصواريخ المضادة للسفن، والطائرات المسيرة، والمسيرات البحرية، والعمليات البحرية، مثل الاستيلاء على السفن التجارية، وهجمات بأسراب من القوارب، ويفضل «الحوثيون» الصواريخ والطائرات المسيرة لتنفيذ هجماتهم البحرية المتمردة في سياق الحرب غير المتكافئة، كما شنت الجماعة عدة ضربات صاروخية وطائرات مُسيرة على القطع البحرية للتحالف الذي تقوده السعودية والولايات المتحدة المنتشرة في جنوب البحر الأحمر وخليج عدن، وخاصة خلال حملة الحوثيين ضد الشحن في الفترة بين 2015 –2017م[56].

وكان من أخطر الضربات الصاروخية لـ«الحوثيين»: الضربة الصاروخية المدمرة على السفينة اللوجستية الإماراتية في أكتوبر عام 2016م، وثلاث هجمات صاروخية فاشلة على المُدمرة الموجهة بالصواريخ من طراز «أرلي بيرك يو إس إس ماسون |USS Arleigh Burke Mason» في الشهر نفسه، والضربة على السفينة التركية «إينس إينبولو| Ince Inebolu» في مايو عام 2018م[57]. ومع استيلاء «الحوثيون» على كميات كبيرة من مخزونات الصواريخ للجيش اليمني، بما في ذلك الصواريخ القديمة من الحقبة السوفيتية، والصواريخ الأحدث المصنوعة في الصين، بعد سيطرتهم على صنعاء، يعتقد أن تكنولوجيا وتصميمات معظم الصواريخ والطائرات المسيرة التي لدى «الحوثيين» من أصول خارجية، وعلى مدى السنوات الماضية، تراكمت أدلة مهمة توضح دور إيران في توسيع ترسانة الصواريخ والطائرات المسيرة لـ «الحوثيين» وتطويرها[58].

في الواقع يُشتبه في أن النُسخ المُعاد تسميتها من الصواريخ والطائرات المُسيرة المصنوعة في إيران تمثل الجزء الأكبر من القوة النارية للصواريخ والطائرات المسيرة التي بحوزة «الحوثيين»، إذ إن التشابه الوثيق في تصميم أنظمة الصواريخ والطائرات المُسيرة التي عُرضت خلال العروض العسكرية لـ «الحوثيين» وأنظمة الأسلحة المصنوعة في إيران، تكشف بوضوح مدى انخراط طهران في تطوير القدرات القتالية للجماعة[59]، وعلى الرغم من أنه لا يزال من الصعب رسم صورة دقيقة توضح حجم الدعم الإيراني لبرامج الصواريخ والطائرات المسيرة التي بحوزة «الحوثيين»، ولكن يُعتقد أن إيران تقدم الدعم العسكري الكامل للجماعة ابتداءً من الدعم الفني وإنشاء خطوط التصنيع المحلية إلى توفير مكونات جاهزة للتجميع المحلي، وتوريد أنظمة أسلحة كاملة[60]، وتكشف عمليات الاستيلاء المتكررة على مراكب الصيد «الحوثية» التي تحتوي على متنها قطع عالية التقنية، وصواريخ، ووقود الصواريخ، في بحر العرب وخليج عدن المزيد من الأدلة

على حجم دعم إيران متعـــدد الجوانب لتعزيز قدرات «الحوثييـــن» في إطلاق الصواريخ والطائرات المسيرة[61].

ولقد زاد «الحوثيون» تدريجيًا من اســـتخدام الزوارق المســـيرة لشـــن هجمات بحرية في سياق الحرب غير المتكافئة، وتشمل ترســـانة الجماعة: الزوارق المُحملة بالمتفجرات التـــي يُتحكم بها عن بعد، والأجهـــزة المتفجرة المرتجلة المحمولـــة بالماء (Water Borne Improvised Explosive Devices|WBIED)، مثل النســـخ المُســـلحة مـــن زوارق الدورية التابعة للبحرية اليمنية، وزوارق الصيد اليمنية التقليدية، والتصميمات المصممة لأغراض معينة، مثل مجموعة زوارق «الطوفان»[62].

وفي 30 يناير عام 2017م، شـــن «الحوثيون» هجومًا استهدفت به فرقاطة «المدينة» التابعة للقوات البحرية الملكية السعودية، وكان هذا أول مثال مؤكد على استخدام الجماعة الزوارق المســـيرة، وأفادت التقارير عن وقوع أضرار جســـيمة ناجمة عن الهجوم، إذ سقط ضحيتها اثنين من البحارة الســـعوديين، ودُمرت المروحية علـــى متنها، ناهيك عن أضرار لحقت بمؤخرة السفينة الحربية[63]، ولتنفيذ هذا الهجوم، حول «الحوثيون» قارب اعتراض بطول 10 أمتار، كانت قد تبرعت به سابقًا الإمارات للبحرية اليمنية، إلى زورق مفخخ[64].

ومنذ الهجوم على فرقاطة «المدينة» الســـعودية، تصاعـــدت وتيرة التوترات وتنوعت هجمات «الحوثيين» البحرية، ففي أواخر أبريل عام 2017م، أحبط خفر السواحل السعودي هجومًا بزورق مفخخ يُتحكم به عن بعد على محطة وقود «أرامكو» السعودية في محافظة جازان[65]، وبعد ثلاثة أشـــهر، في يوليو عام 2017م، اســـتهدفت الجماعة ميناء المُخا بقارب متفجر، ألحق الهجوم أضرارًا بالسفن الراسية في الميناء[66].

وفي حين ركز «الحوثيون» في البداية على تنفيذ ضربات تستهدف الأصول العسكرية للتحالف العربي بقيادة السعودية، فإنهم وسعوا سريعًا نطاق الهجمات البحرية لاستهداف السفن التجارية والبنية التحتية الساحلية أيضًا، ففي يناير عام 2018م، نفذ «الحوثيون» أول هجوم بقوارب مُســـيرة متفجرة على ناقلة تحمل العلم السعودي، ولكن سفينة حربية سعودية تصدت للهجوم وكانت تحرس الســـفن التجارية، ويعد هذا أول هجوم على سفن تجارية[67]، كمـــا صعدت الجماعة من هجماتها بالقوارب المســـيرة المفخخة خلال الحملة العسكرية الســـعودية الإماراتية لتحرير مدينة الحديدة الســـاحلية في عام 2018م، ودفع تصاعد الهجمات على ناقلات النفط التي ترفع العلم الســـعودي الرياض إلى وقف مؤقت لشحنات النفط عبر مضيق باب المندب[68].

وفي مارس عام 2020م، حاول «الحوثيون» شـــن هجومٍ بأربعة زوارق مســـيرة مُفخخة على ناقلة نفط جنوب البحر الأحمر، مما كشـــف عن حجم توســـيع الجماعة ترسانتها من القوارب المســـيرة[69]، وفي منتصف ديســـمبر عام 2020م، تعرضـــت ناقلة نفط ترفع علم ســـنغافورة قُبالة ميناء جدة السعودي لهجوم «حوثي» بقوارب مسيرة مفخخة، ما تسبب

بأضرار بالسفينة السنغافورية (بي دبليو راين | BW Rhine)[70]، ورغم إحباط قوات التحالف بقيادة السعودية عدة هجمات «حوثية» وتدميرها أعدادًا كبيرة من القوارب المفخخة[71]، استمرت هجمات الجماعة البحرية في تهديد طرق الشحن التجارية في جنوب البحر الأحمر، وتسببت في أضرار جسيمة للسفن التجارية[72]، ومع أن الجماعة تصنع العبوات الناسفة محليًا، لكن ثمة أدلة متزايدة تُشير إلى أنها سلحت زوارق الصيد وقوارب الدورية والقوارب الصغيرة بقطع زودتها بها إيران[73].

كما تمكن «الحوثيون» من الاستيلاء على بعض السفن التجارية؛ ففي 18 نوفمبر عام 2019م، استولت الجماعة على قاطرة بحرية سعودية وقاطرة بحرية تابعة لكوريا الجنوبية ،كانتا تسحبان منصة حفر ترفع علم كوريا الجنوبية في جنوب البحر الأحمر، زاعمين أن القاطرتين دخلت المياه الإقليمية لليمن دون إذن، وأُطِلق سراح أفراد الطاقم مع السفن الثلاث بعد احتجاز دام ثلاثة أيام في ميناء الصليف الذي يسيطر عليه «الحوثيون»[74]، وفي 03 يناير عام 2022م، استولى مسلحون «حوثيون» على سفينة شحن باسم «روابي» تحمل علم الإمارات[75]، وبحسب ما ورد، كانت السفينة تحمل معدات طبية ميدانية من جزيرة سقطرى اليمنية وميناء جازان السعودي عندما استولت عليها الجماعة في المياه الدولية قبالة ساحل الحديدة، وبعد احتجازهم في ميناء الصليف لمدة أربعة أشهر تقريبًا، أُطِلق سراح طاقم سفينة «روابي» في سياق ما سمي بـ «اتفاق وقف إطلاق النار في رمضان»[76].

خامسًا: هجمات الحوثيين في البحر الأحمر

وفقًا لنموذج «الراعي والوكيل»، فإن ثمة اعتبارات وراء هجمات «الحوثيين» في البحر الأحمر بعد عملية «طوفان الأقصى»، وكذلك وسائل تكتيكية لخدمة أهدافها، ويمكن توضيح أبعاد ذلك على النحو الآتي:

1. الاعتبارات الإستراتيجية

في تحديد دوافع هجمات «الحوثيين» على سفن الشحن التجاري في البحر الأحمر ومحيطه، يتبين لنا أن هذه الهجمات مدفوعة بمزيج من الاعتبارات الأيديولوجية والإستراتيجية؛ إذ يرى بعض الخبراء أن المعتقدات الأيديولوجية والدينية وسعي الجماعة لإظهار نفسها أنها حركة تحرُّر تقودها أهداف الوحدة الإسلامية[77] لعبت دورًا مركزيًا في تشكيل الطموحات السياسية للجماعة المتمردة اليمنية[78].

بالمقابل يرى بعض المحللين أن إمكانية تحقيق مكاسب إستراتيجية كبيرة على المستويين المحلي والإقليمي كان له تأثير كبير أيضًا على قرار «الحوثيين» بشن هجمات البحر الأحمر[79]، إذ إن عملية «طوفان الأقصى» وما أعقبها من حرب إسرائيلية على غزة تزامنت مع منعطف حرج يمر به «الحوثيون». فمن جهة كانت الجماعة تعاني من تراجُع الدعم الشعبي، وتواجه صعوبات في تقديم الخدمات إلى المناطق الخاضعة لسيطرتها[80]، وبالتالي كانت المواجهة العسكرية التي شنتها الجماعة ضد الولايات المتحدة وبريطانيا

في إطار الحرب الإسـرائيلية على غزة منفـذ هروب فعّال لصرف انتبـاه الرأي العام عن إخفاقات «الحوثيين» في الحكم وتلميع سمعتها عند اليمنيين، من خلال حملات واسعة النطاق في التعبئة والتجنيد والتلقين[81].

وإضافة إلى ذلك، ربما أسـهم تشـديد قبضة «الحوثيين» علـى الأراضي الخاضعة لسيطرتهم بالفعل في تمهيد الطريق للتوسـع العسكري الذي طالما سعت إليه الجماعة في المناطق الغنية بالنفط والغاز، والمناطق الإستراتيجية جغرافيًا مثل تعز ومأرب وشبوة، والمناطق الواقعة في جنوب الحديدة[82]، وعلى الرغم من أن «الحوثيين» سعوا إستراتيجيًا إلى تأطير حملة الهجوم البحري للاستفادة من المشاعر المؤيدة للفلسطينيين، وحشدوا التعاطف السياسـي إقليميًا، إلا أن الغايات الأساسية للجماعة تبقى تتمحور في أساسها حول تعزيز أجندتها السياسية والعسكرية المحلية[83].

وعلى صعيد آخر، سـبق وأن دخل «الحوثيون» في محادثات سلام مع المملكة العربية السـعودية وصلوا فيها إلى مراحل متقدمة[84]، وفي أعقاب التوترات المتصاعدة في البحر الأحمر سعى كِلا الجانبان إلى حماية ما أحرزوه من تقدم من ارتدادات هذه التوترات[85]، وفي ظل استعراض «الحوثيين» أنفسهم قوةً عسكريةً قادرةً على إلحاق أضرار جسيمة بسفن التجارية والعسكرية وناقلات النفط في البحر الأحمر؛ لذا فمن المنطق القول إن الجماعة قد تسـتغل قدراتها العسكرية الهجومية المتقدمة وتسـتخدمها كورقة مساومة لانتزاع المزيد من التنـازلات على طاولة المفاوضات مع المملكة العربية السـعودية والمجتمع الدولي.

وفي سـياق علاقة «الحوثيين» مع إيران و«محور المقاومة»، حقق قرارها في التدخل العسـكري في الحرب الإسرائيلية على قطاع غزة بفتحها سـاحة معركة في البحر الأحمر ثلاثة أهداف رئيسة:

أولًا: رسـخ «الحوثيون» قوتهم داخل معسـكر «محور المقاومة» مـن خلال إظهار امتلاكهم للإرادة السياسـية، والوسائل العسـكرية التي تمكنهم من القتال في الخطوط الأمامية للمعركة التـي يقودها «محور المقاومة» ضد الولايات المتحدة وإسـرائيل في المنطقة[86].

ثانيًا: سـعى «الحوثيـون» إلى تمييز أنفسـهم عن نظرائهم مـن الجماعات المسلحة في «محور المقاومة» من خلال تبني موقف أكثر عدوانية ضد إسرائيل، وعلى النقيض من الجماعات الأخرى في «محـور المقاومة»، مثل حزب الله في لبنان والجماعات المسلحة الشيعية في العراق، التي مارست ضبط النفس أثناء عروض القوة المدروسـة بعناية، اتبع الحوثيون نهجًا تصعيدًا يتجه نحو توسـيع المواجهة العنيفة مع إسرائيل والدول الغربية[87]، وقد أعطى هذا النهج التصعيدي ضد إسرائيل «الحوثيين» قبولًا إقليميًا، مع تأكيدهم أنهم يحتفظون بقدر كبير من الاستقلال في اتخاذ القرار بشأن العمليات العسكرية[88].

وأخيرًا، قدمت الهجمات في البحر الأحمر فرصة غير مسبوقة لـ«الحوثيين» ليتمكنوا من خلالها متابعة واختبار التنسيق العسكري على مستوى أكبر مع أعضاء آخرين في معسكر «محور المقاومة»، كما يتضح في تزايد أعداد العمليات المشتركة التي أجريت بين «الحوثيين» والجماعات المسلحة في العراق[89].

ومع ذلك، تحمل هجمات «الحوثيين» في ثناياها بعض المخاطر لإيران؛ فقد تعارض هجمات الجماعة في البحر الأحمر ركيزة أساسية في هيكلية إيران الدفاعية في المنطقة، ولاسيما أن إيران تجنبت المواجهة العسكرية الشاملة مع الولايات المتحدة وإسرائيل[90]. وفي هذا الصدد أدت هجمات الجماعة التي امتدت لوقت طويل في البحر الأحمر ومحيطه إلى تصعيد التوترات الإقليمية بشكل كبير، كما يتضح من تكثيف المناوشات الجوية، مثل الحملة الجوية بقيادة الولايات المتحدة على أهداف عسكرية في الأراضي التي يسيطر عليها «الحوثيون» في اليمن، والغارات الجوية «الحوثية» على جنوب إسرائيل، وقصف إسرائيل لميناء الحديدة، ونتيجة لهذا، فإن الارتفاع الشديد في المواجهات المسلحة عالية الحدة قد يُعرض إيران لخطر التصادم مع الولايات المتحدة وإسرائيل.

2. الوسائل التكتيكية

استخدم «الحوثيون» شبكتهم من المواقع العسكرية المترابطة بقوة في المناطق الساحلية والجزر، نقطة انطلاق لشن هجمات ضد حركة الملاحة البحرية في البحر الأحمر ومحيطه[91]، وفي البداية زعم «الحوثيون» أن السفن التجارية المرتبطة بإسرائيل كانت هي حصرًا محور استهدافهم الرئيس[92]، ثم في 09 ديسمبر عام 2023م، أعلنت الجماعة أن جميع السفن التجارية المتجهة إلى الموانئ الإسرائيلية، والسفن المملوكة لشركات شحن تربطها علاقات تعاون تجاري مع الشركات الإسرائيلية، ستُعدُّ أهدافًا مشروعة لهجاتهم[93]، وبعد بدء الضربات الجوية والصاروخية المشتركة بين الولايات المتحدة والمملكة المتحدة على أهداف عسكرية لـ«الحوثيين» في اليمن في 11 يناير عام 2024م، وسع «الحوثيون» أهدافهم لتشمل السفن التجارية المملوكة لشركات أمريكية وبريطانية[94].

ورغم أن «الحوثيين» تراجعوا عن الاستهداف العشوائي للسفن التجارية العابرة للبحر الأحمر، إلا سلوكهم في استهداف السفن أصبح تدريجيًا أكثر تقلبًا؛ وهذا ما يظهر في استهدافهم سفنًا لا علاقة لها بإسرائيل من حيث الموانئ التي رسوا بها أو الشركات المالكة لها، وعلى أرض الواقع حتى السفن التجارية التي بثت عبارة «لا علاقة لنا بإسرائيل» من خلال خاصية سلامة الملاحة البحرية المعروفة باسم «نظام التعريف التلقائي» كإجراء وقائي لتجنب الاستهداف، وقعت ضحية لهجمات الجماعة[95].

والأمر الأكثر إثارةً للدهشـــة، هو أن «الحوثيين» استهدفوا أيضًا سُفنًا تجارية كانت ملكيتها مرتبطة بشـــحنات متجهة إلى دول غير غربية، مثل روسيا والصين وإيران[96]، ويبدو أن هناك عاملين رئيســـين وراء ســـلوك الاستهداف غير المنتظم للحوثيين، أولًا: فشل الجماعة في جمع المعلومات الاستخباراتية، مثل استخدام معلومات قديمة عن ملكية السفن والروابط التجارية لإبلاغ الاستهداف، والبنية التحتية المحدودة للكشف والاســـتطلاع. وثانيًا: أن بعض أسلحة «الحوثيين» لديها قصور في أصل تصنيعها، مثل الأســـلحة المـــزودة بأنظمة ملاحة، وإطلاق محدودة القدرة لضرب الأهداف المتحركة على مسافات بعيدة وتحديدها.

يتنـــاول هذا المحور بالتفصيـــل هجمات «الحوثيين» على الشـــحن التجاري فـــي البحر الأحمر ومحيطه في الفترة ما بيـــن 19 نوفمبر عام 2023م و31 يوليو عام 2024م، ولضمان الدقة يتنـــاول البحث بالتفصيل الحوادث التي تبنتها وســـائل الإعلام «الحوثية» وأكدتها مصادر مُستقلة مثل «هيئة عمليات التجارة البحرية البريطانيـــة | UKMTO» و«القيـــادة المركزية الأمريكيـــة | CENTCOM»، وتظهر البيانـــات المتعلقة بالهجمات «الحوثية» البحرية في الرســـم البياني (1)، الذي يستعرض هجمات «الحوثي» على الســـفن التجارية مقسمة تحت ست فئات، حسب نظام الأسلحة أو التكتيكات المستخدمة كالآتي:

الفئة الأولى: الصواريخ الباليستية، وصواريخ كروز المضادة للسفن (الصواريخ الباليستية المضادة للسفن (ASBM)، وصواريخ كروز المضادة للسفن (ASCM) [والصواريخ الأكثر عمومية التي لم يتم تحديدها بدقة بعد.

الفئة الثانية: تشـــمل الطائرات المســـيرة من «الطائرات المســـيرة الهجومية أحادية الاتجاه | OWADs» والطائرات المسيرة بأسماء عامة.

الفئة الثالثة: تشمل عمليات «الزيارة والصعود والتفتيش والمصادرة «VBSS وهجمات بأسراب القوارب.

الفئة الرابعة: المسيرات البحرية.

الفئة الخامسة: مخصصة لهجمات من نوع غير معروف.

الفئة السادسة: تشمل الهجمات التي يُســـتخدم فيها أكثر من منظومة سلاح واحدة.

يعرض الرســـم البياني (1) هجمات «الحوثي» الناجحة التي أصابت الســـفن والضربات الفاشـــلة التي أخطـــأت الهدف أو جرى اعتراضهـــا، كما يوضح العدد الإجمالي للهجمات شهريًا، قد تشـــمل الهجمة الواحدة على أكثر من هجوم وأكثر من طلقة مقذوفة على السفينة نفسها.

الرسم البياني (1): هجمات «الحوثيين» على السفن التجارية حسب الأسلحة / التكتيكات المستخدمة في الفترة من نوفمبر 2023م إلى يوليو 2024م

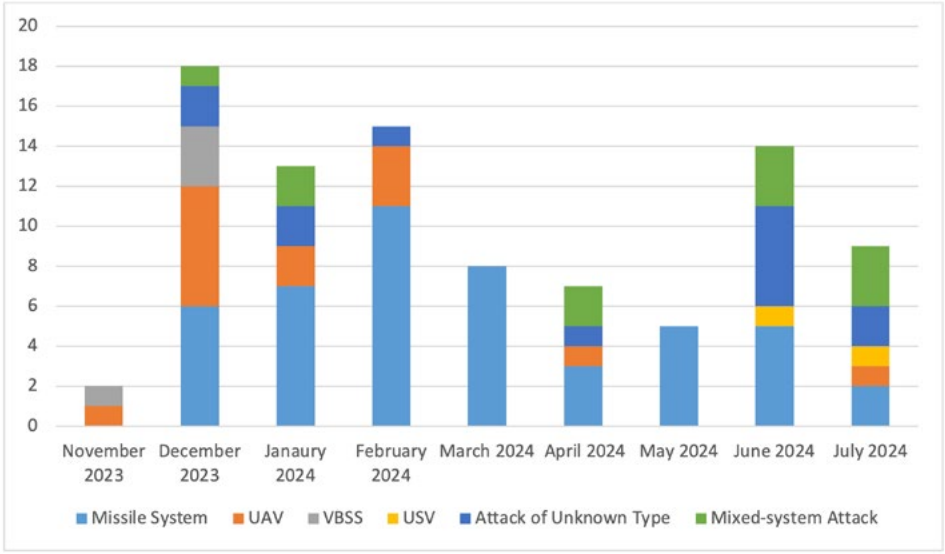

المصدر: إعداد الباحث.

توضح البيانات في الرسم البياني أعلاه، أن «الحوثيين» فضلوا استخدام الصواريخ في مهاجمة السفن التجارية في المياه الإقليمية، ورغم أنه لا يزال مِن الصعب تحديد نوع الصاروخ المستخدم في كل هجوم، فإن المعلومات الصادرة عن «القيادة المركزية الأمريكية» و«هيئة عمليات القوات البحرية البريطانية»، ووسائل الإعلام «الحوثية»، تُشير إلى أن عددًا كبيرًا من الهجمات نُفذت باستخدام صواريخ باليستية مضادة للسفن.

وبفضل الرؤوس الحربية الكبيرة، وأجهزة البحث الكهروضوئية الطرفية المتقدمة بالأشعة تحت الحمراء، والمحركات القوية التي تُصيب الهدف بسرعة فائقة، تتمتع الصواريخ الباليستية المضادة للسفن (ASBM) بميزة قتالية تتفوق على صواريخ كروز المضادة للسفن (ASCM)، والطائرات المُسيرة عند التعامل مع الأهداف المتحركة، والواقع أن هجمات «الحوثيين» بالصواريخ الباليستية المُضادة للسفن أظهرت معدل فتك أعلى مقارنةً بأنظمة الأسلحة الجوية الأخرى.

على سبيل المثال، تسببت هجمات «الحوثيين» بالصواريخ الباليستية المُضادة للسفن في تدمير أول سفينة وإغراقها، وكانت ناقلة تحمل مواد كيميائية وترفع علم «بليز روبيمار»، كما سقط أول الضحايا المدنيين لهجمات «الحوثي» البحرية وذلك على إثر استهداف الجماعة سفينة البضائع السائبة «ترو كونفيدنس» التي ترفع علم «بارباروس»، وأسفر الهجوم عن قتل ثلاثة بحارة كانوا على متنها[97]، وكشف «الحوثيون» عن امتلاكهم لمخزون كبير من الصواريخ الباليستية المضادة للسفن[98].

كما استخدم «الحوثيون» في هجماتهم البحرية نوعين من الصواريخ الباليستية المضادة: صاروخ «محيط»، وهو نسخة معدلة من صاروخ أرض-جو سوفيتي الصنع من طراز«SA-2»، وصاروخ « قاصف»، وهو نسخة محلية الصنع من صاروخ إيران الباليستي المضاد للسفن «خليج فارس»، وعلى الرغم من أن الصواريخ الباليستية المضادة للسفن (ASBM)هي الأسلحة الرئيسة في هجمات «الحوثيين» البحرية، فقد استخدمت الجماعة أيضًا على فترات متقطعة صواريخ كروز مضادة للسفن (ASCM) لاستهداف السفن التجارية، كما يتضح من هجومها على ناقلة البضائع السائبة «إم/في فيربينا» التي ترفع علم بالاو[99].

كما نشرت الجماعة طائرات مُسيرة، على رأسها مسيرات أحادية الاتجاه من طراز «صماد» و«شاهد»؛ لشن هجمات تستهدف بها حركة الملاحة التجارية في البحر الأحمر، ونظرًا لقدراتها على شن هجمات على نطاق واسع، تعد الطائرات المُسيرة سلاحًا فعالًا في استهداف السفن في المياه ما بعد مضيق باب المندب، ولكن سرعتها المحدودة مقارنةً بأنظمة الصواريخ تُعطي التحالفات البحرية الدولية الوقت الكافي لاكتشافها وتحييدها.

ويوضح الرسم البياني (1) أن ضربات «الحوثيين» بالطائرات المسيرة انخفضت تدريجيًا منذ بداية حملتها في البحر الأحمر، والجدير بالذكر هنا أن «الحوثيين» شنوا أيضًا هجمات جوية متعددة الطبقات، على سبيل الذكر شنوا هجومًا بوابل من الصواريخ والطائرات المُسيرة لاستهداف سفينة الشحن «كارافوس هارموني» التي ترفع علم «جزر مارشال» وناقلة الشحنات السائبة «فيدرال ماساموني» التي ترفع علم سنغافورة في 09 يناير عام 2024م.

ويُشير الرسم البياني (1) إلى أن عمليات «الزيارة والصعود والتفتيش والمصادرة «VBSS لعبت دورًا مهمًا في المرحلة الأولية من هجمات «الحوثيين» البحرية، وكانت بداية حملة الجماعة في البحر الأحمر استيلاؤهم على سفينة «جالكسي ليدر|Galaxy Leader»، بهجوم بمروحية من طراز «ميل مي-8| Mil Mi-8» تابعة لقوات مشاة البحرية «الحوثية»، وبعد ثمانية أيام من الهجوم على «سفينة جالكسي ليدر»، اختطفت الجماعة الناقلة «سنترال بارك| Central Park» التي تحمل العلم الليبيري[100]، وليس من الواضح بعد إن كان الهجوم من قبل «الحوثيين» أم عمل قرصنة من قبل جماعات إجرامية نشطة في المياه الإقليمية، ولكن هدف عملية الاختطاف كان سفينة مملوكة لشركة إدارة السفن الدولية «زودياك ماريتايم| Zodiac Maritime»، وهي شركة تابعة لشركة «عوفر جلوبال| Ofer Global» المملوكة لرجل الأعمال الإسرائيلي إيال عوفر، هذه المعلومات تُشير إلى أن «الحوثيين» كانوا وراء الهجوم.

وكما هو موضح في الرسم البياني (1) بلغت عمليات «الزيارة والصعود والتفتيش والمصادرة | «VBSS ذروتها في ديسمبر عام 2023م، إذ هاجم أسطول «حوثي» من الزوارق

الصغيـــرة ناقلة النفط «أردمور إنكونتـــر| Ardmore Encounter Ardmore Encounter» التي ترفع علم جزر مارشـــال في 13 ديســـمبر عام 2023م، ومع فشـــل محاولات الصعود إلى الســـفينة التجارية، أطلق «الحوثيون» من الأراضي التي تحت ســـيطرتهم صواريخ اســـتهدفوا بها السفينة[101]، وبعد يومين حاولت الجماعة شـــن هجمات من نوع «VBSS» على ســـفينة الحاويات «إم إس ســـي ألانيا |MSC Alanya» التي ترفع علم ليبيريا، والتي تمكنت من الإفلات من محاولة الصعود من خلال مناورات مراوغة[102].

وفي 18 ديســـمبر عام 2023م، كانت ســـفينة الشـــحن السائبة «مارشـــال ماجيك| Magic Vela»، التي ترفع علم جزر فيلا هدفًا لمحاولـــة صعود حوثية، وأخيرًا؛ بين 30 و31 ديسمبر لعام 2023م، شن أســـطول من الزوارق السريعة الحوثية هجمات متكررة من نوع VBSS على ســـفينة الحاويات «ميرسك هانغتشـــو| «Maersk Hangzhou التي ترفع علم ســـنغافورة بعد إطلاق صواريخ باليستية مضادة للسفن على الســـفينة التجارية، وأثناء الهجوم اســـتجابت حاملة الطائرات «يو إس إس دوايت دي آيزنهـــاور USS Eisenhower |» والمدمرة الموجهـــة بالصواريخ «يو إس إس جرافيلي USS Gravely|» لنداء اســـتغاثة سفينة الحاويات «ميرسك هانغتشو»، ونشرتا طائرات هليكوبتر لتوفير الحماية لسفينة الحاويات، في حين تجاهلت زوارق «الحوثيين» السريعة نداءات التحذير، وأطلقت النار علـــى طائرات الهليكوبتر التابعة للبحرية الأمريكيـــة، ردت الأخيرة بإطلاق النار دِفاعًا عن النفس، فأغرقت ثلاثـــة من أصل أربعة زوارق صغيرة وقتلت عشـــرة من أفراد الطاقم[103]، ومنذ محاولة اختطاف «ميرسك هانغتشو»، توقف «الحوثيون» عن شن هجمات بحرية من نوع (VBSS)، ولاسيما وأن السفن وعناصر «الحوثيين» على متن الطائرات المروحية وطواقم الزوارق السريعة ســـهلة الرصد والاعتراض من التحالفات البحرية الدولية التي تنشط في البحر الأحمر، لذا على ما يبدو لم يعد «الحوثيون» راغبون في تحمل مخاطر هذا النوع من الهجمات البحرية.

ويوضح الشكل البياني (1) فيما يتعلق بالمســـيرات البحريـــة «USV» (أو المركبات البحرية المســـيرة) أن «الحوثيين» نشـــروا الزوارق المفخخة فقط في المراحل الأخيرة مـــن حملة هجماتهم في البحـــر الأحمر؛ حيث نجحت الجماعة ولأول مرة في شـــن هجومٍ بالمســـيرات البحرية في 12 يونيو عام 2024م، وذلك باســـتخدام قـــارب صيد مفخخ، إذ قصفت الجماعة ناقلة البضائع السائبة «إم في توتور| MV Tutor» التي ترفع علم ليبيريا، وقال قبطان الســـفينة إن قذيفة مجهولة الهوية استهدفت السفينة، وأسفر هذا الهجوم عن قتل بحار واحد وإلحاق أضرار جسيمة بهيكل الســـفينة؛ مما تسبب في تسرب المياه وانقطاع الطاقة عنها، وبعد ستة أيام من الهجوم غرقت السفينة «إم في توتور»[104].

وبعد هذا الهجوم، كثف «الحوثيون» نشـــر المُســـيرات البحرية بهدف شن هجمات ضد السفن بين يونيو ويوليو من عام 2024م، وفي حين توجد أمثلة على استخدام السفن المُسيرة كنظام أسلحة مستقل، إلا أن «الحوثيين» فضلوا شن هجمات متعددة الطبقات

دمجوا خلالها اســـتخدام الزوارق المفخخة مع القذائـــف الجوية من الصواريخ والطائرات المسيرة، واستخدم «الحوثيون» السفن المســـيرة في أربعة من الهجمات الست من هذا النوع متعدد الطبقات، وهي الهجمات على: ناقلة البضائع «إم في توتور»، وناقلة البضائع السائبة «ترانسوورلد نافيجيتور» التي ترفع علم ليبيريا، وناقلة النفط «بينتلي1| Bentley I» التي ترفع علم بنما، وسفينة الحاويات «بومبا| Pumba» التي ترفع علم ليبيريا[105].

ويُشـــير الارتفاع الكبير في هجمات «الحوثيين» بالسفن المسيرة إلى تنامي ثقتهم في فعالية الزوارق المفخخة، ومع أن قدرة فتك الزوارق المفخخة عالية، ولكنها ليست سِلاحًا خاليًا من العيوب؛ فهي ذات نطاق تشـــغيلي محدود؛ مما دفع «الحوثيين» إلى اســـتخدام السفن لحمل المسيرات البحرية ونشرها على مقربة من خطوط الشحن.

وكما يظهر الشكل البياني (1) توجد نسبة كبيرة من الهجمات لا يزال من الصعب تحديد هوية مرتكبها بسبب عدم توفر معلومات قاطعة حولها، ولكن في أغلب هذه الهجمات، ثمة أدلة أن قادة الســـفن أبلغوا عن وقوع انفجارات في المياه على مقربة من السفينة، أو أبلغوا عن وقوع أضرار طفيفة في هيكل الســـفينة، ما يُشـــير إلى استخدام الصواريخ والطائرات المســـيرة، ولكن من المرجح أن الجماعة استخدمت المسيرات البحرية في هذه الهجمات القليلة التي تم فيهـــا الإبلاغ عن أضرار أو اصطدام تحت خط الماء، وهو الخط الذي يلتقي فيه بدن السفينة بسطح الماء.

وعلى الرغم مـــن أن «الحوثيين» لم ينفذوا هجومًا بالغواصات المُســـيرة تحت الماء، والتي تُعرف أيضًا بالمركبات المســـيرة تحت الماء|UUV، فإنه لا يمكن الاســـتهانة بحجم التهديدات التي تخلقها المسيرات الغواصة لحركة الشحن البحري في البحر الأحمر، حيث شنت الجماعة في أول محاولة لها منذ حملة هجماتها على البحر الأحمر هجومًا بالغواصات المســـيرة في 17 فبراير عام 2024م، ولكن تمكنت قوات التحالف بقيادة الولايات المتحدة من شـــن غارة جويـــة أحبطت بها هـــذا الهجوم[106]، ومـــع أن التفاصيل حـــول الغواصات المســـيرة لدى «الحوثيين» محدودة، لكن تُشير تقارير الاستخبارات مفتوحة المصدر أنها غواصات مسيرة ومســـلحة تحمل ألغامًا بحرية وطوربيدات ومتفجرات، ومن المرجح أن هذه الغواصات المُسيرة تســـتخدم لتحديد أهدافها أنظمة توجيه واستهداف غير متطورة نسبيًا، مثل نظام لنظام تحديد المواقع العالمي (GPS) والطرق المبرمجة مسبقًا والتوجيه السلكي[107].

ورغم أن نَشر «الحوثيون» للغواصات المسيرة ما يزال حدثًا منفردا، لكن اختبار الجماعة أســـلحة تســـتخدم تحت الماء تســـلط الضوء على مدى التزام الجماعة بتوسيع ترسانتها العســـكرية في ســـياق الحرب غير المتكافئة؛ ففي منتصف يناير عـــام 2024م، اعترضت ســـفينة حربية تابعة لخفر الســـواحل الأمريكي كانت تقوم بدوريات في بحر العرب مركبًا

شـــراعيًا يُقال إنه كان يهرِّب إلى «الحوثيين» مكونات لتجميع غواصات مسيرة؛ مما يُشير إلى دور إيران في دعم جهود «الحوثيين» في الحرب تحت الماء[108].

ومنذ بداية هجوم «الحوثيين» في البحر الأحمر، تزايدت الشـــكوك بشأن دور إيران في دعم هجمات الجماعة على سفن الشحن التجاري الدولي، ففي ديسمبر عام 2023م، اتهم البيت الأبيض إيران بالتواطؤ في الهجمات البحرية «الحوثية»، مشيرًا إلى الدور الأساس لإيران في تطوير قدرات «الحوثيين» على شَن هجمات بعيدة المدى، وتزويدهم بمعلومات استخباراتية تكتيكية بالغة الأهمية للتخطيط لهجمات على السفن التجارية[109].

وعبَّر نائب قائد القيادة المركزية الأمريكية نائب الأدميرال براد كوبر عن هذه الادعاءات في منتصف فبراير عام 2024م، مشيرًا إلى أن عناصر قوة «القدس التابعة للحرس الثوري» الإيراني كانوا يدعمون ميدانيًا «الحوثيين» بالمســـاعدة الفنية ومعلومات الاستهداف[110]، وقد أوضحت عدة تقارير رصد السفينة «بشهاد» التي تحمل العلم الإيراني، وهي سفينة تجســـس تابعة للحرس الثوري الإيراني ينشـــرها بانتظام في البحر الأحمر، ويســـتخدمها «الحوثيون» كمصدر مهم للمعلومات الاستخباراتية حول حركة المرور البحرية للتخطيط لهجماتهم[111].

ومع تصاعد التوترات بين إيران وإســـرائيل في أعقاب قصف إسرائيل للسفارة الإيرانية في دمشق، غادرت سفينة «بهشاد» خليج عدن في أوائل أبريل عام 2024م، واتجهت إلى ميناء «بندر عباس» الإيراني[112]، ويُشـــتبه أيضًا في أن إيران تدعم جهود الحرب التي بذلها «الحوثيون» من خلال شُـــحنات الأســـلحة؛ فمنذ بداية حملة الجماعة في البحر الأحمر، اعترضت القوات البحرية الأمريكية مرتين سفن صيد متجهة إلى اليمن لتهريب الأسلحة والمعدات الحربية[113].

خاتمة

منذ سيطرة جماعة «الحوثيين» على صنعاء في عام 2014م، تطورت علاقة إيران الأمنية بالجماعة تطورًا كبيرًا مـــن حيث العمق والمدى؛ كما يتضح من الانتشـــار الهائل لأنظمة الصواريخ والطائرات المســـيرة الإيرانية بعيدة المدى في ترسانة «الحوثيين». وإلى جانب توفير شـــحنات الأسلحة وتقديم المســـاعدة الفنية حول كيفية تشـــغيلها، دعمت إيران الجماعة من خلال الإرشاد والتوجيه العسكري التكتيكي في إنشاء خطوط تصنيع الأسلحة المحلية، ولا شك أن استمرار مساعدات إيران الأمنية على عدة أصعدة أسهم في تعزيز قوة «الحوثيين» في اليمن على مدى العقد الماضي، وأســـهم أيضًا في تطوير قدرات الحرب البحريـــة غير المتكافئة التي تهدد الشـــحن التجاري العالمي في البحـــر الأحمر وما حوله منذ منتصف نوفمبر عام 2023م. ولكن تنامي العلاقات العســـكرية والأمنية وتشـــابكها بين «الحوثيين» وإيران لم يقابله تنامٍ مماثل لنفوذ إيران داخل هياكل القيادة والســـيطرة «الحوثية» ولا فـــي وضع أجندة الجماعة الأمنية. وفي هذا الصـــدد، يتبين لنا اختلافات

نوعية وكبيرة لدى «الحوثيين» عن وكلاء إيران الآخرين مثل حزب الله اللبناني والجماعات الشيعية المسلحة العراقية. ورغم أن «الحوثيين» يبدون أكثر تكاملًا مع «محور المقاومة» الـــذي تقوده إيران مقارنةً مما كانت عليه قبل اندلاع حرب إســـرائيل وغـــزة، إلا أنه ما زالت الجماعة تحتفظ بقدر كبير من السلطة على عملية صنع القرار الداخلي للجماعة، وتحديد أولوياتها الإستراتيجية، واختيار الأدوات التي يجب تبنيها لتعزيز طموحاتها الأمنية، ومما لا شك فيه أن «الحوثيين» استخدموا هجمات البحر الأحمر للإشارة إلى التوافق الأيديولوجي الوثيق للجماعة مع مواقف إيران التقليدية المناهضة لإسرائيل والولايات المتحدة، وإظهار الدعم للفلســـطينيين في حرب إســـرائيل وغزة. ومع ذلك، يبدو أن السعي لتحقيق أهداف إستراتيجية عملية على المستويين المحلي والإقليمي يُمثل القوة الدافعة الرئيسة وراء قرار «الحوثي» في شن هجمات ضد الشحن التجاري الدولي.

المصادر والمراجع

(1) Karl W. Deutsch, "External Involvement in Internal War," in Harry Eckstein ed., *Internal War, Problems and Approaches* (New York: Free Press of Glencoe, 1964): 100-110. Yaacov Bar-Siman-Tov, "The Strategy of War by Proxy," *Cooperation and Conflict* 19, no. 4 (1984): 263-273.
(2) Vladimir Rauta, "Framers, Founders, and Reformers: Three Generations of Proxy War Research," *Contemporary Security Policy* 42, no. 1 (2021): 113–134. https://doi.org/10.1080/13523260.2020.1800240.
(3) Vladimir Rauta, "A Structural-relational Analysis of Party Dynamics in Proxy Wars," *International Relations* 32, no. 4 (2018): 449–467. https://doi.org/10.1177/2F0047117818802436; Brendan Sozer, "Development of Proxy Relationships: A Case Study of the Lebanese Civil War," *Small Wars & Insurgencies* 27, no. 4 (2016): 636–658 https://doi.org/10.1080/09592318.2016.1189495; Geraint Hughes, *My Enemy's Enemy: Proxy Warfare in International Politics* (Liverpool: Liverpool University Press, 2014): 11-37.
(4) Andrew Mumford, *Proxy Warfare* (Cambridge: Polity Press, 2013): 1.
(5) Ibid., 45-60.
(6) Tyrone L. Groh, *Proxy War. The Least Bad Option* (Stanford: Stanford University Press, 2019): 2-3.
(7) Ibid., 26-40.
(8) Daniel Byman, *Deadly Connections: States that Sponsor Terrorism* (Cambridge: Cambridge University Press, 2005): 21-52
(9) Ibid., 53-78.
(10) Mehran Kamrava, *Troubled Waters: Insecurity in the Persian Gulf* (Ithaca, NY: Cornell University Press, 2018): 33-56.
(11) Alex Vatanka, "The Trajectory of the Iranian Military," *MES Insights* 8, no. 6 (2017), https://bit.ly/3z6S1fi.
(12) Guy Freedman, "Iranian Approach to Deterrence: Theory and Practice," *Comparative Strategy* 36, no. 2 (November 2017) 400-412, https://doi.org/10.1080/01495933.2017.1379831.
(13) Steven R. Ward, "The Continuing Evolution of Iran's Military Doctrine," *Middle East Journal* 59, no. 4 (Autumn 2005): 559-576, https://doi.org/10.3751/59.4.12.
(14) Ibid., 573.
(15) Ibid., 559-576.
(16) John Gordon IV and John Matsumura, "The Army's Role in Overcoming Anti-Access and Area Denial Challenges," *RAND,* June 17, 2013, accessed July 15, 2024, https://bit.ly/3AQYPOw.
(17) Gawdat Bahgat and Anoushiravan Ehteshami, "Iran's Defense Strategy: The Navy, Ballistic Missiles, and Cyberspace," *Middle East Policy* 24, no. 3 (September 2017): 89-103, https://doi.org/10.1111/mepo.12292. Hadi Ajili and Mahsa Rouhi, "Iran's Military Strategy," *Survival* 61, no. 6 (November 2019): 139-152, https://doi.org/10.1080/00396338.2019.1688575.
(18) Alex Vatanka, "Iran and Russia, Growing Apart," *Foreign Affairs,* November 29, 2017, accessed July 15, 2024, https://bit.ly/4cMpbhW; Amr Yossef, "Upgrading Iran's Military Doctrine: An Offensive 'Forward Defense,'" *Middle East Institute,* December 10, 2019, accessed July 15, 2024, https://bit.ly/2YAXNjK. Hamidreza Azizi, "The Concept of 'Forward Defense:' how has the Syrian Crisis Shaped the Evolution of Iran's Military Strategy?" *Geneva Centre for Security Policy,* February 3, 2021, accessed July 15, 2024, https://bit.ly/4gee4kC.
(19) Azizi, "The Concept of 'Forward Defense."
(20) Brian Katz, "Axis Rising: Iran's Evolving Regional Strategy and Non-State Partnerships in the Middle East," *Center for Strategic and International Studies,* October 11, 2018, accessed July 15, 2024, https://bit.ly/3X52m3e.
(21) Mohammad Soltaninejad, "Coalition-Building in Iran's Foreign Policy: Understanding

the 'Axis of Resistance,'" *Journal of Balkan and Near Eastern Studies* 21, no. 6 (September 2019): 716-731. https://doi.org/10.1080/19448953.2018.1506295.
(22) Katz, "Axis Rising."
(23) Payam Mohseni and Hussein Kalout, "Iran's Axis of Resistance Rises," *Foreign Affairs,* January 24, 2017, accessed July 15, 2024, https://www.foreignaffairs.com/iran/irans-axis-resistance-rises.
(24) Frederic Wehrey et al., *the Rise of the Pasdaran: Assessing the Domestic Roles of Iran's Islamic Revolutionary Guards Corps* (Sanata Monica: RAND Corporation, 2009) accessed July 15, 2024, https://www.jstor.org/stable/10.7249/mg821osd.
(25) Azizi.
(26) Afshon Ostovar, "The Grand Strategy of Militant Clients: Iran's Way of War," *War Studies* 28, no. 1 (October 2019): 159-188, https://doi.org/10.1080/09636412.2018.1508862.
(27) Abdolrasool Divsallar and Hamidreza Azizi, "Towards a Non-Western Model of Security Assistance: How Iran Assists Militaries," *Mediterranean Politics* 24, no. 4 (February 2024): 550-572, https://doi.org/10.1080/13629395.2023.2183661.
(28) Ibid.
(29) Shahram Akbarzadeh, William Gourlay and Anoushiravan Ehteshami, "Iranian Proxies in the Syrian Conflict: Tehran's 'Forward-Defense' in Action," *Journal of Strategic Studies* 46, no. 3 (January 2023): 683-706. https://doi.org/10.1080/01402390.2021.2023014.
(30) Robert Mason, "Strategic Depth through Enclaves: Iran, Syria, and Hezbollah," *Middle East Policy* 28, no. 2 (September 2021): 96-108. https://doi.org/10.1111/mepo.12554.
(31) Alex Vatanka, "The Islamic Revolutionary Guard Corps of the 2020s: Evaluating Iran's Proxy Warfare Strategy," in Peter Bergen, et al., eds., *Understanding the New Proxy Wars: Battlegrounds and Strategies Reshaping the Greater Middle East* (Oxford: Oxford Academic Press, 2022), 269–284.
(32) Ali Hashem, "Yemen's Houthis Seek Regional Role as part of Axis of Resistance," *Al Monitor,* April 14, 2020, July 15, 2024, September 4, 2024, https://bit.ly/3ATPV2Y.
(33) Michelle Nichols, "Exclusive: U.N. Investigators Find Yemen's Houthis Did Not Carry out Saudi Oil Attack," *Reuters,* January 9, 2020, accessed September 4, 2024, https://bit.ly/3TfCu3I.
(34) Daniel Sobelman, "Houthis in the Footsteps of Hizbullah," *Survival* 65, no. 3 (2023): 129–144. https://doi.org/10.1080/00396338.2023.2218704.
(35) Walter Posch, "Iran's Relations with Yemen: Ideological and Strategic Aspects," in Stephan Reiner and Alexander Weissenburger (eds.), *Yemen at a Crossroads: What Remains of Arabia Felix?* (Vienna: Schriftenreihe der Landesverteidigungsakademie, 2024), 85-97, https://bit.ly/3Xuswhj.
(36) Andrew W. Terrill, "Iranian Involvement in Yemen," *Orbis* 58, no. 3 (Summer 2014): 429-440. https://doi.org/10.1016/j.orbis.2014.05.008.
(37) International Institute for Strategic Studies (IISS), ed., *Iran's Networks of Influence in the Middle East* (London: Routledge: 2020), 159-178; Katherine Zimmerman, "Yemen's Houthis and the Expansion of Iran's Axis of Resistance," *American Enterprise Institute,* March 14, 2022, accessed July 15, 2024, https://bit.ly/4ed6rJJ.
(38) Michael Knights, "Countering Iran's Missile Proliferation in Yemen," *The Washington Institute for Near East Policy,* November 8, 2017, accessed July 15, 2024, https://bit.ly/3zhjoTI; Ian Williams and Shaan Shaikh, "The Missile War in Yemen," *CSIS,* June 9, 2020, accessed July 15, 2024, https://bit.ly/4cWH6Cy.
(39) Alexander Corbeil and Amarnath Amarasingam, "The Houthi Hezbollah," *Foreign Affairs*, March 31, 2016, accessed July 15, 2024, https://bit.ly/4dMzTq8.
(40) Michael Knights, Adnan al-Gabarni, and Casey Coombs, "The Houthi Jihad Council:

Command and Control in 'the Other Hezbollah'," *CTC Sentinel* 15, no. 10 (October 2022): 1-23, https://bit.ly/3XFDJvH.
(41) Katherine Zimmerman and Nicholas A. Heras, "Yemen Has Become an Iranian Proxy War against Israel," *Foreign Policy,* January 24, 2022, accessed July 15, 2024, https://bit.ly/47az4F3.
(42) Peter Salisbury, "Yemen and the Saudi–Iranian 'Cold War,'" *Chatham House,* February 18, 2015, accessed July 15, 2024, https://bit.ly/3ZgXVFn.
(43) Alex Vatanka, "Iran's Yemen Play," *Foreign Affairs,* March 4, 2015, accessed July 15, 2024, https://bit.ly/3ASpb2M.
(44) Thomas Juneau, "Iran's Policy Towards The Houthis in Yemen: A Limited Return on a Modest Investment," *International Affairs* 92, no. 3 (May 2016): 647-663, https://doi.org/10.1111/1468-2346.12599.
(45) Emile Hokayem and David Roberts, "The War in Yemen," *Survival* 58 no.6 (November 2016): 157-186, https://doi.org/10.1080/00396338.2016.1257202.
(46) Elisabeth Kendall, "Iran's Fingerprints in Yemen: Real or imagined?" *Atlantic Council*, October 1, 2017, accessed July 15, 2024, https://bit.ly/4e8QUuq.
(47) Alex Vatanka, "Iran's Role in the Yemen Crisis," in *Global, Regional, and Local Dynamics in the Yemen Crisis* eds. Stephen W. Day and Noel Brehony (Cham, Switzerland: Springer International Publishing, 2020), 149-164.
(48) Thomas Juneau, "How War in Yemen Transformed the Iran-Houthi Partnership," *Studies in Conflict & Terrorism* 47, no. 3 (July 2021): 278–300. https://doi.org/10.1080/1057610X.2021.1954353.
(49) Marie-Louise Clausen, "More Than a Proxy – The Huthi as a Non-State Actor with a Foreign Policy?" in *the Huthi Movement in Yemen: Ideology, Ambition, and Security in the Arab Gulf*, ed. Abdullah Hamidaddin (London: Bloombsury-I.B. Tauris, 2022), 273-285.
(50) Eleonora Ardemagni, "Houthis and Iran: A War Time Alliance," *ISPI,* March 22, 2023, accessed July 16, 2024, https://bit.ly/3zgMse5.
(51) Michael Knights, "The Houthi War Machine: From Guerrilla War to State Capture," *CTC Sentinel* 11, no. 8 (September 2018): 15-23, https://bit.ly/3XqUpXr.
(52) Christopher Boucek, "War in Saada: From Local Insurrection to National Challenge," *Carnegie Endowment for International Peace,* May 5, 2010, accessed June 20, 2024, https://bit.ly/3X54fNm.
(53) Alex Almeida, Jeremy Vaughan, and Michael Knights, "Houthi Antishipping Attacks in the Bab al-Mandab Strait," *The Washington Institute for Near East Policy, October* 6, 2016, accessed June 20, 2024, https://bit.ly/3XbFOxN.
(54) "Yemen's Houthis advance in Shabwa and Marib," *Reuters,* October 17, 2021, accessed June 25, 2024, https://bit.ly/4dMYqvf.
(55) "Yemen's Houthis Attack al-Dhabba Oil Terminal, Force Ship to Leave," *Reuters,* November 21, 2022, accessed June 25, 2024, https://bit.ly/3XtyJd8.
(56) Ian Williams and Shaan Shaikh, "The Missile War in Yemen," *Center for Strategic and International Studies,* June 9, 2020, accessed June 25, 2024, https://www.csis.org/analysis/missile-war-yemen.
(57) Tyler Rogoway, "HSV-2 Swift Destroyed Off Yemeni Coast By Anti-Ship Missile," *The War Zone,* October 2, 2016, accessed June 25, 2024, https://bit.ly/4dMAmZq; Barbara Starr and Caroline Kenny, "USS Mason Fires Missiles in Red Sea After Apparent Attack," *CNN,* October 15, 2016, accessed June 25, 2024, https://bit.ly/3XtvnH7; "Explosion Damages Vessel Carrying Wheat to Yemen," *Reuters,* May 11, 2018, accessed June 25, 2024, https://bit.ly/47azlYB.
(58) Farzin Nadimi, "The UN Exposes Houthi Reliance on Iranian Weapons," *The Washington Institute for Near East Policy,* February 13, 2020, accessed June 25, 2024, https://bit.ly/4cR-8DWe.
(59) John Krzyzaniak, "Iran Solidifies Missile Support to the Houthis," *Iran Watch,* November

29, 2022, accessed June 25, 2024, https://bit.ly/3MyQbXA; Fabian Hinz, "Little and Large Missile Surprises in Sanaa and Tehran," *IISS,* October 17, 2023, accessed June 25, 2024, https://bit.ly/47fsgG5.
(60) Farea al-Muslimi, "Iran's Role in Yemen Exaggerated, but Destructive," *The Century Foundation*, May 19, 2017, accessed June 25, 2024, https://bit.ly/3Zb8861.
(61) Benoit Faucon and Dion Nissenbaum, "Iran Navy Port Emerges as Key to Alleged Weapons Smuggling to Yemen, U.N. Report Says," *The Wall Street Journal,* January 9, 2022, accessed June 25, 2024, https://bit.ly/3z3nfE2.
(62) H. I. Sutton, "Houthi's Blowfish: Guide to Explosive USV Threat in Red Sea," *Covert Shores,* accessed June 25, 2024, http://www.hisutton.com/Yemen-Houthi-USV-Guide.html.
(63) Sam LaGrone, "Navy: Saudi Frigate Attacked by Unmanned Bomb Boat, Likely Iranian," *USNI News*, February 20, 2017, accessed June 28, 2024, https://bit.ly/3Zb4uJx.
(64) "Anatomy of a 'Drone Boat' A Water-borne Improvised Explosive Device (WBIED) Constructed in Yemen," *Conflict Armament Research,* December 2017, accessed June 28, 2024, https://bit.ly/3XtvAtT.
(65) Simeon Kerr and Anjli Raval, "Saudi Security Forces Foil Attack on Aramco Fuel Terminal," *Financial Times,* April 26, 2017, accessed June 28, 2024, https://bit.ly/3Zc09IX.
(66) "Houthi Rebels Carry out Series of Bomb-Boat Attacks," The Maritime Executive, August 17, 2017, accessed June 28, 2024, https://bit.ly/3TfDLrw.
(67) Paul Mcleary, "DIY Drone Attacks on Russian, Saudi Targets Signal Change in Fight against Militant Groups," *USNI News,* January 12, 2018, accessed June 28, 2024, https://bit.ly/47fsr4d.
(68) "Saudi Arabia Suspends Crude Oil Shipments Through Bab El-Mandeb," *Al Arabiya English*, July 26, 2018, accessed June 28, 2024, https://bit.ly/3Z6xNNe.
(69) "Saudi-led Coalition Says It Foiled Attack on Oil Tanker off Yemen," *Reuters,* March 4, 2020, accessed June 28, 2024, https://bit.ly/3z8iN6R.
(70) Jon Gambrell, "'External Source' Causes Oil Tanker Blast off Saudi Arabia," *AP,* December 15, 2020, accessed June 28, 2024, https://bit.ly/3z6rS00.
(71) "Coalition Forces in Yemen Foil Houthi Boatbomb Attack," *Arab News,* August 31, 2020, accessed June 28, 2024, https://www.arabnews.com/node/1727121/middle-east.
(72) Caleb Weiss, "Analysis: Houthi Naval Attacks in the Red Sea," *FDD's Long War Journal,* August 17, 2019, accessed June 28, 2024, https://bit.ly/47c1TAS.
(73) Christopher P. Cavas, "New Houthi Weapon Emerges: A Drone Boat," *Defense News,* February 19, 2017, accessed July 1, 2024, https://bit.ly/4gdpwxe; "Anatomy of a 'Drone Boat,'" *Conflict Armament Research,* December 2017, accessed July 1, 2024, https://bit.ly/4gbRucn.
(74) "Yemen's Houthis Release Captured South Korean, Saudi Vessels," *Reuters,* November 20, 2019, accessed July 1, 2024, https://bit.ly/47fPuM9.
(75) "Houthis Seize 'Hostile' Vessel off Yemen That Saudis Say Carried Medical Equipment," *Reuters,* January 3, 2022, accessed July 1, 2024, https://bit.ly/3TdHo0M.
(76) "Yemen's Houthi Militia Announces Release of Crew of Emirati Ship Rwabee," *Arab News*, April 25, 2022, accessed July 1, 2024, https://www.arabnews.com/node/2070416/middle-east.
(77) Charles Schmitz, "Ansar Allah's Attacks Are about Worldview, Not for Diversion," *ISPI,* February 15, 2024, access July 5, 2024, https://bit.ly/3z9qAkT.
(78) Nadwa al-Dawsari, "The Ideological Underpinnings of the Houthis' Red Sea Attacks," *The Middle East Institute,* January 22, 2024, accessed July 1, 2024, https://bit.ly/4esG2rx.
(79) Gerald M. Feierstein, "Houthis See Domestic and Regional Benefit to Continued Red Sea attacks," *Middle East Institute,* January 11, 2024, accessed July 5, 2024, https://bit.ly/4d8GoT7.
(80) Saeed Al-Batati, "Unpaid Teachers Strike in Houthi-controlled Areas," *Arab News,* Au-

gust 23, 2023, accessed July 5, 2024, https://www.arabnews.com/node/2354581/middle-east.
(81) Justin Salhani, "Houthis Are Recruiting Record Fighters. How Will this affect Yemen?" *Al Jazeera,* February 23, 2023, accessed July 5, 2024, https://bit.ly/3z9qDx5; Saeed Al-Batati, "Houthis Launch 'Indoctrination' Summer Camps," *Arab News,* April 21, 2024, accessed July 5, 2024, https://www.arabnews.com/node/2496746/middle-east.
(82) Ibrahim Jalal, "Red Sea Attacks Expand Yemen's War Centers of Gravity," *Middle East Institute,* February 15, 2024, accessed July 5, 2024, https://bit.ly/3TfE4ma.
(83) Fatima Abo Alasrar, "From Yemen to Palestine: The Strategic Depth of the Houthi-Iranian Alliance," February 16, 2024, accessed July 5, 2024, https://bit.ly/3z8aOXw.
(84) Jon Gambrell, "Saudi Arabia Praises 'Positive Results' After Yemen's Houthi Rebels Visit Kingdom for Peace Talks," *AP,* September 20, 2023, accessed July 5, 2024, https://bit.ly/4dLA-LeH.
(85) Aziz El Yaakoubi and Parisa Hafezi, "Saudi Arabia Urges US Restraint as Houthis Attack Ships in Red Sea," *Reuters,* December 7, 2023, accessed July 5, 2024, https://bit.ly/47g90rV; Aziz El Yaakoubi, "Yemen's Houthis Say Red Sea Attacks Do Not Threaten Peace With Riyadh," *Reuters,* January 11, 2024, accessed July 10, 2024, https://bit.ly/4edx3dz.
(86) Gerald Feierstein, "Houthis Rise in Prominence Among Iran's 'Axis of Resistance,'" *Defense News,* December 7, 2023, accessed July 10, 2024, https://bit.ly/4e7vU7c.
(87) Gregory D. Johnsen, "The Houthis Escalate and Expand the War," *The Arab Gulf States Institute in Washington,* June 18, 2024, accessed July 10, 2024, https://agsiw.org/the-houthis-escalate-and-expand-the-war/.
(88) Eleonora Ardemagni, "Beyond the Axis: The Houthis Now Are Selling Their Own 'Brand,'" *ISPI,* February 15, 2024, accessed July 10, 2024, https://bit.ly/3z63iwb.
(89) Adnan al-Jabarni, "A New Axis: Strategic Coordination Between the Houthis and Iraqi Factions," *Sana'a Center for Strategic Studies,* July 15, 2024, accessed July 10, 2024, https://sanaacenter.org/the-yemen-review/april-june-2024/22900.
(90) Thomas Juneau, "Iran's View of Houthi Attacks in the Red Sea: Protecting Gains and Limiting Costs," *Sana'a Center for Strategic Studies,* April 9, 2024, accessed July 10, 2024, https://sanaacenter.org/the-yemen-review/jan-mar-2024/22296.
(91) Eleonora Ardemagni, "Yemen: Houthis' Militarized Islands are Stoplights in the Red Sea," *Italian Institute for International Politics Studies*, November 24, 2023, accessed July 10, 2024, https://bit.ly/4ecmQoH.
(92) "Houthis Say Israeli Ships 'Legitimate Target,' as Threat to Global Shipping Grows," *The Times of Israel,* November 20, 2023, accessed July 18, 2024, https://bit.ly/3AKhnjm.
(93) "Yemen's Houthis Warn They Will Target all Israel-bound Ships in Red Sea," *Al Jazeera,* December 9, 2023, accessed July 18, 2024, https://bit.ly/4e9ysBF.
(94) "Yemen's Houthis Say They Will Target US Ships," *Reuters,* January 16, 2024, accessed July 18, 2024, https://bit.ly/4dRX4zo.
(95) Courtney Bonnell and David McHugh, "How Attacks on Ships in the Red Sea by Yemen's Houthi Rebels Are Crimping Global Trade," *AP,* January 12, 2024, accessed July 18, 2024, https://bit.ly/3zhkGhw.
(96) "Houthis Mistakenly Target Tanker Carrying Russian Oil, Security Firm Says," *Reuters,* January 12, 2024, 2024 accessed July 18, 2024, https://bit.ly/3MwSFpu; Heather Mongilio, "Chinese Tanker Hit with Houthi Missile in the Red Sea," *USNI News,* March 24, 2024 accessed July 18, 2024, https://bit.ly/3XfIJFA; Nayera Abdallah and Jonathan Saul, "Yemen's Houthis Strike Cargo Ship Bound for Iran, Causing Minor Damage," February 13, 2024, accessed July 18, 2024, https://bit.ly/3XqV3UR.
(97) "Rubymar, a UK-owned Cargo Ship Hit by Yemen's Houthis, Sinks in the Red Sea," *Al Jazeera,* March 2, 2024, accessed July 25, 2024, https://bit.ly/4cPuJrX; Jonathan Saul, "Three Killed in first Fatal Houthi Attack on Red Sea shipping, CENTCOM Say," *Reuters,* March 7, 2024, accessed July 25, 2024, https://bit.ly/4dOGSyK.

(98) Hinz, "Little and Large missile surprises in Sanaa and Tehran."
(99) Harry Papachristou, "Ukrainian Ship Abandoned after Houthi Strike Is Afloat and Receiving Help," *Trade Winds,* June 20, 2024, accessed July 25, 2024, https://bit.ly/4cO4IsZ.
(100) Patrick Wintour, "US Warship Rescues Israeli-linked Tanker Central Park after Attack in Gulf of Aden," *The Guardian,* November 27, 2023, accessed July 25, 2024, https://bit.ly/3Xfri88.
(101) "Tanker in Red Sea Targeted by Speedboat Gunfire and Missiles — Sources," *Reuters,* December 13, 2023, accessed July 28, 2024, https://bit.ly/47fcw6b.
(102) "Attacks From Houthi-controlled Yemen Hit Two Ships," *Reuters,* December 16, 2023 accessed July 28, 2024, https://bit.ly/3AQOlyK.
(103) "US Navy Helicopters Fire at Yemen's Houthi Rebels and Kill Several in Latest Red Sea shipping Attack," *AP,* December 31, 2023, access July 28, 2024, https://bit.ly/3XdU6xT.
(104) "M/V Tutor Sinks Following Houthi Attack in Red Sea," *Safety4Sea*, June 19, 2024, accessed July 28, 2024, https://safety4sea.com/m-v-tutor-sinks-following-houthi-attack-in-red-sea/.
(105) Sam Chambers, "Houthis Up Their Kamikaze Drone Boat Campaign," *Splash 247,* July 1, 2024, accessed July 30, 2024, https://splash247.com/houthis-up-their-kamikaze-drone-boat-campaign/; "Yemen Rebels Launch Missile, Drone Attacks on Two Tankers in Red Sea," *France 24,* July 17, 2024, accessed July 30, 2024, https://www.france24.com/en/middle-east/20240716-yemen-rebels-tankers-red-sea; "Watch: Houthi-Launched Explosive-Laden USV Destroyed By Armed Guards On Cargo Ship In Red Sea," *Marine Insights,* July 24, 2024, access July 30, 2024, https://bit.ly/3XqWjHz.
(106) H. I. Sutton, "Houthi Lethal Underwater Drones Adds New Threat to Red Sea," *USNI News,* February 19, 2024, accessed July 30, 2024, https://bit.ly/3ThBJXP.
(107) "How Did Yemen's Houthis Obtain Unmanned Underwater Vehicles (UUV)?" *Sheba Intelligence,* February 21, 2024, https://shebaintelligence.uk/print/566. H. I. Sutton "Notes on Emerging Iranian / Houthi Uncrewed Underwater Vehicle (UUV) Threat," *Covert Shores,* February 18, 2024, accessed July 30, 2024, http://www.hisutton.com/Iranian-Houthi-UUV-notes.html.
(108) "CENTCOM Intercepts Iranian Weapons Shipment Intended for Houthis," *US CENTCOM,* February 15, 2024, accessed July 30, 2024, https://bit.ly/3XvEEys.
(109) "White House Accuses Iran of Being 'Deeply Involved' in Red Sea Attacks on Commercial Ships," *CBS News,* December 22, 2023, accessed July 30, 2024, https://bit.ly/47e6Fhi.
(110) Norah O'Donnell, "Houthis Get Critical Support from Iran for Red Sea Attacks, U.S. Navy Admiral Says," *CBS News,* February 15, 2024, accessed July 30, 2024, https://bit.ly/4dMBrjW.
(111) Robert Wright, "The Mysterious Iranian Ship Accused of Lining up the Next Houthi Targets," *Financial Times,* March 9, 2024, accessed July 30, 2024, https://www.ft.com/content/5fb8849c-b5b2-4f6f-908f-2c125159e3ce.
(112) Patrick Sykes, "Iran Ship Linked to Houthi Attacks Goes Home amid Tensions," *Bloomberg,* April 18, 2024, accessed July 30, 2024, https://bit.ly/4dLBPzd.
(113) U.S. Interdictions Highlight Iran's Continuing Arms Transfers to Yemen," *Iran Watch,* February 22, 2024, accessed July 30, 2024, https://bit.ly/4e7Ed2J.

الإستراتيجية البحرية الإيرانية والتوجُّهات نحو البحر المتوسِّط

د. خديجة عرفة محمد

رئيس الإدارة المركزية للتواصل المجتمعي بمركز
المعلومات ودعم اتخاذ القرار في مصر

مستخلص:

هدفت هذه الدراسة إلى مناقشة طبيعة الإستراتيجية لإيران في البحر المتوسط، في ظل وجود مجموعة من العوامل دفعت إيران لخلق وجود في البحر المتوسط، بعد غياب لقرون وتركيزأكبر على "الجوار القريب". وهو ما سيكون له تداعيات مستقبلية على المشهد والتوازنات الإقليمية. وقد ركزت الدراسة على التعرف على ملامح الإستراتيجية البجرية الإيرانية ومدى ملاءمتها لتحقيق الأهداف الإيرانية، وطبيعة الدور الإيراني في البحر المتوسط، وكذلك التحركات الإيرانية وارتباطها بالمشهد الإقليمي، وأخيرًا تأثير التحركات الإيرانية على التوازنات الدولية. وقد خلصت الورقة إلى أن التحرك الإيراني في المتوسط يرتبط بالأساس بحماية مصالحها وتعزيز مكانتها الإقليمية والحفاظ على علاقاتها مع حلفائها الإستراتيجيين، ورغم ذلك لا يُشكّل التحرك الإيراني في المتوسط أولوية متقدمة في سياسات إيران الإقليمية في الوقت الراهن، كما أن إيران لا تمتلك إستراتيجية بعيدة المدى بشأن البحر المتوسط. ومن الأرجح أن تفضل إيران خلال الفترة المقبلة عدم التدخل المباشر. بالإضافة إلى أن التعقيد في المشهد الإقليمي وطبيعة التوازنات الإقليمية والدولية، من شأنه أن يجعل التحرك الإيراني نحو دور أكبر في المتوسط معقدّا للمشهد، ومؤثرًا على الاستقرار الإقليمي.

الكلمات المفتاحية: إيران، الإستراتيجية البحرية، أمن المتوسط، الحرب البحرية غير المتكافئة، البحرية الأمريكية.

Abstract

This research article aims to explore Iran's strategy in the Mediterranean, driven by various factors that have prompted its resurgence in the region after centuries of absence and a primary focus on its "near abroad." This shift is expected to have significant implications for regional dynamics and power balances. It identifies key elements of Iran's maritime strategy, assessing its alignment with Tehran's objectives, the nature of Iran's role in the Mediterranean, and the connection of Iranian activities to the broader regional context. Ultimately, the article concludes that Iran's Mediterranean engagement is fundamentally about safeguarding its interests, bolstering its regional standing, and maintaining ties with strategic allies. However, at this time, Iranian actions in the Mediterranean do not constitute a top priority within its regional strategy, nor does Iran have a long-term Mediterranean plan. It is likely that Iran will opt for indirect involvement in the near future. Furthermore, the intricate regional landscape and existing power dynamics could complicate Iran's ambitions for a greater role in the Mediterranean, potentially affecting regional stability.

Keywords: Iran, maritime strategy, Mediterranean security, asymmetrical naval warfare, US navy.

مقدِّمة

على مدار عقود غابت إيران عن البحر المتوسِّط، وركَّزت الإستراتيجية البحرية الإيرانية، بدلًا عن ذلك، على «الجوار القريب». لكن مؤخَّرًا، دفعت عدَّة عوامل إيران للتحرُّك نحو خلْق تواجُد لها في البحر المتوسِّط، من بينها دوافع ذاتية تتعلَّق بالطموح الإيراني لممارسة دور إقليمي أكبر، وأخرى ترتبط بالأهمِّية الإستراتيجية للبحر المتوسِّط وتحوُّله للبحر الأكثر عسكرة في العالم، في ظل التنافس الإقليمي الدولي المتصاعد، إضافة إلى عوامل إقليمية تمثَّلت في الأوضاع غير المستقِرَّة في بعض دول المنطقة، والتي سهَّلت لإيران إيجاد طريق للوصول إلى البحر المتوسِّط، حيث تكون مؤثِّرة في التفاعلات الإستراتيجية الجارية في هذه الجغرافيا الإستراتيجية. وعلى الرغم من أنَّ إيران، على ما يبدو، لا تمتلك إستراتيجية متوسِّطية واضحة المعالم، إلّا أنَّ الطموح الإقليمي والدولي، ومساعي إيران لمحاولة التأثير في المشهد الأمني المضطرب في البحر المتوسِّط عبر خلْق تواجُد لها في هذا المشهد الأمني، يُشيران إلى أنَّ هناك نوايا إيرانية لمدِّ نفوذها إلى المتوسِّط. ومع التأكيد على أنَّ الدور الإيراني في هذه المنطقة لا يزال يأتي في إطار دوائر ونطاقات محدَّدة، فإنَّ المخاوف تتعلَّق بحدوث تطوُّرات من شأنها دفْع إيران لاستغلال أوضاع عدم الاستقرار بالمنطقة؛ للتأثير على التوازن والاستقرار الإقليمي، وهو الأمر الذي سيكون له تأثيره على المشهد الإقليمي وتوازُنات القُوى الإقليمية. وبالتالي، تهدُف هذه الورقة إلى التعرُّف على تأثير التحرُّكات الإيرانية تجاه البحر المتوسِّط على المشهد الإقليمي وتوازُنات القُوى الإقليمية، من خلال التعرُّف على ملامح الإستراتيجية البحرية الإيرانية، ومدى اتّساقها مع الأهداف البحرية الإيرانية، وكذلك طبيعة الدور الإيراني في البحر المتوسِّط، والتحرُّكات الإيرانية وارتباطها بالمشهد الإقليمي في المتوسِّط، وأخيرًا تأثير التحرُّكات الإيرانية على التوازُنات الإقليمية والدولية.

أولًا: ملامح الإستراتيجية البحرية الإيرانية وأهدافها

شكَّلت العديد من العوامل ذات الطبيعة الإستراتيجية والجغرافية والعقائدية ملامح الإستراتيجية البحرية الإيرانية؛ فخبرة أحداث ثمانينات القرن العشرين، إضافة إلى طبيعة الأهداف البحرية الإيرانية، سواءً في الجوار القريب أو في دوائر أخرى، وكذلك طبيعة القُدرات البحرية لإيران وللعدو المُحتمَل، وغير ذلك من العوامل، جعلت إيران تتّجِه إلى تبنِّي إستراتيجية الحرب غير المتكافئة، وذلك في ظل عدم قُدرة القوّات البحرية الإيرانية بمكوِّنيها (التابعة للجيش الإيراني أو التابعة للحرس الثوري الإيراني)، على تحقيق النصر في حرب بحرية تقليدية.

وسنعرض فيما يلي لمفهوم القوَّة البحرية، وطبيعة القوَّة البحرية الإيرانية، وكذلك ملامح الإستراتيجية البحرية الإيرانية في الوقت الراهن، وذلك على النحو الآتي:

1. مفهوم وأبعاد القوَّة البحرية

القوَّة البحرية هي إحدى مكوِّنات القوَّة الشاملة «Comprehensive Power» لدولةٍ ما، وتُشير بعض تعريفاتها إلى أنَّها «قُدرة الدولة على الاستفادة من البحر لتعزيز مصالحها الوطنية»، وتستند أيّ قوَّة بحرية على أربعة أبعاد رئيسية: عسكرية، واقتصادية، وتكنولوجية، وسياسية، ويلعب التفاعل المعقَّد بين الأبعاد الأربعة دورًا محوريًا في تحديد قُدرة الدولة على تحقيق أمنها البحري وحماية مصالحها البحرية.

يُعتبَر البُعد السياسي أو «الدبلوماسية البحرية»، البُعد الأكثر تعقيدًا، فهو يرتبط بالأساس بتأثير النظام السياسي للدولة المعنية، بالإضافة إلى الدول المتنافسة معها، وكذلك طبيعة التنافس الدولي وبنية النظام الدولي، بالإضافة إلى التحدِّيات السياسية ذات التأثير على الأمن البحري للدول المختلفة ذات التأثير على الإستراتيجية البحرية للدولة.

وبالنسبة للبُعد العسكري، فهو الأكثر أهمِّية في القوَّة البحرية لدولةٍ ما، من خلال ارتباطه بحجم المقدرات العسكرية «Military Attributes» ذات الصلة بالأمن البحري للدولة، خاصَّةً عند مقارنته بالقُدرات البحرية للقُوى المتنافسة معها. وتبرُز أهمِّية هذا البُعد، في ارتباطه الوثيق بحماية حدود ومصالح الدولة الحيوية في المجال البحري.

أمّا البُعد الاقتصادي، يتعلَّق بحجم المصالح الاقتصادية المرتبطة بالأمن البحري، في ظلّ حقيقة أنَّ 90% من حجم تجارة العالم يمُرّ عبر المحيطات والبحار، بما يتطلَّبه ذلك من ضرورة تأمين الممرّات البحرية، خاصَّةً الحيوية والإستراتيجية منها، وكذلك الموانئ وخطوط النقل، لتأمين سلاسل التوريد العالمية.

وأخيرا البُعد التكنولوجي، الذي أصبح بالغ الأهمِّية بعد الاستثمار الكثيف في الجوانب المتعدِّدة للتكنولوجيا البحرية، حيث أصبح العالم يشهد تسابقًا بين الدول في توظيف التكنولوجيا المتقدِّمة لتطوير قُدراتها البحرية، ولذلك انعكاسه على القوَّة العسكرية للدولة بشكل عام، وكذلك وضعها في مضمار السباق البحري عالميًا. فعلى سبيل المثال، من بين العوامل التي أسهمت في جعل دول مثل الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي والمملكة المتحدة في مُقدّمة القُوى البحرية على مستوى العالم، كان التطوير المستمِرّ المدعوم بالتقنيات الحديثة، بما في ذلك تقنيات الصواريخ المضادَّة للسُفُن والأسلحة النووية بعد الحرب العالمية الثانية[1].

2. القوَّة البحرية الإيرانية

تقليديًا، كانت هناك منافسة بين البحرية الإيرانية، كأحد مكوِّنات الجيش النظامي الإيراني، والقوّات البحرية التابعة للحرس الثوري الإيراني. لكن بدايةً من عام 2004م قامت هيئة الأركان المشتركة للقوّات المسلَّحة الإيرانية بإعادة تنظيم العلاقة بين الطرفين على أساس جغرافي، ليصبح الحرس الثوري الإيراني مسؤول عن النطاق البحري القريب من حدود إيران في الخليج ومضيق هرمز وبحر عُمان، وتتولَّى البحرية التابعة للجيش المهام خارج هذا

النطاق البحري، مع وجود تعاون مُتبادَل بين الجانبين، حيث أنَّ تركيز بحرية الحرس الثوري الإيراني على الجوار القريب يسمح للبحرية الإيرانية بالانتشار على مدى أطول والمشاركة الإستراتيجية مع الدول الشريكة. وبذلك، تتألَّف البحرية الإيرانية من منظَّمتين منفصلتين لكنّهما متكاملتين، ويتِم تقسيم الأدوار بينهما على أساس جغرافي[2].

وفيما يتعلَّق بحجم القوَّة البحرية الإيرانية، فوفقًا لمؤشِّر «Global Fire Power» لعام 2024م، فقد جاءت إيران في الترتيب الرابع عشر على مستوى العالم من بين 145 دولة شمِلها المؤشِّر، وذلك فيما يتعلَّق بحجم القُوى العسكرية إجمالًا. أمّا فيما يتعلَّق بالقُوى البحرية، فقد جاءت في الترتيب السابع والثلاثون عالميًا، حيث بلغ حجم الأسطول البحري الإيراني 101 قطعة، ومن بين هذه القطع: 7 فرقاطات، 3 طرادات، 21 سفينة دوريات، و19 غوّاصة[3].

ولا تكفي هذه القوَّة البحرية الإيرانية في مواجهة الانتشار العسكري الأمريكي الكبير والنوعي في البحر المتوسِّط، إذ عند مقارنة قوَّة إيران البحرية بنظيرتها الأمريكية، نجِد أنَّ الأخيرة تأتي في الترتيب الأول عالميًا، من خلال امتلاك 472 وحدة بحرية نشِطة، من بين أهمِّها 11 حاملة طائرات، و9 حاملات هليكوبتر، 75 مدمِّرة، 64 غوّاصة، 23 طرادًا، 5 سفينة دوريات، ويُلاحَظ التفاوت الكبير في القُدرات البحرية بين إيران والولايات المتحدة (عدو إيران الرئيسي). ومع إدراك إيران استحالة تحقيق التكافؤ العددي والتكنولوجي مع واشنطن وفقًا لهذا التفاوت، فإنَّ إيران حاولت سدّ هذه الفجوة، من خلال تبنِّي إستراتيجية الحرب غير المتكافئة لمواجهة التفوُّق البحري الأمريكي[4].

3. الإستراتيجية البحرية الإيرانية

تقوم الفلسفة البحرية الإيرانية على إستراتيجية الحرب غير المتكافئة، استنادًا إلى عدم القُدرة على التفوُّق في المواجهة البحرية التقليدية، خاصَّةً في ظلِّ ما يتمتَّع به المنافسين الرئيسيين من قوَّة بحرية متقدِّمة، وبالتالي يمكن مواجهتها بشكل أفضل عبر آليات المواجهة غير المتكافئة، حيث تقوم تلك الإستراتيجية على تجنُّب المواجهات المباشرة في البحر والاعتماد بدلًا من ذلك على الهجمات المفاجئة، والكمائن، وعمليات الكرّ والفرّ[5]، وبذلك تعتمد إيران على اللا مركزية، أو ما تُطلِق عليه إحدى الدراسات «الدفاع الفسيفسائي»[6].

وبشكل عام، فالحرب غير المتكافئة تشبه أسلوب حرب العصابات؛ إذ تدور أغلبها حول استخدام «زوارق السرب»، وهي زوارق سريعة خفيفة التسليح وعالية الحركة ومسلَّحة بقاذفات صواريخ متعدِّدة ومدافع رشّاشة ثقيلة وألغام بحرية، وهذه الزوارق أصبحت بالتدريج محور الحرب البحرية غير المتكافئة، التي تشنّها إيران، لا سيّما أنَّ تلك الزوارق مرِنة، ويمكنها الانخراط في مجموعة واسعة من العمليات.

هذه الإستراتيجية لا تتطلَّب علميات نشْر طويلة المدى أو تحرُّكات سُفُن معقَّدة ومتزامنة في البحر، وعلى هذا الأساس تركِّز التدريبات البحرية للقوّات البحرية الإيرانية وبحرية الحرس الثوري الإيراني على القيام بتنفيذ هذه المهام القتالية الأساسية، بما يضمن أنَّه

عند الحاجــة يتِم تنفيذ تكتيكات الحرب غير المتكافئة بكفاءة، إذ تفضِّل إيران تجنُّب المخاطر غير الضرورية في المواجهة البحرية[7]. وهذه العقيدة البحرية تتوافق مع العقيدة العســكرية الإيرانية بشكل عام، والتي يتِم تنفيذها من خلال الاعتماد على الوكلاء بالمنطقة، أو ما يُعرَف بحرب الوكالة «Proxy War»[8].

تبنِّي إستراتيجية الحرب غير المتكافئة في الإستراتيجية البحرية الإيرانية، يرتبط باعتبارات عملية، وطبيعة العدو، وكذلك أهداف وأُســس إستراتيجية إيــران البحرية، وطبيعة القِيَم الإيرانية ذات الصِلة:

فعمليًــا، يُعَدُّ انتهاج هذه العقيدة نتاجًا لخبرة الحرب الإيرانية والعراقية وحرب الناقلات (1984–1988م)، فقد أكَّــدت الأخيرة صعوبة قيام كُلٍّ من البحرية الإيرانية وبحرية الحرس الثــوري بمواجهة البحرية الأمريكية؛ لذا فقد اســتخدمت البحريــة الإيرانية خلال حرب الناقلات الطائرات والزوارق السريعة[9]، والألغام البحرية والصواريخ المضادَّة للسفن البرِّية، وذلك لمهاجمة ناقلات النفط. حيث أدركت إيران أنَّ قوّاتها البحرية لن تكون بنفس الفاعلية في صراع بحري تقليدي[10]، وبذلك أصبحت التكتــيكات غير المتكافئة، التي تمَّ تبنِّيها من قِبَل النظام الإيراني في ثمانينات القرن العشرين أساس للعقيدة العسكرية بأكملها.

وفيما يتعلَّق بطبيعة العدو، تُدرِك إيران أنَّ التهديد الرئيسي يأتي من دولة متفوِّقة عسكريًا وتكنولوجيًا، وهي الولايــات المتحدة الأمريكية الأولى عالميًا من حيــث القوَّة البحرية. وقد أثبتت حرب الســنوات الثماني، أنَّ أفضل طريقة لتحدِّي البحرية الأمريكية، هي الاستفادة من نقاط ضعفها، باستخدام الهجمات الســريعة والغامضة والواسعة النطاق باستخدام الزوارق السريعة المســلَّحة، باعتبار أنَّ الدول، التي تركِّز على الأســلحة الحديثة والثقيلة والقوَّة البشرية المحترفة، تكون أضعف في حالة الحرب غير المتكافئة.

يُضاف إلى ذلك، وجود بُعد جغرافي يرتبط بطبيعة النطاق البحري لإيران؛ الأمر الذي يجعل هذا النموذج أكثر ملائمة، حيث ركَّزت البحرية الإيرانية لعقود على «الجوار القريب»، وهو ما يَفترَض أنَّ أيّ صراع بحري ســوف يتِم خوضه عن قُرب؛ لــذا لا تكون هناك حاجة لوضع السفن مُسبَقًا في مواقع بعيدة ومعقَّدة[11]. أمَّا فيما يتعلَّق بالقِيَم، هذا النوع من الإستراتيجيات القائــم على الكرّ والفرّ والكمائن، يتناســب بشكل أكبر من قِيَم التضحية (الشــهادة)؛ ما يُدخِلها في بُعد ديني. هذا وتحدِّد الدراســات أنَّ نموذج الدفاع الإيراني غير المتماثل، يستند إلى عدد من الأُســس منها: توظيف الأسلحة التقليدية بطرق غير تقليدية، ومن ذلك استخدام الزوارق السريعة المسلحة لزرع الألغام في طريق سُــفُن العدو الحربية، أو استخدام الزوارق السريعة والأسلحة الخفيفة بدلًا من الســفن الحربية العملاقة لمحاربة الأسلحة الحديثة والمتطوِّرة، استخدام الهجمات العديدة والمنتشرة أملًا في أن ينجح أحدها[12].

ثانيًا: مكانة البحر المتوسِّط لإيران

أصبح البحر المتوسِّط يحتلّ مكانةً مهمَّة، في إطار عقيدة إيران وإستراتيجيتها الإقليمية، ويمكن توضيح ذلك على النحو الآتي:

1. أهمِّية البحر المتوسِّط

كأكبر بحر داخلي في العالم، وعلى الرغم من كونه يُمثِّل أقلّ من 1% من الحيِّز البحري العالمي، إلّا أنَّ البحر المتوسِّط يحظى بأهمِّية كُبرى، من الناحيتين الجيوإستراتيجية والجيواقتصادية. فمن الناحية الاقتصادية، يحظى البحر المتوسِّط بأهمِّية واضحة لحركة التجارة العالمية؛ كونه يربط بين المحيطين الهندي والأطلسي عبر جبل طارق وقناة السويس ومضيق باب المندب، ما يجعل له أهمِّية أكبر للعديد من الدول، سواءً كانت الدول الـ16 المشاطئة له بين القارات الثلاث آسيا وأوروبا وأفريقيا، أو حتى من خارج نطاقه الجغرافي. وقد زادت الأهمِّية الجيواقتصادية للبحر المتوسِّط، في ضوء الاكتشافات الهيدروكربونية في شرق المتوسِّط، بين المياه الإقليمية لليونان وقبرص وإسرائيل ومصر.

وللبحر المتوسِّط تأثيره المهم على حركة التجارة العالمية، حيث تمُرّ 30% من تجارة النفط العالمية عبر البحر المتوسِّط، وكذلك 25% من حركة الملاحة البحرية عالميًا[13]. وبشريًا، للبحر المتوسِّط أهمِّيته فيما يتعلَّق بحركة الهجرة من الجنوب إلى الشمال. كما أنَّ الأهمِّية الإستراتيجية للبحر المتوسِّط، بحُكم الموقع والموارد والأطراف الفاعلة، جعلته أكثر تأثُّرًا بالسياقين الإقليمي والدولي؛ ما كان له تأثيره على أوضاع الصراع والتعاون بين الدول المشاطئة.

بالإضافة إلى ذلك، يُعَدُّ البحر المتوسِّط الأكثر عسكرة في العالم، وطوال القرن العشرين شكَّل ساحةً مهمَّة للتنافس الدولي. فخلال الحربين العالميتين الأولى والثانية، كان المتوسِّط ساحة مهمَّة للتنافس بين القُوى الإقليمية والدولية، كما كان شرق المتوسِّط مركزًا للتطوُّرات العالمية، في السنوات التي تلت الحرب العالمية الثانية[14]. وحاليًا، يشهد حوض البحر المتوسِّط تنافسًا كبيرًا بين القُوى الدولية والإقليمية، باعتباره شديد الأهمِّية في إطار تعزيز النفوذ الإقليمي ككُلّ. ففي ظل مصالحها المتزايدة، حرصت القُوى الإقليمية والدولية على مراقبة التطوُّرات بالبحر المتوسِّط، والانخراط في قضاياه المختلفة[15].

وعلى هذا الأساس، باتت إيران تنظُر إلى البحر المتوسِّط كأحد الساحات المهمة، لدعم إستراتيجيتها في الانتشار العسكري خارج الحدود، ودعْم نفوذها الإقليمي، باعتبار أنَّ نفوذها يمتدّ إلى شرق المتوسِّط في لبنان وسوريا. كما أنَّ المتوسِّط ممرّ تجاري مهم، تنقل من خلاله إيران دعمها إلى الجماعات التابعة لها في لبنان، وإلى النظام السوري؛ حليف طهران الإستراتيجي. في سياق اعتبار البحر المتوسِّط ممرّ إستراتيجي لحركة الاقتصاد العالمي ولمصالح الدول الكُبرى، لا سيّما الغرب والولايات المتحدة، فإنَّ امتلاك نفوذ فيه يُتيح لإيران

ورقةً مهمَّة، في إطار قضاياها الصراعية والتفاوضية مع الغرب، باعتبارها لاعبًا مؤثِّرًا في أحد الممرّات البحرية المهمَّة.

إنَّ إيـــران تتقاطع مصالحها مع المصالح الأمريكية في المتوسِّـــط، وذلك على الرغم من أنَّ الرؤية الأمريكية تقوم على التعامل مع البحر المتوسِّط على أنَّه ممرّ لنقل البضائع وخطوط نقْـــل الطاقة، وأنَّه منطقة أقـــلّ أهمِّية -وفقًا للمنظور الأمريكـــي- وبالتالي، لا تُوجَد حاجة لوجود إستراتيجية خاصَّة بـــه[16]، وأنَّه منطقة نفوذ أوروبي، وبذلك لا يُوجَد البحر المتوسِّـــط ضمن التقسيم الإستراتيجي الأمريكي للعالم. لكن، رُبَّما تغَّير هذا المنظور، في ضوء التطوُّرات الإقليمية الراهنة، ســـواءً فيما يتعلَّق بالصراع في شرق المتوسِّط حول غاز المتوسِّط، والحرب الإســـرائيلية على غزة، التي جعلت من البحر المتوسِّط أحد ســـاحات القتال غير المباشر مع إيران؛ لهذا دفعت الولايات المتحدة لإعادة نشْر قوّاتها وأُصولها بالبحر المتوسِّط، بما في ذلك حاملات طائراتها وقطعها البحرية الإستراتيجية وغوّاصاتها النووية.

2. تحرُّكات إيران نحو المتوسِّط

تاريخيًا، انقطعت علاقة إيران بالبحر المتوسِّـــط بعد نهاية الإمبراطورية الأخمينية، فخلال العصر الأخمـــيني كانت الإستراتيجية الإيرانية تقوم على الســـيطرة على البحر المتوسِّـــط لضمان الهيمنة على الشرق الأوســـط، حيث فرضت الإمبراطورية الأخمينية نفسها كقوَّة بحرية كُبرى تتحكَّم في شرق المتوسِّط، وذلك في القرن الخامس قبل الميلاد. لكن هذه السيطرة لم تدُم طويلًا؛ حيث ألحق الأســـطول اليوناني التابع لأثينا الهزيمـــة بهذه الإمبراطورية في معركة سلاميس البحرية في عام 480 ق م، وعندما جاء الفرس لم يكُن من أولوياتهم استعادة نفوذهم على البحر المتوسِّط، حيث ركَّزوا جهودهم حول بلاد ما بين النهرين وأرمينيا، ومنذ ذلك الوقت لم يكن هناك تواجد مباشر لإيران في البحر المتوسِّط[17].

وفي دراســـتهما المشتركة والمتعلِّقة بتحليل الخطاب الإيراني بشأن البحر المتوسِّط منذ عام 2001م، أشـــار كلٌّ من أنوش احتشـــامي وأريابرزان محمدي إلى أنَّه بشكل عام فإنَّ مصطلح ومفهوم البحر الأبيض المتوسِّـــط كمنطقة غائبة عن الخطاب الإيـــراني[18]، ومع ذلك قامت القـــوّات البحرية الإيرانية في مرّات محدودة بنشـــر قوّاتها خارج الجـــوار القريب، وذلك في المحيط الهادئ والبحر المتوسِّـــط، في إطار التحرُّك الإيراني لتوسيع المشاركات الإستراتيجية مع دول مثل الصين وروسيا والسودان وسوريا[19].

ومع أنَّ إيران لا تمتلك خطَّة أو إستراتيجية طويلة المدى بشأن تواجدها في البحر المتوسِّط، إلّا أنَّ هنـــاك مجموعة من العوامل، التي مهـــدّت الطريق لإيران ووفَّـــرت فُرصة لها لإيجاد جسر يربط حدودها الغربية بشرق المتوسِّط مرورًا بالعراق ولبنان وسوريا، حيث أنَّ السياق الإقليمي أتاح الفُرصة لإيران لهذا التحرُّك، بدايةً من الاحتلال الأمريكي للعراق وإزاحة صدّام حسين من السُـــلطة؛ الأمر الذي مهَّد الطريق أمام إيران لاستخدام العراق كجسر للوصول إلى حُلفائها المتوسِّـــطيين: سوريا ولبنان، لا ســـيّما بعدما وفَّرت أحداث الانتفاضة السورية

2011م فُرصةً مهمَّة لإيران لتعزيز تواجدها في سـوريا، وإنشاء جسر برِّي لما يمكن تسميته بـ «محور المقاومة» أو «الهلال الشـيعي» أو «الكوريدور الإيـراني»، يمُرّ بحلفائها الثلاث ويصِلها بالبحر المتوسِّط[20].

وكما أسـهمت الولايات المتحدة بشكل غير مباشـر في تهيئة الفُرصـة لإيران للتفكير في التحرُّك نحو إيجاد جسـر يربطها بالبحر المتوسِّـط، بعد إزاحة نظام صدّام حسين عن الحُكم في العراق، فإنَّ حضور روسـيا في سـوريا وتعاونها مع إيران في الحفاظ على نظام الأسد، قد عزَّز من خِطَط إيران بالتوجُّه برِّيًا عبر العراق وسـوريا ثمّ لبنان نحو المتوسِّط. وسوريا تحديدًا، برزت كمركز لوجستي ونواة لاستعراض القوَّة الإيرانية، حيث هدفت إيران إلى بناء جسر من حدودها إلى البحر المتوسِّط؛ لتغطية ما لا يقِلّ عن 800 ميل من الأراضي[21].

وهكـذا مهَّدت السياسـات الأمريكية في المنطقـة الطريق لإيران، لإيجـاد تواجُد لها في المتوسِّـط، بالإضافة إلى ذلك، فإنَّ العقوبات التي تمَّ فرضهـا من قِبَل الولايات المتحدة على إيران، لم تؤثِّر على قُدرتها على تحرُّكاتها العسـكرية، سواءً كان فيما يتعلَّق بتطوير برنامجها النووي، أو مزيد من التورُّط في دول المنطقة، خاصَّةً سوريا[22]. وعلى الرغم ممّا يُطرَح بأنَّ تلك العقوبات أسـهمت في تقليص المناورات البحرية لإيران، إلّا أنَّها لم يكُن لها تأثيرها على قُدرة إيران على نشْر قوّات بحرية في مسافات أبعد لتحقيق أهداف إستراتيجية

وقد تحرَّكت إيران عبر عدَّة خطـوات لتحقيق هذا الهدف، فخلال الفترة من 2011م وحتى 2013م، كانت إيران تسـيطر على الطريق عبر العراق وصولًا إلى معبر الوليد الحدودي، الذي يقـع مقابل معبر التنف الحدودي السـوري. وفي عام 2014م، وبعـد التطوُّرات في الموصل، أعلنت طهران عن مشـروعها البرِّي، حيث اسـتثمرت ملايين الدولارات في هذا المشروع، وذلك في ضوء الأهمِّية الإستراتيجية للطريق، الذي يربط إيران بالبحر المتوسِّط مرورًا بالعراق وسوريا ولبنان[23].

ويتِم تقسـيم الجسـر، الذي يربط إيران بشرق البحر المتوسِّـط، إلى طريقين رئيسيين؛ شـمالي وجنوبي، حيث يمتَدّ الطريق الشمالي من المنطقة الكردية في العراق إلى كركوك، ومن هناك إلى أربيل ثمَّ إلى الموصل وربيعة. ويمتَدّ الطريق السريع M4 بالتوازي مع الحدود التركية على الأراضي السـورية، ومن خلال هذا الطريق السريع، يمكن إجراء اتصال مباشر بمحور النقـل في حلب وميناء اللاذقية، حيث يُوجَد كلًّا من الـروس والإيرانيين. ومن الممكن أيضًا تأمين ربْطٍ أكثر أمنًا من حلب إلى حمص، عبر الطريق السـريع M5، ومن هناك عبر ممرّ آخر إلى بيروت[24].

أمّا بالنسـبة للطريق الجنوبي، فيمُرّ عبر وسـط العراق، ويتحرَّك على طول طريق بغداد السـريع (M1)؛ ليصِل إلى التنف في سـوريا، ثمَّ يستمِرّ إلى دمشـق وبيروت. وهناك طريق ثالث يمكن اعتباره بديلًا للطريق الجنوبي، وهو: اتّباع نهر الفرات إلى القاسـم على الحدود

العراقية، ثمَّ عبر البوكمال إلى دير الزور السورية، ثمَّ إلى مركز النقل في حمص، ويمكن ضمان الوصول إلى ميناء طرطوس من هذه النقطة[25].

وتُشير التحليلات إلى أنَّ هذا الجسر يُشكِّل أحد عناصر الإستراتيجية الإيرانية لتعزيز نفوذها الإقليمي وخدمة أغراضها الدفاعية، حيث تهدُف من خلاله إلى الوصول إلى الطُرُق والسِكَك الحديدية، على طول طرق الإمداد الرئيسية من إيران إلى سواحل البحر المتوسِّط[26].

كما كانت أحد المقترحات من قِبَل طهران، تتمثَّل في خط سِكَك حديدية يمُرّ عبر إقليم كردستان العراق، أو يمُرّ من الخليج عبر وسط العراق؛ وهو المشروع، الذي يواجه عدَّة عقبات، في مقدِّمتها مشكلة التمويل والعقوبات الدولية[27]. وهكذا، فإنَّ هذا الجسر يسمح لإيران بتحقيق مصالحها، وتعزيز مكانتها الإقليمية، ويضمن لها دورًا فاعِلًا في المنظومة الأمنية في شرق المتوسِّط، حيث يمكن أن تصبح، مستقبلًا، طرفًا مؤثِّرًا في التفاعلات شديدة التعقيد بهذه المنطقة، يُضاف إلى ذلك امتلاك أدوات ضغْط إقليمية، من شأنها الإسهام في ضمان أمنها، وحماية مصالحها، وتحقيق أهدافها الإقليمية في مواجهة الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل[28].

ولا شكَّ أنَّ الوجود الأمريكي في سوريا، والعقوبات، التي فرضتها واشنطن فيما يُعرَف بـ «قانون قيصر»، كانا ضمن أهدافها تقويض دور ونفوذ إيران، والتأثير على مشروع «الكوريدور»، الذي يربط إيران بالعراق وسوريا ولبنان وصولًا إلى المتوسِّط، خصوصًا أنَّ الضغوط الأمريكية والانتشار العسكري قد دعمته الاستهدافات الإسرائيلية لهذا الممرّ وللمليشيات التابعة لإيران، التي كانت تستغِلّه من أجل نقْل السلاح إلى حزب الله في لبنان وباقي فصائل المقاومة؛ لهذا تراجع إلى حدٍّ ما الحديث عن هذا الممرّ.

ولا يعني ذلك أنَّ إيران لم يكُن لها تواجُد مباشر في البحر المتوسِّط؛ فخلال ذروة العقوبات الأمريكية على النظام السوري، حرَّكت إيران شاحنات نفطها لإنقاذ النظام السوري من نقْص الوقود. فبحسب صحيفة «هآرتس» الإسرائيلية، فإنَّ «الناقلات الإيرانية رست في ميناء بانياس على الساحل السوري 17 مرَّة، في حين رصَدَ التقرير 20 رحلة من إيران إلى سوريا، خلال الفترة بين أكتوبر 2022م وأبريل 2023م، تمَّ خلالها نقْل 17,1 مليون برميل نفط[29]. وقد وفَّرت القِطَع الحربية الروسية الحماية للناقلات الإيرانية، وذلك بناءً على اتفاقٍ ثلاثي بين روسيا وإيران ونظامِ الأسد، ينُصّ على تدخُّل الأسطول البحري الروسي لحماية ناقلات النفط الإيرانية المتّجِهة إلى سوريا[30].

ومؤخَّرًا بعد حرب غزة، وفي تصريحٍ لافت، أشار قائد الحرس الثوري الإيراني حسين سلامي، في مايو 2024م، إلى التحرُّك نحو توسيع الجبهات وإغلاق شرق المتوسِّط، مشيرًا بقوله: «سنُغلِق الطريق على العدو في شرق البحر الأبيض المتوسِّط، ونوسِّع الجبهات؛ لكي يتشتَّت الأعداء». ولم تكُن هذه هي المرَّة الأولى، التي يهدِّد فيها قائد عسكري إيراني بالقيام بعمليات في البحر المتوسِّط، فقد سبق أن قال محمد رضا نقدي؛ المنسِّق العام لقوات الحرس

الثوري في ديسمبر 2023م: «سنُغلِق البحر الأبيض المتوسِّط ومضيق جبل طارق والممرّات المائية الأخرى، إذا واصلت الولايات المتحدة وحُلفاؤها ارتكاب جرائم في غزة». على الرغم من أنَّ هذه التصريحات تندرِج في إطار التهديدات الإيرانية المستمِرَّة، التي تُطلَق في مناسبات متعدِّدة، إلّا أنَّها تأتي كتعبير عن التحرُّكات الإيرانية الأخيرة لخلق تواجُد لها في شرق المتوسِّط، بعد غياب دام لعقود[31].

ثالثًا: تداعيات الدور الإيراني في البحر المتوسِّط

على مدار عقود، شهَد البحر المتوسِّط جولات من التوتُّر والتنافس والصراع تفصلها فترات من التهدئة، مع وجود تشابُك في مصالح الأطراف المختلفة، وذلك في ضوء الأهمِّية الإستراتيجية للبحر المتوسِّط. ولا شكَّ أنَّ وجود دور لإيران في البحر المتوسِّط، من شأنه زيادة تعقيد المشهد الصراعي بالبحر المتوسِّط، فعلى الرغم من غياب إستراتيجية أمريكية تجاه البحر المتوسِّط، إلّا أنَّه يحظى بأهمِّية في السياسة الخارجية الأمريكية، في ضوء أهمِّية الدول المشاطئة، خاصَّةً إسرائيل، وهو ما يعنى أنَّ الولايات المتحدة الأمريكية لن تسمح بتنامي الدور الإيراني في البحر المتوسِّط؛ لحماية مصالح حُلفائها بالمنطقة، وهو ما يعنى إضافة بُعدٍ جديد للمشهد الصراعي في المتوسِّط.

وقد أثار التواجد الإيراني في سوريا وعودة إيران لسواحل البحر المتوسِّط قلق الولايات المتحدة الأمريكية؛ لهذا أعلن جون بولتون؛ مستشار الرئيس الأمريكي السابق للأمن القومي، في يوليو 2018م، أنَّ الولايات المتحدة ستحافظ على تواجُد قوّاتها في سوريا، طالما ظلَّت إيران هناك، وذلك في إطار السعي الأمريكي لاحتواء إيران[32]. ويمكن الإشارة إلى المقترح الأمريكي، والخاص بمشروع الممرّ الاقتصادي الجديد، الذي تمَّ طرحه في قمَّة العشرين في نيودلهي في 2023م، حيث يبدأ من مومباي في الهند، ويعبر بحر عُمان عبر بعض أجزاء من شبه الجزيرة العربية إلى ميناء حيفا في شرق المتوسِّط، وينتهي في أوروبا عن طريق البحر. ويهدُف المشروع إلى تحقيق عدَّة أهداف، من بينها قطْع الطريق على أيّ طُرُق منافِسة، بما في ذلك «الكوريدور» الإيراني، ومبادرة الحزام والطريق الصينية، التي تمُرّ عبر إيران، والثاني قطْع الروابط بين أوروبا وروسيا، من خلال دمْج أجزاء من أوروبا مع الشرق الأوسط وجنوب آسيا. كما يجعل المشروع من السعودية؛ منافسة إيران الرئيسية في المنطقة، مركزًا محوريًا يخصم من نفوذ إيران[33]. وعلى الرغم من أنَّ الفكرة لا تزال في إطار كونها مذكِّرة تفاهُم وُقِّعت بين الأطراف المختلفة، إلّا أنَّ هذا النوع من المشروعات من المهم النظر إليه في ضوء التحرُّكات الإيرانية والروسية نحو البحر المتوسِّط، خاصَّةً أن تنفيذ هذا المشروع من شأنه تغيير الجغرافيا السياسية للمنطقة.

وفيما يتعلَّق بروسيا، تعتمد روسيا على إيران فيما يتعلَّق بتواجدها في البحر المتوسِّط، فمن ناحية تقوم إيران بدور مهم لدعم روسيا كشريك إستراتيجي، حيث تتوقَّف السُفُن الروسية في بندر عباس كنقاط لوجيستية نحو تحرُّكها إلى المتوسِّط. ومع أنَّ هذا أمرٌ ليس بجديد، إذ

تُشير المصادر إلى أنَّ البداية كانت في ديسمبر 2012م، عندما رست المدمِّرة الروسية «أوداليا ماي مارشال شاي شينكو»، لكنَّه له أهمِّية خاصَّة في ظل العقوبات الغربية المفروضة على روسيا بعد حربها على أوكرانيا، وفي ظل الحصار والعُزلة الغربية على روسيا[34]. هذا التوقُّف بالنسبة للسُفُن الروسية في ميناء بندر عباس، من شأنه تسهيل الهدف الروسي المتعلِّق بإنشاء قوَّة مهام متوسِّطية بشكل دائم، حيث لا يمكن تحرُّك السُفُن الروسية من المحيط الهادئ إلى الشرق الأوسط دون توقُّف، وبذلك توفِّر إيران دور مهم لروسيا في تحرُّكها نحو المتوسِّط[35] كما لا تستخدم إيران أُصولها البحرية لتحقيق طموحها الإستراتيجي وحسب، بل ودعم علاقاتها مع الحُلفاء، والتخادُم الإستراتيجي معهم.

ومن ناحية ثانية، فهناك تعاون روسي إيران لدعم النظام السوري (الحليف المشترك بين الدولتين)، وبذلك فما بين الدعم الروسي لدورٍ إيراني في المتوسِّط والاعتماد الروسي على إيران لتعزيز دورها في المتوسِّط من ناحية، والمعارضة الأمريكية لأيّ دور لإيران في البحر المتوسِّط، وفي ظل مصالح الطرفين الروسي والأمريكي في المتوسِّط، فإنَّ أيّ تحرُّك أو تطوُّر في الدور الإيراني في المتوسِّط، سيضيف بُعدًا دوليًا جديدًا في البحر المتوسِّط، عبر دور للجانبين الروسي والأمريكي.

أمّا على صعيد التأثيرات الإقليمية، فقد وصلت حرب الظل «Shadow War» بين إيران وإسرائيل إلى منطقة شرق المتوسِّط منذ عام 2019م، حيث تبادل الطرفان استهداف السُفُن التجارية في المياه المفتوحة في المنطقة، حيث هاجمت إسرائيل سُفُنًا إيرانية في شرق المتوسِّط والبحر الأحمر، كما قامت إيران بالردِّ بهجمات بحرية على السُفُن الإسرائيلية في خليج عُمان وبحر العرب[36]. على سبيل المثال، في مارس 2021م، تعرَّضت السفينة «شهركرد»، وهي سفينة شحن إيرانية كانت متّجِهة إلى أوروبا، لهجوم بالبحر المتوسِّط[37]، وقد أثار ذلك المخاوف بشأن تطوُّر حرب الظل بين إيران وإسرائيل إلى حرب أوسع في المتوسِّط، وهو ما سيكون له انعكاسه على المنطقة، وتعقيد المشهد الصراعي في المتوسِّط.

كما أنَّ هناك دور إيراني غير مباشر في شرق المتوسِّط، من خلال التهديدات المتزايدة لـ «حزب الله»، باستخدام ترسانته الصاروخية ضدّ حقول الغاز البحرية الإسرائيلية؛ ما يهدِّد الاستقرار شرق المتوسِّط[38]. وبالفعل، أعلنت إسرائيل في يوليو 2024م عن إسقاط طائرة مسيَّرة تابعة ـ «لحزب الله»، كانت مُتّجِهة نحو حقل نفطي إسرائيلي في شرق المتوسِّط. وعلى الرغم من تفاوُت الآراء؛ ما إذا كانت تلك المسيَّرة للتصوير فقط أم كانت تتّجِه فعلًا لاستهداف حقل غاز إسرائيلي، إلّا أنَّه قد نُظِرَ إليها كأحد الأدوات، التي يمكن اللجوء إليها، في حال قرَّرت إسرائيل توسعة الحرب ضدّ لبنان[39].

وتتمثَّل المخاوف في قيام حزب الله المدعوم إيرانيًا، بمحاولة إحداث تأثير في البحر المتوسِّط حال اندلاع حرب مع إسرائيل؛ بهدف التأثير على التجارة البحرية العالمية مثلما يفعل الحوثيون في البحر الأحمر، خاصَّةً أنَّ حزب الله يمتلك ما لا يقِلّ عن 85 صاروخًا مضادًّا للسُفُن[40]، وهو ما يُشير إلى وصول تأثير إيران إلى هذه المنطقة. وفي حال اتّساع نطاق الصراع الإقليمي، فإنَّ

التوتُّر سيشـــمل البحر المتوسِّط، وستتضاعف التهديدات الأمنية، وستدخل دائرة جديدة في إطار الصراع الإيراني مع الغرب والولايات المتحدة وإســـرائيل، وستكون للجماعات المسلَّحة، كـ «حزب الله»، دور في هذا النزاع، ورُبَّما جماعات أخرى؛ الأمر الذي ســـيعقِّد المشهد في البحر المتوسِّط والمنطقة ككُلّ، وسيكون لذلك تأثيرات أوسع إقليميًا ودوليًا.

وعلى ما يبدو أنَّ إســـرائيل والولايات المتحدة في مرحلة ما بعد عملية «طوفان الأقصى»، يقودان حملة مُمنهَجة؛ من أجل تقويض نفوذ إيران الإقليمي، وإضعاف محورها في المنطقة، بما في ذلك حزب الله. وهذه الإستراتيجية إن نجحت، فإنَّها ســـوف يكـــون لها تأثير كبير على التوجُّهات الإيرانية نحو المتوسِّـــط، وعلى مصالحها المتدفِّقة من خلاله. فما أثبته الحوثيون حُلفاء إيران في اليمن من قُدرة على الإيذاء والتأثير في حركة التجارة العالمية عبر البحر الأحمر، لا شكَّ سيشجِّع واشنطن على إبعاد أيّ خطر مُحتمَل قد يسبِّبه انتشار إيران في البحر المتوسِّط.

خاتمة

لا يمكن النظر إلى التحرُّك الإيراني نحو البحر المتوسِّـــط علـــى أنَّه تجديد للأطماع الإيرانية الســـابقة، لكنَّه يرتبط بالأســـاس بحماية المصالـــح الإيرانية، وتعزيـــز مكانتها الإقليمية، والحفاظ على علاقاتها مع حُلفائها الإستراتيجيين، لكن هذا الأمر تحِدّه جُملة من القيود على العديد من المستويات المحلية والإقليمية.

ومن واقع ما تمَّ التطرُّق إليه، لا يمكن النظر إلى التواجد في البحر المتوسِّـــط على أنَّه يُشكِّل أولوية أولى في سياســـات إيران الإقليمية في الوقت الراهن، كما أنَّ إيران لا تمتلك إستراتيجية بعيدة المدى بشـــأن البحر المتوسِّـــط، ومن الأرجح أن تفضِّل إيـــران خلال الفترة المقبلة عدم التدخُّل المباشـــر، لكنَّها ســـتظلّ حريصة على أن يكون لوكيلها حزب الله قُدرة على التأثير في المتوسِّط.

وفيما يتعلَّق بالجســـر البرِّي من غرب إيران إلى شرق المتوسِّـــط، ودور سوريا كمنفذ لإيران على البحر المتوسِّط، تُشير المصادر إلى أنَّه على الرغم من أنَّ إيران قد تكون مهتمَّة بإنشاء موانئ على ساحل المتوسِّط، لكنَّها لا تمتلك في المستقبل المنظور القُدرة البحرية اللازمة لحماية تلك الموانئ في سوريا ضدّ الهجمات الأمريكية والإسرائيلية. وعلى الرغم من ذلك، فهناك مخاوف بأن تدفع بعض التطوُّرات في المتوسِّـــط بإيران لأن يكون لها تدخُّل أكبر في المتوسِّط، وهو الأمر الذي سيتأثَّر بالتوازنات الدولية، والدورين الأمريكي والروسي في المتوسِّط.

لكن ارتباط الدور الإيراني في المتوسِّـــط لا يقتصر علـــى التوازنات الدولية، فمواقف القُوى والأطراف الإقليمية لها تأثيرها المهم، خاصَّةً الموقف الأوروبي، إذ يُنظَر للبحر المتوسِّـــط على أنَّه منطقة نفوذ أوروبي، وكذلك الإستراتيجية التركية تجاه المتوسِّط، في إطار عقيدة «الوطن الأزرق». هذا التعقيد في المشهد الإقليمي وطبيعة التوازنات الإقليمية والدولية، من شأنها أن تجعل التحرُّك الإيراني نحو دور أكبر في المتوسِّط معقِّدًا للمشهد، ومؤثِّرًا على الاستقرار الإقليمي.

المصادر والمراجع

(1)Chan, Edward Sing Yue,. China's Discourse of Maritime Power: A Thematic Analysis, Journal of Contemporary China, (2024), accessed: Sep. 2024 ,1, https://2h.ae/ygwq

(2)Harmer, Christopher, Iranian Naval and Maritime Strategy, Middle East Security Report 12, Institute of the Study of War, (June 2013), accessed: September 2024 ,12, https://2h.ae/IodH

(3)Global Fire Power, Index Iran , Navy Fleet Strength by Country, (2024), accessed: 1 September 2024, https://2h.ae/SMJY

(4) Mazzucco, Leonardo Jacopo Maria, Iranian Naval Strategy: The Strengths and Weaknesses of Confrontationalism, Gulf International Forum, (2022), accessed: Sep. 2024 7, https://2h.ae/PhRV

(5) Conell, Michael, Iran's Military Doctrine, United States Institute of Peace, The Iran Primer, 2010)), accessed: Sep. 2024 ,8, https://2h.ae/IFDi

(6) Rezaei, Alireza & Torabi, Ghasem, Iran's Naval Defense Strategy, Journal of political Strategy, (Volume.4, Issue.15, Winter 15)4 ,(2021), accessed: Sep. 2024 ,8, https://2h.ae/nzgR

(7)Ibid.

(8)Harmer, Christopher, Iranian Naval and Maritime Strategy, Ibid.

(9)V., Shelly Johny,. The Impact of a Probable Iran-Israel War on The Maritime Security of the Eastern Mediterranean, Red Sea and The Persian Gulf Region- Part 2, Indo- Pacific Circle, (2023), accessed: Sep. 2024 ,4, https://2h.ae/UgfA

(10)Conell, Michael, Iran's Military Doctrine, Ibid

(11)Ibid.

(12)Rezaei, Alireza & Torabi, Ghasem, Iran's Naval Defense Strategy, Ibid.

(13) صالـح، وائل، عسكرة البحر المتوسط.. السيـاق، المظـاهر والاتجاهـات، مجلـة الجندي، (1 ابريل 2024م)، تاريـخ الاطلاع، 1 سبتمبر 2024م،

https: //:2u.pw/YMPVCgL9

(14) Darvishvand, Hamid, "Geopolitical Analysis of Eastern Mediterranean Competitions (Revista CIMEXUS, Vol. XVIII, No ,(2023 ,2.Using Game Theory", https://n9.cl/kwru1

(15)Tanchum, Michaël, "The Geopolitics of the Eastern Mediterranean Crisis: A Regional System Perspective on the Mediterranean's new Great Game ", in: Michaël Tanchum (ed.), Eastern Mediterranean in Uncharted Waters, Perspectives on Emerging Geopolitical Realities, Konrad-Adenauer-Stiftung, Ankara, (2021), accessed: Sep. 2024 ,9, https://n9.cl/2nzkx

(16)Benantar, Abdennour, "What Role Does the USA Play in the Mediterranean?", European institute of the Mediterranean,(med 2009), accessed: Sep. ,2024 ,9https://n9.cl/h3rtu

(17) جـاندي، تيبو، عودة إيران إلـى البحر الأبيض المتوسط، أوريـان 21، (29 نوفمبر 2018م)، تاريـخ الاطلاع: 7 سـبتمبر 2024م، https://2h.ae/aJnJ

(18)Ehteshami, Anoush & Mohammadi, Ariabarzan, Iran's Discourse and Practices in the Mediterranean Since 2001, Medreset, European Union Horizonsm (5, June 2017), accessed: Sep. 2024 ,4, https://2h.ae/CyQw

(19)Harmer, Christopher, Iranian Naval and Maritime Strategy, Ibid.

(20)Karaaslan, Nimet, Tehran's Corridor to the Mediterranean Sea, (December 2021 ,3), accessed: Sept. 2024 ,2, https://2h.ae/EnvE

(21)Kidwai, Saman Ayesha,The Rise of Iran as a Regional Power, India Quarterly, India Quarterly, Vol. 76, No. 2, June 2020, accessed: Sep. 2024 ,4, https://2h.ae/eTPH

(22)Harmer, Christopher, Iranian Naval and Maritime Strategy, Ibid.

(23)Karaaslan, Nimet, Tehran's Corridor to the Mediterranean Sea, Ibid.

(24)Ibid.

(25)Ibid.
(26)Milburn, Frank, Iran's Land Bridge to the Mediterranean: Possible Routes and Ensuing Challenges, Strategic Assessment, (Volume 21, No. 1, April 2018), accessed: Sep. 2024 ,4, https://2h.ae/VHRe
(27)Ibid.
(28) جاندي، تيبو، عودة إيران إلى البحر الأبيض المتوسط، مرجع سابق.
(29) Avi Scharf, 17 Iranian 'Ghost Tankers' Bring Oil Worth 1$ Billion to Syria, haaretz, (May 2023 ,18), accessed: Sep. 2024 ,4, https://2h.ae/wUjX
(30) عبدالرحمن عمر، غرفة عمليات إيرانية روسية لضمان إمداد «الأسد» بالنفط والقمح، (18 أبريل 2021م)، تاريخ الاطلاع: 9 سبتمبر 2024م، https://2h.ae/Gujb
(31) جريدة الشرق الأوسط، قائد «الحرس الثوري» يهدِّد بإغلاق شرق البحر الأبيض المتوسِّط، (7 مايو 2024م)، تاريخ الاطلاع: 9 سبتمبر 2024م، https://2u.pw/lQvUwY8n
(32) جاندي، تيبو، عودة إيران إلى البحر الأبيض المتوسط، مرجع سابق.
(33)Kapoor, SanJay, IMEC: The Politics Behind the New Geopolitical Corridor That's Shaking Up Global Alliances, The Probe, (27 Sep 2023), accessed: Sep. 2024 ,9, https://n9.cl/olcd6
(34)Harmer, Christopher, Iranian Naval and Maritime Strategy, Ibid.
(35)Harmer, Christopher, Iranian Naval and Maritime Strategy, Ibid.
(36)Mosly, Amnah, Enhancing Cooperation on Maritime Security in the Gulf, Gulf Research Center2023) ,), accessed: Sep. 9, 2024, https://n9.cl/2nzkx
(37) Kingsley et al, 2021. Israel's Shadow War with Iran Moves Out to Sea, New York Times, (March 26, 2021), accessed: Sep. 9, 2024, https://n9.cl/19xru
(38)Tobin, Yoni & Judd, Nolan, Iran's Proxy War Imperils Eastern Mediterranean, The Jewish Institute for National Security of America, Nat Sec Brief, (August 7, 2024), accessed: Sep. 9, 2024, https://n9.cl/txjrug
(39) أسطيح، بولا، «حزب الله» يلوّح باستهداف منصَّات الغاز في إسرائيل خلال «الحرب الشاملة»، جريدة الشرق الأوسط، (27 يوليو 2024م)، تاريخ الاطلاع: 9 سبتمبر 2024م، https://2u.pw/sACfJk6n
(40)Tobin, Yoni & Judd, Nolan, Iran's Proxy War Imperils Eastern Mediterranean, Ibid.

مستقبل العلاقات الإيرانية-الروسية في ظل رئاسة بزشكيان

د. حمدي بشير

باحث في قضايا الأمن الإقليمي ومكافحة الإرهاب

مستخلص:

تتناول هذه الدراسة مستقبل العلاقات الإيرانية-الروسية بعد فوز الرئيس «الإصلاحي» مسعود بزشكيان في الانتخابات الرئاسية في يوليو 4202م، حيث شهدت العلاقات بين البلدين تقاربًا متناميًا خلال رئاسة الرئيس السابق إبراهيم رئيسي، في حين أظهر الرئيس بزشكيان اهتمامًا خاصًا باستعادة العلاقات مع الدول الغربية، وهو ما قد يمثل تحولًا في التوجهات الإيرانية إزاء العلاقات مع روسيا. ومن ثم تسعى هذه الدراسة لبحث مدى تأثير فوز الرئيس الجديد على التقارب الإيراني-الروسي، وحدود التغيير والاستمرارية في سياسة بزشكيان مقارنة بسياسة سلفه «المحافظ» تجاه روسيا، والعوامل التي تُعزز من توجه الرئيس «الإصلاحي» لتغيير السياسة الخارجية الإيرانية التي انتهجها الرئيس السابق تجاه روسيا، والعوامل التي تحد من قدرة بزشكيان على التغيير، وتوقع المسارات المحتملة لمستقبل العلاقات الإيرانية-الروسية في ظل رئاسة بزشكيان، والسيناريو المرجح لاتجاه هذه العلاقات في ضوء المتغيرات الداخلية والإقليمية والدولية الراهنة.

الكلمات المفتاحية: روسيا، إيران، الولايات المتحدة، العقوبات، البرنامج النووي الإيراني، الحرب في غزة، حزب الله، الحوثيين.

Abstract

This research article analyzes the future of Iran–Russia relations after the election of "reformist" Masoud Pezeshkian as president in July 2024. During the term of former President Ebrahim Raisi, the relationship between the two countries grew closer, but Pezeshkian has shown a keen interest in restoring relations with Western countries, representing a shift in Iran–Russia relations. This research article examines the impact of the newly elected Iranian President Pezeshkian on Iran–Russia relations, comparing his policies with those of his "conservative" predecessor, Raisi. It also explores the factors that influence Pezeshkian's reform agenda with regard to Iranian foreign policy toward Russia and the constraints he faces in implementing these changes. Finally, it suggests potential scenarios for Iran–Russia relations under Pezeshkian, taking into account current internal, regional, and international developments.

Key Words: Russia, Iran, sanctions, the Iranian nuclear program, the war in Gaza, Hezbollah, the Houthis.

مقدمة

يمثل فوز الرئيس الإيراني «الإصلاحي» مسعود بزشكيان في الانتخابات الرئاسية الإيرانية عقب وفاة الرئيس إبراهيم رئيسي متغيرًا مهمًا في المشهد السياسي الإيراني، يُتوقع أن يكون له تداعياته على توجهات السياسة الخارجية الإيرانية، خاصةً فيما يتعلق بمستقبل العلاقات الإيرانية-الروسية، حيث شهدت هذه العلاقات تطورًا كبيرًا في كافة المجالات السياسية والعسكرية والاقتصادية في عهد رئيسي، في حين أدلى بزشكيان بالعديد من التصريحات بشأن توجهات سياساته الخارجية تجاه الدول الغربية، ودعا إلى خفض التوتر والعودة إلى المفاوضات بشأن البرنامج النووي الإيراني، وقد أثارت هذه التصريحات مخاوف الروس من تراجع العلاقات الإيرانية-الروسية خلال الفترة المقبلة.

ومن ثم يطرح فوز بزشكيان في الانتخابات الرئاسية الإيرانية الأخيرة 2024م تساؤلات عديدة حول مستقبل العلاقات الإيرانية-الروسية، والعوامل والمحددات التي تؤثر على مستقبل هذه العلاقات، وتوقع مساراتها وسيناريوهاتها المحتملة، وحدود التغيير والاستمرارية في هذه العلاقات، مقارنةً بالمستوى الذي وصلت إليه خلال فترة رئيسي، وذلك في سياق المتغيرات التي تشهدها البيئة الدولية والإقليمية، وخاصةً التطورات التي تشهدها منطقة الشرق الأوسط.

أولًا: العلاقات الروسية-الإيرانية في ظل رئاسة رئيسي

مثل انتخاب رئيسي في عام 2021م بداية مرحلة جديدة في العلاقات الروسية-الإيرانية، حيث تبنى رئيسي نهجًا أكثر تحفظًا وتشددًا تجاه الدول الغربية، مع إعطاء الأولوية لإستراتيجية التوجه شرقًا، التي استندت إلى الاعتقاد بأن الدول الشرقية، خاصةً الصين وروسيا، هم شركاء أكثر موثوقية لإيران من الغرب.

وقد عززت الحرب الروسية-الأوكرانية بجانب التنافس العالمي المتصاعد بين الولايات المتحدة وروسيا والصين من هذا التوجه، وكانت هذه الإستراتيجية -في تقدير رئيسي- أداة فعالة في مواجهة تأثير العقوبات الأمريكية، وتوسيع نطاق الخيارات الإستراتيجية الإيرانية على المدى الطويل، وحظي هذا التوجه بدعم الفصيل «المتشدد» الذي ينتمي إليه رئيسي، باعتباره خيارًا استراتيجيًا أكثر منه مناورةً تكتيكية[1].

وقد تأثرت إستراتيجية «التوجه شرقًا» التي انتهجها رئيسي بمجموعة متنوعة من العوامل، ولاسيما الإخفاق في إحياء خطة العمل الشاملة المشتركة ورفع العقوبات الأمريكية المستمرة، وفي الوقت نفسه وفر المشهد الجيوسياسي المتغير في أوراسيا والشرق الأوسط، مثل الحرب الروسية في أوكرانيا فرصًا جديدةً أمام العلاقات بين البلدين. علاوةً على تصاعد موجة متزايدة من «التشدد» التي اجتاحت المشهد السياسي الإيراني منذ الانتخابات الرئاسية لعام 2021م، ولاسيما الاستبعاد الواسع النطاق لجميع

المرشـــحين «المعتدلين» و «الإصلاحييـــن» من قِبل مجلس صيانة الدســـتور في هذه الانتخابات، بجانب تصاعُد الاحتجاجات الشـــعبية الإيرانية. وشـــهدت إدارة رئيسي دورًا متزايدًا للحرس الثوري الإيراني مع تولي قادة ســـابقين في الحرس لمناصب سياسية رفيعة المســـتوى، ولعبت قوة القدس النخبوية التابعة للحرس دورًا بارزًا في تشـــكيل السياسة الخارجية وتنفيذها[2].

ومن ثَّم، فقد شـــهدت العلاقات الإيرانية-الروسية في عهد رئيســـي تطورًا كبيرًا، من ذلك تنسيق البلدين مواقفهما بشأن عدد من القضايا الدولية، بما في ذلك البرنامج النووي الإيراني، والحرب في سوريا، والوضع في منطقة بحر قزوين، والعمليات السياسية والأمنية في أفغانستان، بالإضافة إلى التنسيق في أســـواق النفط والغاز. كما لعبت إيران دورًا مهمًا في تزويد روسيا بالأســـلحة بعد تصاعد الحرب الروســـية-الأوكرانية. وبعد عام 2022م، أصبحت إيران لاعبًا مهمًا في خطط إنشاء ممر الشمال- الجنوب للالتفاف على العقوبات، وهو جانب آخر من جوانب تنشيط العلاقات الاقتصادية الروسية الإيرانية[3].

واقتربت روسيا وإيران من بعضهما سياسيًا وعســـكريًا، حيث انضمت طهران لاتفاقية التجارة الحرة مع الاتحاد الاقتصادي الأوراســـي بقيادة روســـيا[4]، وتوسع التعاون العسكري الروســـي-الإيراني بشكل كبير منذ بداية الحرب الروســـية في أوكرانيا، وبدأ الإيرانيون في إرســـال مئات الطائرات الاســـتطلاعية والهجومية بعيدة المدى إلى روسيا في أغسطس 2022م، بعد أن اســـتنفد الروس إمداداتهم من الصواريخ، وسمحت هذه الطائرات لروسيا بالحفاظ علـــى الضغط على الدفاعـــات الجوية الأوكرانية وزيادته، حتـــى مع عملها على توســـيع إنتاج أنظمة الصواريخ الخاصة بها وتعديلها، كما ســـاعد الإيرانيون روسيا في بناء مصنع ضخم في تتارستان الروسية قادر على إنتاج الآلاف من هذه الطائرات دون طيار[5].

وتُشـــير التقارير إلى أن روســـيا زودت إيران ببرامج مراقبة متقدمة، وأموال ومســـاعدة فنيـــة لبرنامج إطلاق الصواريخ ومركبة الإطلاق الفضائيـــة الإيرانية. ويُعد برنامج إطلاق الصواريخ الفضائية مهمًا بالنسبة لإيران؛ لأنه يمكن أن يدعم تطوير الصواريخ الباليستية العابرة للقارات القادرة على حمل رؤوس نووية. وسلم الروس الإيرانيين طائرتين تدريبيتين قتاليتين من طراز ياك-130 في 02 سبتمبر 2023م، كما أشارت بعض التقارير إلى أن الروس كانوا يتقاسمون الأسلحة التي استولوا عليها من الولايات المتحدة وحِلف شمال الأطلسي مع إيران؛ من أجل إعادة تصنيعها وتطوير تدابيـــر مُضادة لها. وأكدت التقارير أن الإيرانيين طلبوا من روسيا المساعدة في الحصول على مواد نووية إضافية في تصنيع الوقود النووي[6].

وقد دفعهمـــا هذه التقارب المتنامي في اتجاه توقيع اتفاقية للتعاون الشـــامل، ففي 25 يونيو 2024م أكد نائب وزير الخارجية الروسي أندريه رودينكو أن بلاده تتوقع توقيع اتفاقية التعاون الشامل مع إيران في المستقبل القريب جدًا، وكان البلدان قد اتفقا في عام 2020م على العمل على اتفاقية جديدة تحل محل الوثيقة القديمة، حيث دعت اتفاقية عام 2001م

إلى التعاون في مجالات الأمن ومشـــاريع الطاقة بما يشـــمل الاســـتخدام السلمي للطاقة النووية، وبناء محطات الطاقة النووية، والصناعة والتكنولوجيا[7]. ويبدو أن وفاة رئيسي قد حالت دون توقيع هذا الاتفاق الاستراتيجي، وأرجأته حتى يأتي الرئيس الجديد.

وعلى الرغم من التفاهم الروســي-الإيراني تجاه العديد من الملفات الإقليمية، فإن ثمة تباين في الــرؤى بين الدولتين إزاء بعض القضايا الإقليمية، وعلى ســبيل المثال الموقف الروســي من احتلال إيران للجزر الإماراتية الثلاث، ففي يوليــو 2023م أكد وزير الخارجية الإيراني الســابق، حسين أمير عبد اللهيان أن بلاده لا تتســامح مع أي طرف آخر في قضايا تتعلق بسلامة الأراضي الإيرانية، لافتًا إلى أن طهران تلقت تفســيرات روســية لكنها غير كافية، وجاء ذلك بعد انتقادات إيرانية حادة لروســيا بسبب تأييدها طلبًا إماراتيًا لحل أزمة الجزر الثلاث عبر الحلول الســلمية[8]. فيمــا تتباين الرؤى الإيرانية والروســية في الملف السوري، بســبب العديد من العوامل ومن أبرزها: التنسيق الروسي مع الأطراف الإقليمية والدولية في ســوريا بمعزل عن إيران، ولاســيما تقارب المصالح التركية-الروسية في ظل تصادم الطموح الإيراني-التركي وانتماءاتهما المذهبية المختلفة، وأولوية الأمن الإسرائيلي في الأجندة الروسية، علاوةً على رغبة روسيا في الحَد من الميليشيات في سوريا، أما إيران مستمرة في تعزيز حضورها المسلح لفرض واقع مكافئ للوجود العسكري الروسي[9].

ثانيًا: توجهات السياسة الخارجية للرئيس بزشكيان

عندما توفي الرئيس الســابق إبراهيم رئيســي ووزير خارجيته حسين أمير عبد اللهيان في حادث تحطم مروحية في التاســع عشــر من مايو 2024م، لم يُظهِر النظام الإيراني خاصةً مكتب المرشــد الأعلى ومجلس صيانة الدســتور أي علامات على تغيير إستراتيجيته في «هندسة الانتخابات» للحفاظ على سيطرة «المحافظين» على السلطة التنفيذية. علاوةً على ذلك، أشاد المرشد الأعلى آية الله خامنئي علنًا بسياسات رئيسي، ودعا إلى استمرارها. مما جعل انتخاب مسعود بزشكيان مفاجأة لكثيرين.

لقد وعد بزشــكيان بإحياء العمليات الدبلوماســية مع الغرب، وإعــادة العمل بالاتفاق النووي، وقال: «ربما يمكن للمرء أن ينجو من العقوبات، ولكن لا يمكن للمرء أن يتقدم»، كما أكد الحاجة إلى تهدئة التوترات مع الغرب، وقال: «نسعى إلى علاقات جيدة مع أوروبا تقوم على الاحترام المُتبادل والمســاواة. كما أن الافتقار إلى العلاقات السياســية مع الولايات المتحدة لا ينبغي أن يؤدي إلى توترات وصراعات مكلفة»[10].

وقد عد كثير من المراقبين والمتابعين للشــأن الإيراني أن دعوة بزشــكيان خلال حملته الانتخابية إلى «الحوار والانفتاح على العالم الخارجي»، تُشــير إلى نهج «براجماتي» يُعيد التوازن بين تأثير البعدين «الأيدلوجي» و«البراجماتي» على السياســة الخارجية لإيران، ويدفع نحو رفع العقوبات الاقتصادية بما يُســهم في تخفيف حالة العُزلة والحصار، كخيار أنجــع لمعالجة القضايــا الداخلية، التي تشكل وقودًا دائمًا لإشــعال نيــران الاحتجاجات

الضاغطة على النظام الإيراني، إذ يُسهم الانفتاح على العالم الخارجي وفق رؤية الرئيس بزشكيان في خلق بيئة مواتية لتحسين الأوضاع المعيشية والاقتصادية المُتردية، وتعزيز النمو الاقتصادي، ووقف مسار الهجرة لإعادة بناء الدولة الإيرانية الجديدة[11].

وقد تضمنت كلمة بزشكيان أثناء مناظرته التلفزيونية الأولى في الجولة الثانية من الانتخابات الرئاسية بتاريخ 01 يوليو 2024م إشارات إلى ضرورة المساومة، والجلوس مع الخصوم لحل كل الخلافات العالقة، بقوله: «علينا أن نجلس ونساوم ونحل مشاكلنا مع العالم». وأوضح: «سياستي الخارجية هي من أجل الشعب وتحفيزه على البقاء والبناء والنمو الاقتصادي والتنمية». وحدد في مقالته المعنونة بـ «رسالتي إلى العالم الجديد»، بتاريخ 12 يوليو 2024م المصلحة كمبدأ أصيل ضمن المبادئ الحاكمة لسياساته الخارجية، بقوله: إن «السياسة الخارجية لحكومته تستند على مبادئ العزلة والحكمة والمصلحة». كما أن قُرب وزير الخارجية الأسبق محمد جواد ظريف، من الرئيس الجديد قبل الانتخابات وبعد استلامه السلطة، يحمل دلائل واقعية بالغة الأهمية على التوجهات البراجماتية للرئيس الجديد تجاه القضايا الخارجية، في سيناريو يحاكي توجهات روحاني-ظريف تجاه الغرب الأوروبي الأمريكي[12]. ومن ثم يمكن الإشارة إلى أهم ملامح توجهات السياسة الخارجية للرئيس بزشكيان على النحو الآتي:

1. العودة لفتح الحوار مع الولايات المتحدة والدول الغربية

تُشير تصريحات بزشكيان خلال حملته الانتخابية إلى توجه مختلف عن نهج رئيسي، بالعودة إلى الحوار مع الولايات المتحدة والدول الغربية، لكون مسار الانغلاق في تقديره، حال دون تحقيق الهدف الأسمى للمرشد، والمتمثل في تحويل إيران إلى المرتبة الأولى إقليميًا في كافة المجالات بحلول العام 2025م؛ لذلك يرى أن فلسفة السياسة القائمة على الدبلوماسية الاقتصادية لإفقاد ورقة العقوبات جدواها التي تبناها الرئيس الراحل رئيسي، لن تُفلح في التخفيف من وطأة العقوبات وتحسين الأحوال المعيشية، وتراجع معدلات الاحتجاجات الشعبية؛ لكونها تعمل على المدى البعيد، إنما الأزمات الإيرانية الراهنة تحتاج إلى حلول فورية وسريعة، ويتطلب ذلك بذل العودة لفتح الحوار مع الولايات المتحدة والدول الغربية، من أجل رفع العقوبات وتوفير عوائد مالية كبيرة تُسهم في تحسين المستويات الاقتصادية والمعيشية في البلاد. ويرى أن أولوية المفاوضات النووية مُلحة بهدف رفع العقوبات الضاغطة على الاقتصاد الإيراني، حيث إن العودة للاتفاق النووي لها مردود إيجابي كبير على إيران بوقف نزيف الخسائر الإيرانية اليومية بعدم القدرة على تعزيز صادرات النفط في ظل تزايد حالة الاحتقان الشعبي، لذلك وعد بزشكيان بمراجعة قانون الخطوة الإستراتيجية لإلغاء العقوبات الأمريكية لخفض الالتزامات النووية الذي أقره البرلمان في ديسمبر 2020م. كما عبّر الرئيس الإيراني عن رغبته في الدخول في حوار

بناء مع الدول الأوروبية لوضع العلاقات على المسار الصحيح استنادًا إلى مبادئ الاحترام المتبادل[13].

2. الحياد وعدم الانحياز تجاه الشرق والغرب

كشفت المناظرة الرئاسية التي جرت في الأول من يوليو 2024م لبزشكيان حول مزايا التحول في السياسة الخارجية الإيرانية نحو الشرق، عن توجه بزشكيان لتحقيق نوع من التوازن في العلاقات مع الشرق والغرب، واستشهد بزشكيان بشعار المرشد الأعلى السابق آية الله الخميني «لا شرق ولا غرب»، ودافع عن الاتفاق النووي، وخطة العمل الشاملة المشتركة، وسلّط الضوء على الحاجة إلى استعادة الحياد التقليدي لإيران وعدم الانحياز في الشؤون الخارجية، مما يؤدي إلى اتباع نهج مختلف عن سلفه الراحل إبراهيم رئيسي يُعيد إيران إلى الانخراط مع الغرب.[14] ولذلك على الرغم من توجه بزشكيان للانفتاح على الدول الغربية لكنه أكد في الوقت نفسه على ضرورة تعزيز العلاقات مع روسيا والصين، ولاسيما في سياق بناء عالم مُتعدد الأقطاب؛ لأن تعزيز العلاقات مع هذه الدول يُعزز القوة الإيرانية وشروطها التفاوضية، يقول: «الصين وروسيا دائمًا ما كانا يقفان بجانبنا في الأيام الصعبة ونحن نقدر هذه الصداقة»، مضيفًا: «روسيا حليف إستراتيجي ذو قيمة بالنسبة لإيران، وهي جارتنا، وستتعهد حكومتي بتوسيع وتعزيز التعاون معها وسأواصل إعطاء الأولوية للتعاون الثنائي والمتعدد الأطراف مع روسيا، وخاصة في أطر مثل مجموعة البريكس، ومنظمة شنغهاي للتعاون والاتحاد الاقتصادي الأوراسي»[15].

وفي الثاني عشر من يوليو 2024م حدد بزشكيان مبادئ سياسته الخارجية في مقال باللغة الإنجليزية نُشر في صحيفة «طهران تايمز»، أكد فيه أن إدارته «ستسعى إلى اتباع سياسة مدفوعة بالفرص» تهدف إلى «خلق التوازن في العلاقات مع جميع البلدان»، وأشار بزشكيان إلى روسيا باعتبارها «حليفًا استراتيجيًا قيمًا»، ودعا إلى «التعاون على نطاق أوسع» مع الصين. ومع ذلك، تظل نبرة بزشكيان تجاه الغرب مزيجًا مألوفًا من التحذيرات والمظالم التاريخية النموذجية لمسؤولي الجمهورية الإسلامية. وينقل المقال أن أي تحسن في العلاقات يجب أن يبدأ باتخاذ الغرب للخطوة الأولى. وهو ما وصفه بعض المراقبين بأنه بيان يُشير إلى الاستمرارية وليس التغيير، حيث يُشير بعض المراقبين إلى أن المبادئ التي ذكرها بزشكيان من إعطاء الأولوية للعلاقات مع الجيران إلى تعزيز الشراكات مع روسيا والصين، والمشاركة الفعّالة في منظمة شنغهاي للتعاون ومجموعة البريكس تعكس تلك التي سعت إليها إدارة رئيسي على مدى السنوات الثلاث الماضية. وعلى سبيل المثال، يصف حميد أبو طالبي، المستشار السياسي للرئيس السابق حسن روحاني، مقال بزشكيان بأنه «صورة مشوشة وغير محددة الأولويات وحالمة وغير متماسكة مع الكثير من العموميات». ويسأل بزشكيان: «إذا كانت الدول الأوروبية قد انتهكت جميع التزاماتها (كما تقول) لكنها تتوقع بشكل غير معقول من إيران الالتزام من جانب واحد

بجميع التزاماتها بموجب خطة العمل الشـــاملة المشـــتركة، فكيف تكون مستعدة لإجراء حوارات بناءة مع الدول الأوروبية؟». ومع ذلك، يرى الدبلوماســـي الإيراني الســـابق محمد كاظم سجادبور، أن الرسالة الرئيسية لمقال بزشكيان هي «التوازن والتوازن»، ويفترض أن السياسة الخارجية لبزشكيان ستكون «مزيجًا من الاستمرارية والتغيير»[16].

ثالثًا: محفزات التغيير في السياسة الإيرانية تجاه روسيا

تجد إيران نفسها في ظل رئاسة بزشكيان في مواجهة عوامل تدفعها في اتجاه تحقيق نوع من التوازن في سياستها تجاه الشـــرق والغرب، وعوامل أخرى تدفعها نحو الاستمرار ومواصلة سياســـة الرئيس الراحل، وتتمثل عوامل التغيير ودوافعه في سياسة طهران تجاه روسيا في العوامل الآتية:

1. الضغوط السياسية والاقتصادية الداخلية

يواجه الرئيس بزشـــكيان ضغوطًا داخليةً مُلحةً، وعلى رأســـها اقتصاد ضعيف، أضعفته سنوات من ســـوء الإدارة والعقوبات، وانقســـام اجتماعي عميق في أعقاب حملات القمع الوحشية للاحتجاجات الشعبية في عام 2022م. ويُشـــير مراقبون إلى أن المرشد الإيراني خامنئي ودائرته الداخلية، التي وافقت على قائمة المرشـــحين، يعترفون بأن الاضطرابات الأخيرة شوهت إلى حد كبير شرعية النخبة الحاكمة في إيران، وأن انتخاب بزشكيان يعكس الفشل الشامل لسياسات رئيسي «المتشددة» في تحقيق النجاح في التعامل مع القضايا الاقتصادية والاجتماعية الداخلية[17].

وقد أظهرت المشـــاركة الضعيفة نســـبيًا في الانتخابات الرئاسية مدى يأس الإيرانيين من النظام السياســـي، الذي يهيمن عليه «المحافظون» واقتناعهم بعجزه عن إيجاد حلول لمشاكلهم. وقد ســـبق ذلك العديد من الاحتجاجات التي أخذت منحًا تصاعديًا كمًا ونوعًا، وربما يكون هذا هو الذي دفع خامنئي إلى هندســـة الانتخابات بالطريقة التي جرت بها بحثًا عن مخـــرج للأزمة الداخلية. فمن المعلوم أن جذور الأزمـــة تكمن في العقوبات المصرفية والدولية، لذلك ثمة من يرى أن خامنئي قد يُفســـح المجال لبزشـــكيان لفتح قنوات الحوار مع الدول الغربية على أمل أن تفضي سياسته إلى رفع العقوبات لتجنب اندلاع احتجاجات جديدة[18].

وقد أشـــار بعض المراقبين إلى أن إســـتراتيجية «التوجه شـــرقًا» لم توفر سوى فرص اقتصادية محدودة لا تكفي لتعويض التأثير السلبي للعقوبات؛ فقد خضعت إيران لمجموعة واسعة من العقوبات بســـبب برنامجها النووي، ودعمها للإرهاب وسجلها في مجال حقوق الإنســـان، وعندما أعادت إدارة الرئيس الأمريكي الســـابق دونالد ترامب فرض العديد من العقوبات في عام 2018م انهار الاقتصاد الإيراني، وانخفضت صادراتها النفطية، وارتفعت معدلات التضخم لمؤشرات قياسية، حيث بلغ 40% في فبراير 2024م[19].

2. الجدل في الداخل الإيراني حول جدوى العلاقات مع روسيا

تُشير التقارير إلى وجود جدل متنامٍ داخل النخبة الإيرانية حول تطور العلاقات مع روسيا، حيث يوجد اتجاهان بشأن تطوير العلاقات، يدعو الاتجاه الأول الذي تمثله مؤسسة الحرس الثوري وقياداتها وبعض رموز النظام إلى دعم العلاقات مع روسيا، ويدعو الاتجاه الثاني، الذي يعبر عنه رموز التيار «المعتدل» مثل وزير الخارجية السابق، جواد ظريف إلى توخي الحذر إزاء الاصطفاف مع روسيا ومعاداة الدول الغربية.

ويُشير مراقبون إلى أن هناك سقف أقصى لشكل التعاون الإستراتيجي مع إيران يمكن أن تصل إليه سريعًا خلال هذه الفترة كرد فعل على الدعم الإيراني لها. ولا شك أن بلوغ السقف والتراجع عن تقديم المزيد لإيران في المستقبل، سوف يؤدي إلى ترجيح رؤية الاتجاه الثاني داخل النخبة الإيرانية التي تعاني من تخبط واضح تجاه ما يشهده المجتمع الإيراني من حراك غير مسبوق[20].

وكما يوضح انتخاب بزشكيان، فإن الشعب الإيراني يؤيد أيضًا الجهود الرامية إلى رفع العقوبات، ويلقي باللوم عليها في بعض التردي الاقتصادي الذي تعاني منه إيران؛ فقد زادت العقوبات الغربية من الحوافز التي تدفع إيران إلى التجارة مع روسيا والصين والاعتماد عليهما، وأضعفت العقوبات القطاع الخاص المستقل والطبقة المتوسطة، ومكنت النظام من مكافأة أنصاره بالوصول إلى العملات الأجنبية والفرص الاقتصادية، وبالتالي زيادة قوة النظام في مواجهة المجتمع[21].

ولكن الرئيس بزشكيان، على غرار «المعتدلين» في إيران، يُعارض اعتماد طهران الأحادي على روسيا، ويرى أن التعاون مع روسيا ليس بالأمر السهل، ويُشير إلى أن الإمكانات الكاملة لهذه العلاقات لن تتكشف إلا بعد رفع العقوبات وتأسيس سياسة متعددة الاتجاهات. ويدافع العديد من المنتمين للتيار «الإصلاحي» عن هذا التوجه، ويرون أن مساعدة موسكو في حربها ضد أوكرانيا لم تؤدِ إلا إلى زيادة أعباء العقوبات المفروضة على البلاد.[22]

3. الموقف الروسي الحذر تجاه الصراع في منطقة الشرق الأوسط

يبدو أن الموقف الروسي تجاه الصراع في منطقة الشرق الأوسط لم يُلبِ تطلعات قطاع كبير من النخبة الإيرانية الذين يرون أن موسكو ما تزال تحافظ على موقف حذر وتعاون محدود مع ايران تجاه الصراع في المنطقة، فمن الواضح أن العلاقات بين روسيا وإسرائيل ودول الخليج تفرض خيارات صعبة أمام روسيا تجاه إيران، حيث تسعى روسيا إلى تحييد الدور الإسرائيلي في الحرب الروسية – الأوكرانية، ومنع إسرائيل من تقديم الدعم العسكري لأوكرانيا في هذه الحرب، ويبدو أن إسرائيل تُدرك ذلك في مقابل تفاهمات روسية – إسرائيلية لتجنب المواجهة في سوريا والشرق الأوسط. ومن ثم يبدو أن موسكو تحاول قدر الإمكان الحفاظ على موقف «براجماتي» ومحايد تجاه الصراع الإيراني–الإسرائيلي

في منطقة الشـــرق الأوسط. وفي الوقت نفسه، لا ترغب موســـكو في أن تذهب بعيدًا في علاقاتها مع طهران بشكل يضر بعلاقتها مع الدول الخليجية.

وهناك من يرى أن موســـكو تبدو مســـتفيدة من التصعيد في منطقة الشرق الأوسط، لأن الدعم العسكري الأمريكي ســـوف يُركز على حماية أمن إسرائيل ويخفف من الضغط الأمريكي والغربي في ســـاحة الحرب الروسية-الأوكرانية، وربما أصبح الروس في غنى عن سلاح المســـيرات الإيرانية؛ لأنهم قاموا بتوطين هذه الصناعة، وعلى الرغم من الاتصالات السياسية الروسية مع حزب الله، والحوثيين، وحماس، التي تعود إلى سنوات عديدة، لكنها لم تسفر عن مســـاعدة أمنية من روســـيا لهذه الجهات الفاعلة، وإنما ضبط إيقاع الحرب والصراع في حدود المستوى الذي لا ترغب روسيا في تجاوزه[23].

وعلى الرغم من الدعم العســـكري الإيراني لروســـيا في حربها مع أوكرانيا، فإن روسيا لم تقدم للإيرانيين ما يطلبونه بشكل كاف من الدعم العســـكري، فهناك أشـــياء معينة أرادها الإيرانيون منـــذ فترة طويلة ولم يحصلـــوا عليها بعد، مثل الطلـــب الإيراني للحصول على طائرات سوخوي 35 المقاتلة. ويفسر مراقبون الرفض الروسي لمنح إيران أنظمة عسكرية معينة بعدم رغبة روســـيا في إثارة العداء، خاصة مع قوى خليجية مثل الرياض وأبو ظبي، حرصًا من موســـكو على مصالحها مع هذه الدول والتنســـيق في «أوبـــك+» في مواجهة الضغوط الأمريكية[24].

4. الرغبة الأوروبية في استمالة الرئيس «الإصلاحي» وخفض التوتر في الشرق الأوسط

يشـــير مراقبون إلى أن ثمة رغبة أوروبية في فك الارتباط بين النظامين الإيراني والروسي، علاوةً على مخاوف أوروبية من اتســـاع نطاق الحرب في الشرق الأوسط، إلى جانب القلق الأوروبي إزاء التعاون العســـكري بين إيران وروســـيا في المجال النـــووي، وبالتالي فإن فوز الرئيس «الإصلاحي» مســـعود بزشـــكيان في الانتخابات الإيرانية قد يُمثل فرصةً ملائمةً للعواصم الغربية لاســـتمالة الرئيس «الإصلاحي»، خاصةً في ظِل الإشـــارات والرســـائل الإيرانية التي بعث بهـــا الرئيس الإيراني ووزير خارجيته عبـــاس عراقجي، التي تؤكد رغبة طهران في العودة إلى المفاوضات حول برنامجها النووي، وبالتالي فإن الاستجابة الأوروبية لهذه الرســـائل الإيرانية قد يُعزز من الجهود الأوروبية لمنع المزيد من التصعيد العسكري في الشرق الأوســـط، وتحييد الدور الإيراني في الحرب الروســـية-الأوكرانية، وقد يشجع الأوروبيين على الضغط على إسرائيل لوقف إطلاق النار في غزة، ومنع اتساع نطاق الصراع إلى حرب إقليمية[25].

وبعد اغتيال إســـرائيل للأمين العام لحزب الله، حسن نصر الله، في 27 سبتمبر 2024م، وتكثيف الغارات الإسرائيلية على جنوب لبنان، أصدرت بعض الدول الغربية مثل الولايات المتحدة وفرنسا وحلفائها بيانًا مشتركًا في 25 سبتمبر 2024م يدعو إسرائيل وحزب الله إلى الموافقـــة على وقف إطلاق النار لمدة 21 يومًا، ويمكن خلالها إجراء مفاوضات بشـــأن حل

دبلوماسي للأزمة على الحدود الإسرائيلية-اللبنانية[26]. وعلى الرغم من الانتقادات التي وُجهت للساسة الغربيين في دعمهم إسرائيل، فإن بعض القادة الغربيين، مثل الرئيس الفرنسي إيمانويل ماكرون، قد دعا إلى حظر تقديم السلاح لإسرائيل، وهو ما أثار موجة غضب كبيرة داخل الحكومة الإسرائيلية[27].

رابعًا: عوامل الاستمرارية في السياسة الإيرانية تجاه روسيا

على الرغم من مُحفزات التغيير التي تدفع بزشكيان نحو تبني سياسة مختلفة عن سلفه، تجاه العلاقات مع روسيا والدول الغربية، فإن ثمة كوابح وتحديات تواجه سياسة الرئيس بزشكيان، ويمكن تناولها على النحو الآتي:

1. تصاعد التوترات الأمريكية-الإيرانية في منطقة الشرق الأوسط

يُسيطر على منطقة الشرق الأوسط حالة من التوتر، وعدم الاستقرار وترقب لضربة عسكرية إسرائيلية، ردًا على الضربة العسكرية الإيرانية التي استهدفت مواقع وقواعد عسكرية في إسرائيل في الأول من أكتوبر 2024م، التي جاءت ردًا على قيام إسرائيل باغتيال رئيس المكتب السياسي لحركة حماس إسماعيل هنية، في 31 يوليو الماضي، ثم اغتيال إسرائيل للأمين العام لحزب الله، حسن نصر الله في 27 سبتمبر 2024م.

وقد دفعت هذه الضربة الإيرانية بمزيد من التصعيد العسكري بين إيران وإسرائيل، حيث أكدت تل أبيب على حقها في الرد، وتدرس إسرائيل خياراتها لتوجيه ضربة قوية لإيران. وفي هذا السياق توقع العديد من المراقبين أن توجه تل أبيب ضربةً عسكريةً للمفاعل النووي، أومنصات ومنابع النفط الإيرانية ومقر المرشد الإيراني، وهو ما يُتوقع حال حدوثه دخول المنطقة في حلقة مفرغة من العنف والهجمات العسكرية والهجمات المضادة بين إيران وإسرائيل، وليس من المستبعد أن يؤدي المزيد من التصعيد بين القوتين إلى تدخل عسكري أمريكي لحماية إسرائيل وأمنها، وقد اتجهت الولايات المتحدة بالفعل إلى حشد قواتها في المنطقة تحسبًا للضربة العسكرية المحتملة، وهو ما يزيد من مناخ التوتر بين إيران والولايات المتحدة وزيادة احتمالات التصعيد بين إسرائيل وايران، علاوةً على الضربات العسكرية الإسرائيلية المستمرة لمواقع حزب الله واستهداف قياداته، واستمرار الهجمات العسكرية بين «الحوثيين» والولايات المتحدة في منطقة البحر الأحمر، وهو ما يتوقع معه زيادة التوترات بين إيران والولايات المتحدة الأمريكية، وتقليص فرص العودة إلى الحوار بين الجانبين.

وقد حدد الرئيس الإيراني بزشكيان بالفعل بعض أولوياته الإقليمية في «دعم المقاومة المتجذرة في جوهر سياسة إيران»، وشكر «جماعة أنصار الله الحوثية» على دعمهم للشعب الفلسطيني، وأشاد بهجماتهم على خطوط الشحن الدولية في البحر الأحمر باعتبارها قرارًا شجاعًا، ومن ثم فإن اتصالات بزشكيان مع محور المقاومة الإيراني لا تؤكد فقط على مركزية هذه الجماعات في جهود طهران لمواجهة إسرائيل، خاصة مع استعداد

الجيش الإسرائيلي لهجوم محتمل على لبنان، بل تشير أيضًا إلى استمرار السياسة الإقليمية التي تنتهجها إيران منذ فترة طويلة.[28]

ويرى مراقبون أن التصعيد في منطقة الشـــرق الأوســـط يأتي نتيجـــة انخراط إيران في الحرب الروســـية-الأوكرانية، وأن إيـــران تواجه تحدي انتقال المواجهات مع روســـيا إلى أراضيها بهدف إثنائها عن دعم الأخيرة، أو على الأقل رفع كلفة هذا الدعم. وقد تعرض مركز تصنيع للذخائر في مدينة أصفهان الإيرانية لهجوم عســـكري في 29 يناير 2023م بواسطة ثلاث مســـيرات، ودشـــن بداية مرحلة جديدة من المواجهات مع إيران، فعلى الرغم من أن الهجوم لم يكن الأول من نوعه على منشـــأة اســـتراتيجية في إيران، إلا أن التصريحات التي صدرت عن ميخايلو بودولاك مستشار الرئيس الأوكراني بأن «منطق الحرب مقيت ويجعل المرتكبين والمتواطئين يدفعون الثمن»، قد دفعت إيران للشـــك في اشتراك أوكرانيا مع إسرائيل التي اتهمتها إيران فور وقوع التفجير بتنفيذه[29].

2. الرهان الإيراني على الدور الروسي في سوريا

على الرغم من الدعم الروســـي المحدود للموقف الإيراني في الصراع بين إيران وإســـرائيل في منطقة الشـــرق الأوسط، إلا أنه يبدو أن طهران لا تزال تعول على دور روسيا في الحفاظ على المعادلة الحالية داخل ســـوريا بما يخدم مصالح إيران، وثمة تداعيات خطيرة يمكن أن تتعرض لها روسيا في حال خروجها مهزومة من الحرب في أوكرانيا أو على الأقل إنهاكها في حرب طويلة لم تكن مُســـتعدة لها، بشكل سوف يؤثر حتمًا على تواجدها القوي في الداخل السوري، الأمر الذي ســـيُعرضها للانكشاف أمام المعارضة الســـورية المسلحة، وبالتالي تسعى طهران إلى تجنب تحمل تكلفة هزيمة روســـيا في الحرب، وبالتالي تلافي تداعيات هذه الهزيمة على مصالحها في سوريا[30].

أما روسيا فلا تزال تعول على الدعم العسكري الإيراني في الحرب الروسية ضد أوكرانيا، وقد زار ســـكرتير مجلس الأمن القومي الروسي، سيرجي شـــويغو، طهران ووصف اغتيال هنية بأنه «مأســـاوي وأمر من المســـتحيل تجاوزه» في المحادثات مع الحكومة الإيرانية. وقال نائب وزير الخارجية الروســـي ميخائيل بوغدانوف في تصريح منفصل: إن موســـكو «تدعـــو الجميع إلى الامتناع عن تصعيد الوضع حتـــى لا يتحول إلى كارثة لجميع اللاعبين الإقليميين»[31]. وأعربت موسكو عن اســـتيائها من اغتيال إسرائيل لحسن نصر الله، حيث أكد مندوب روســـيا الدائم لدى الأمم المتحدة فاســـيلي نيبينزيا أن إسرائيل بقتلها لحسن نصر الله، تعمدت تصعيد النزاع، وتتحمل المسؤولية الكاملة عن التصعيد[32].

وقد تعزز التطورات الأخيرة على صعيد الحرب الروســـية-الأوكرانية من توجه البلدين للإبقاء على مستوى التعاون بينهما، خاصةً بعد توغل أوكرانيا في منطقة كورسك الروسية الذي نفذته في الســـادس من أغســـطس 2024م الذي يعد أهم تطـــور على الإطلاق منذ الاجتياح الروسي لأوكرانيا في فبراير 2022م، حيث تمكنت أوكرانيا وللمرة الأولى منذ اندلاع

الحرب من قلب معادلة التوازن لصالحها على الأرض باختراق العمق الروسي لأكثر من ألف كيلومتر، وهو ما يدفع الجانب الروسي إلى مزيد من التصعيد لطرد القوات الأوكرانية من كورسك، والحصول على الدعم العسكري من القوى الصديقة مثل إيران، في مقابل الدعم العسكري المتزايد والمقدم لأوكرانيا[33].

3. توجهات المرشحين «الديمقراطيين» و«الجمهوريين» في الانتخابات الأمريكية

يرى مراقبون أن خيارات السياسة الإيرانية تجاه تعزيز العلاقات مع واشنطن سوف تكون أكثر صعوبةً إذا فاز دونالد ترامب في الانتخابات الرئاسية الأمريكية، وأعاد إحياء سياسات «الضغط الأقصى» على إيران[34]. ومن ثم فإن فوز ترامب في هذه الانتخابات سوف يحد من فرص إحياء خطة العمل الشاملة المشتركة حال وصوله إلى البيت الأبيض مرة أخرى، وربما تطالب إدارة ترامب في حال رغبتها الإبقاء على الاتفاق النووي مع إيران إدراج بعض الملفات الأخرى، مثل نفوذ إيران الإقليمي الأمر الذي تعده طهران أحد الخطوط الحمراء التي لا يمكن أن تسمح بتجاوزها[35].

أما بالنسبة لكامالا هاريس، فإن الظروف المرتبطة بالاتفاق النووي لعام 2015م قد تغيرت، فإيران لديها قدرات إضافية لم تكن لديها في 2015م، مثل قدرتها على تخصيب اليورانيوم، وإنتاج قنبلة نووية في مدى قصير؛ لذلك فإن العودة إلى اتفاق 2015م غير واردة[36]. ويُشير مراقبون إلى أن سياسة هاريس ستتشابه إلى حدٍ كبير مع الإدارات الديمقراطية السابقة، وأن بايدن بذل جهودًا لاعتماد الدبلوماسية لكنها لم تسفر عن أي اتفاق، ولم يكن بايدن يسعى إلى زيادة الضغط على إيران، ولكن واشنطن ردت عندما ضربت طهران قواتها، وأيضًا حين هددت إسرائيل، وعلى هذا الأساس يتوقع موقفًا مماثلًا من إدارة ديمقراطية أخرى في المستقبل. كما أن التطورات في منطقة الشرق الأوسط، والتي تعد إيران جزءًا منها، ستجعل هاريس غير مُستعدة للانخراط في أي نوع من المفاوضات الدبلوماسية النووية مع الإيرانيين حال فوزها بمنصب الرئاسة[37].

4. ضغوط الحرس الثوري والتيار «المتشدد» في إيران

يتفق العديد من المراقبين على أن قدرة الرئيس الإيراني مسعود بزشكيان على إحداث تغيير في السياسة الخارجية محدودة، خاصةً تجاه روسيا، ولاسيما في ظل قبضة «المتشددين» على السلطة داخل البلاد، لذلك يواجه بزشكيان مهمة صعبة، وربما مستحيلة، في حشد الدعم من المرشد الإيراني، الذي يتخذ القرار النهائي في أغلب مسائل الأمن القومي. وفي السنوات الأخيرة، كانت قرارات خامنئي بشأن هذه الملفات خاضعة إلى حد كبير لتوجيهات الحرس الثوري والفصائل السياسية الأكثر تشددًا في إيران[38].

ويمنح النظام الإيراني المرشد الأعلى صلاحيات واسعة، وهذا ينطبق بشكل خاص على السياسة الخارجية. فالصلاحيات الرسمية للرئيس تقتصر إلى حد كبير على السياسة الداخلية، مع احتفاظ المرشد بالسيطرة على القرارات الرئيسية المتعلقة بالسياسة

الخارجية. وتُشـــير المواجهات التي جرت في إبريل 2024م مع إسرائيل، والتي كانت المرة الأولى تهاجم فيها الدولتان بعضهما بشكل مباشـــر وعلني، على الرغم من العداء المستمر منذ 35 عامًا، إلى أن النظام الإيراني أصبح أكثر ميلًا إلى المواجهة أكثر من أي وقت مضى[39].

لذلك، فإن توقع تغيير كبير أو جوهري في السياســـة الخارجية لإدارة بزشـــكيان أمر غير واقعي ما لم تُظهِر المراكز غير المنتخبة القوية في إيران اســـتعدادًا للتغيير، وهو أمر غائب أو غير واضح حاليًا. ويسمح هيكل وتدفق الســـلطة داخل إيران للمؤسسات غير المنتخبة بتعطيل الخطط وإحباطها التي تضعهـــا الهيئات المنتخبة مثل الحكومة ومجلس الوزراء، لكن الأخير لا يستطيع أن يفعل الشيء نفســـه، خاصةً في مجال السياسة الخارجية، وقد يكون بزشـــكيان ووزير خارجيته عباس عراقجي قادرين على الاضطلاع بوظيفة دبلوماسية رســـمية من حيث التفاعلات بين الحكومات. ومع ذلك، فإن هؤلاء لن يقودوا السياســـة أو يكونوا منفذيها الوحيدين، إذ ستظل قوة القدس التابعة للحرس الثوري الإيراني تلعب دورًا حاسمًا على الأرض في تنفيذ السياسة الخارجية.[40]

خامسًا: المسارات المستقبلية للعلاقات الإيرانية-الروسية

يأتي تولي مســـعود بزشـــكيان رئاســـة إيران في خضم تحولات تشـــهدها البيئة الدولية والإقليمية، فعلى الصعيد الدولي، يترقب العالم نتائج السباق الرئاسي بين ترامب وهاريس، فيما يستمر تصاعد الحرب الروسية-الأوكرانية وتداعياتها على تحركات روسيا الخارجية، وتشهد البيئة الإقليمية تصاعد التوتر بين إســـرائيل وإيران وحزب الله اللبناني بعد عملية اغتيال إسرائيل لرئيس المكتب السياسي لحركة حماس، إسماعيل هنية، واغتيال إسرائيل القيادي في حزب الله فؤاد شكر، ثم اغتيال إســـرائيل للأمين العام لحزب الله، حسن نصر الله، وضغوط الحرس الثوري الإيراني والمرشد الإيراني برد إيراني قوي على إسرائيل، وهو ما دفع الولايات المتحدة إلى حشـــد قواتها في المنطقة تحسبًا للرد على هجوم إيراني مُحتمل ضد إسرائيل. فيما يواجه الرئيس الإيراني العديد من التحديات الداخلية التي تفرض عليه ضرورة التعامل معها بحذر، خاصةً الوضع الاقتصادي المتدهور بســـبب العقوبات الغربية على إيران، وحالة الانقسام والخلاف حول توجيه ضربة عسكرية قوية لإسرائيل. وفي هذا الســـياق الدولي والإقليمي والإيراني يمكن توقع ثلاثة ســـيناريوهات مستقبلية للعلاقات الإيرانية-الروسية، وذلك على النحو الآتي:

السيناريو الأول: التحالف الإستراتيجي

يتوقع هذا السيناريو أن إدارة الرئيس بزشكيان سوف تعمل على تعزيز العلاقات مع موسكو والارتقاء بها إلى مســـتوى التحالف الإســـتراتيجي، من خلال توقيع المزيد من الاتفاقيات الأمنية والدفاعية التي تضمن دعم كل طرف منهما للآخر سياسيًا وعسكريًا، حيث تستمر طهران في تقديم الدعم العسكري لموسكو في الحرب ضد أوكرانيا، في حين تقدم موسكو لطهران الدعم السياسي في منطقة الشرق الأوسط، كما تقدم موسكو السلاح الذي تطلبه

طهران بدون قيد أو شـــرط. ويفترض هذا السيناريو أن التوتر الإقليمي بين إيران وإسرائيل والولايات المتحدة من جانب، واســـتمرار تصاعد الحرب الروسية-الأوكرانية، يوفر فرص ملائمة لدفع البلدين لهذا الخيار، والمُضي قدمًا في سياســـة التوجه شـــرقًا ويعزز من ذلك إعلان بزشكيان أن روســـيا وإيران ســـتوقعان اتفاقية شراكة إســـتراتيجية شاملة في قمة البريكس في أكتوبر 2024م.[41]

ويبدو هذا السيناريو مستبعدًا لعِدة أسباب، وأهمها تردد إدارة بزشكيان في التوقيع على الاتفاق الإستراتيجي مع روســـيا، الذي تأخر التوقيع عليه بسبب رغبة الرئيس الإيراني في مراجعة وإعادة النظر في الاتفاق[42]، وهذا يعني أن طهران بصدد مراجعة علاقاتها مع روسيا، ناهيك عن وجود خلافات بين النخبة السياسية الإيرانية حيال العلاقات مع روسيا.

ويشير مراقبون إلى أن هناك عوامل عديدة تجعل من الصعب على إيران وروسيا الدخول في تحالف إســـتراتيجي على غِرار التحالف بين روســـيا وبيلاروســـيا، ومن أبرزها اختلاف أولويات كل طرف، حيث تعد الحرب الروسية-الأوكرانية أولوية بالنسبة لروسيا، أما إيران تنظر إلى الصراع في منطقة الشـــرق الأوســـط كأولوية، ناهيك عن ضعف مستوى الثقة التاريخية بين البلدين، حيث يســـتخدم كل طرف الآخر كورقة مساومة وضغط مع الدول الغربية، وقد سعت موســـكو دائمًا إلى تعطيل التوصل إلى اتفاق بين إيران والدول الغربية حول البرنامج النووي الإيراني.

وثمة ما يُشـــير إلى وجود تفاهمات ضمنية بين الدول الأوروبية وإيران على عدم تزويد موسكو بصواريخ باليســـتية، وفي المقابل، لاتزال روســـيا تتردد في تزويد طهران ببعض الأســـلحة والنظم الدفاعية كنظام إس-300، وذلك لعدم إثارة العداء مع إسرائيل وخصوم طهران في منطقة الشـــرق الأوســـط، بما في ذلك بعض الدول الخليجيـــة. وجدير بالذكر الإشـــارة إلى الخلافات العميقة تجاه تحركات البلدين في منطقة القوقاز، لا سيما مساعي روســـيا مؤخرًا في التقارب مع أذربيجان ودعم مشروع إنشـــاء «ممر زنغزور» والضرر الذي تنظر إليها إيران من جراء هذه التحركات الروسية على مصالحها الحيوية في هذه المنطقة، علاوةً على تلكؤ الروس في مجال اســـتكمال محطة بوشـــهر للطاقة النوويـــة، إذ لم تُحل الخلافات بين موســـكو وطهران بالكامل، ويكفي أن نتذكر كيف تغض موسكو الطرف عن الهجمات الإســـرائيلية ضد القوات الإيرانية في ســـوريا، أو منع إيران المقاتلين الروس من استخدام قواعدها العسكرية بسوريا[43].

السيناريو الثاني: التحالف التكتيكي

يتوقع هذا السيناريو أن البلدين سوف يحافظان على نوع من التحالف السياسي والعسكري المؤقت، الـــذي يرتبط بالضرورة التـــي تفرضها الحرب الروســـية-الأوكرانية والعقوبات الغربية بالنسبة لموسكو، والضرورة التي تُمليها التوترات مع الدول الغربية بسبب البرنامج النووي والعقوبات الغربية والتصعيد الإســـرائيلي في منطقة الشـــرق الأوســـط بالنسبة

لطهران، وبالتالي فإن البلدين سـوف يعملان على دعم كل منهما للآخر بشكل مؤقت، وفي نطاق جغرافي محدد، وسقف أقصى وتعاون عسكري محدود، ومن ثم فهو تحالف تكتيكي في مواجهـة الضغوط الأمريكية، لذلك قـد يزول هذا التحالف في حال توصل موسـكو لصفقة مع الدول الغربيـة لإنهاء الحرب في أوكرانيا، أو توصـل طهران لصفقة مع الدول الغربية حول برنامجها النووي.

ويفترض هذا السـيناريو أن روسـيا وإيران قد وصلتا إلى السقف الذي لا يمكن تجاوزه في تقديم كل منهما الدعم للآخر، وأن هذا السـقف لم يعد يحقـق للطرفين أو أحدهما أي مكاسب إسـتراتيجية مثلما تقدمه الصفقة المتوقعة مع أطراف أخرى، ويمكن أن يحدث ذلـك في حال توصلت الـدول الغربية إلى صفقة مع بوتين لإنهاء الحـرب في أوكرانيا، أو التوصل لصفقة مع النظام الإيراني لتحييد الدعم العسكري الإيراني لروسيا في أوكرانيا.

ويبدو هذا السـيناريو مُرجحًا في ظل استمرار الحرب الروسـية في أوكرانيا، وضعف مؤشـرات التقارب الأمريكي-الإيراني، مع عدم تقديـم الديمقراطيون وعود أو مقترحات محددة بخفض التوترات مع إيـران حول برنامجها النووي، ناهيك عن اسـتمرار التوترات بين إسرائيل وإيران ومحور المقاومة، على من محاولات التهدئة والتوصل إلى اتفاق لوقف إطلاق النار في غزة، وتمسك طهران وحزب الله بضرورة تنفيذ ضربة عسكرية ضد إسرائيل، ردًا على اغتيالها للقيادي في حزب الله فؤاد شـكر، ورئيس مكتب حركة حماس إسـماعيل هنية.

السيناريو الثالث: التعاون البراجماتي

يتوقع هذا السـيناريو أن يحافظ البلدان على التعاون السياسي، مع الالتزام بالحياد وعدم التدخـل لدعم كل منهما للآخر، ويعني هذا أن إيران سـوف تُحافظ على عدم التدخل لدعم روسـيا في الحرب ضد أوكرانيا، في مقابل عدم تدخل موسـكو لدعم طهران في سوريا، أو حربها ضد إسـرائيل، أو الموافقة على صفقات سلاح من شـأنها أن تثير غضب إسـرائيل وخصوم طهران في منطقة الشرق الأوسط.

ويتفق هذا السيناريو مع رؤية الرئيس «الإصلاحي» مسعود بزشكيان، الذي يدعو إلى الحفاظ على نوع من التوازن تجاه العلاقات مع الشـرق والغرب، حيث تتجه إيران للحفاظ على علاقاتها مع روسيا وتحافظ على علاقات هادئة و «براجماتية» معها، في الوقت الذي تتجه فيه طهران إلى تعزيز التقارب مع واشنطن وإحياء المفاوضات حول البرنامج النووي الإيراني.

ويفترض هذا السـيناريو مرونة المرشـد الأعلى تجاه التوجهـات الخارجية للرئيس بزشكيان من أجل رفع العقوبات واحتواء التوترات الداخلية، وفتح قنوات الاتصال مع الدول الغربية لإحياء الاتفاق النووي، كما يفترض هذا السيناريو أن الإدارة الأمريكية الجديدة قد تجد أنه من المناسـب فتح الحوار مع طهران لاحتواء التوتـرات المتنامية في المنطقة[44]،

وإحياء خطة العمل الشـــاملة المشتركة النووية، وهو أمر لا يستطيع بزشكيان أن يبادر إليه دون موافقة خامنئي والحرس الثوري الإيراني[45].

وخلاصـــة القول، يبدو أن مســـتقبل العلاقات الإيرانية-الروســـية ســـوف يكون بين السيناريوهين الثاني والثالث، أي ما بين التحالف التكتيكي لمواجهة الضغوط الأمريكية، والتقارب «البراجماتي» الذي يضمن نوع من التوازن لإيران في علاقاتها مع الشـــرق بشكل لا يؤثر على علاقاتها مع الدول الغربية، كما يضمن لروسيا حرية الحركة في منطقة الشرق الأوسط، وتحقيق نوع من التوازن في العلاقات بين إيران وإسرائيل والدول الخليجية.

خاتمة

يمكن القول، إن العلاقات الإيرانية-الروســـية في عهد الرئيس الســـابق إبراهيم رئيســـي ظلـــت في نطاق التحالف التكتيكي وليس التحالف الإســـتراتيجي، ولا يُتوقع لها أن تتطور في عهد الرئيس مسعود بزشـــكيان إلى مستوى التحالف الإســـتراتيجي، فعلى الرغم من تطورها فهي لا تخلو من خلافات سياسية، ومن ثم لا يمكن وصفها بالتحالف الإستراتيجي، على غرار العلاقات بين روســـيا وبيلاروسيا على ســـبيل المثال، ومن المرجح أن تظل هذه العلاقات بين ســـيناريوهات «التحالف التكتيكي» و«التعـــاون البراجماتي»، الذي تُمليه المصلحة والســـياق الدولي والإقليمي، حيث تدفع الحرب الروسية-الأوكرانية والتصعيد في منطقة الشرق الأوسط هذه العلاقات في مسار التعاون «البراجماتي» وليس التحالف الإستراتيجي، فبينما تحافظ روسيا على علاقات استراتيجية مع إيران دون أن تصطف معها في مواجهة إســـرائيل أو دول الخليج، تســـعى إيران للتوصل إلى صفقة مع الدول الغربية لرفع العقوبات. ومن ثم يبقى مســـتقبل هذا التعاون محـــدودًا في نطاق لا يتعدى التحالف التكتيكي والتعاون «البراجماتي»، وسيعتمد ترجيح الطرفين لمسار العلاقات بينهما على مدى التطورات والمتغيرات على ساحة الحرب في أوكرانيا ومنطقة الشرق الأوسط، وحدود الانخراط الأمريكي وتوجهات الإدارة الأمريكية القادمة إزاء روسيا وإيران، فقد تستمر الإدارة الأمريكية في عزل الدولتين، أو تتجه نحو فتح الحـــوار مع إيران، بالإضافة إلى مدى مرونة المرشد، وحدود الضغوط التي سيمارسها الحرس والتيار المحافظ على الرئيس بزشكيان.

المصادر والمراجع

(1) Hamidreza Azizi, Iran's Policy, and its Relations with China and Russia, Issue Brief, (September 2023), accessed: October 1, 2024, https://n9.cl/bh1z6

(2) Idem.

(3) Nikolay Kozhanov, Iran's election may change the direction of its relations with Russia, (28 June 2024), accessed: October 1, 2024, https//:n.9cl/rqw7v

(4) Daniel Byman, Can Iran's New President Change the Regime's Confrontational Foreign Policy?, (9/11/2024), accessed: October 1, 2024, https://n9.cl/csm1f

(5) Frederick W. Kagan (et al), Why You Can't be an Iran Hawk and a Russia Dove, (18/4/2024), accessed: October 1, 2024, https://n9.cl/s7kre

(6) Idem.

(7) صحيفة الشرق الأوسط، "روسيا تتوقع اتفاقية تعاون شامل جديدة مع إيران قريباً جداً"، (2024/6/25م)، تاريخ الاطلاع: 1 أكتوبر 2024م، https://n9.cl/qrpft

(8) صحيفة الشرق الأوسط، "عبد اللهيان: لا نتسامح مع تدخل روسيا أو طرف آخر في سلامة أراضينا"، (2023/7/17م)، تاريخ الاطلاع: 1 أكتوبر 2024م، https://n9.cl/empa1

(9) أحمد بن ضيف الله القرني، "آفاق التخادم الإستراتيجي الروسي-الإيراني في سوريا"، (2020/6/18م)، تاريخ الاطلاع: 1 أكتوبر 2024م، https://n9.cl/s2od5

(10) Hamidreza Azizi, Can Pezeshkian fix Iran's relations with the West?,17/7/2024, accessed: October 1, 2024, https://n9.cl/721p7

(11) عبد الرؤوف مصطفى، يحي بوزيدي، "التغيير والاستمرارية في السياسة الإيرانية في عهد الرئيس بزشكيان"، (الرياض: المعهد الدولي للدراسات الإيرانية، 2024م)، ص 4، 5.

(12) المرجع السابق، ص 5، 6.

(13) المرجع السابق، ص 10، 11.

(14) Samuel Ramani, Neither East nor West: Pezeshkian's Challenge to Redefine Iran's Global Stance, (July 11, 2024), accessed: October 1, 2024, https://n9.cl/ylixd

(15) عبد الرؤوف مصطفى ويحي بوزيدي، مرجع سابق، ص 13.

(16) Hamidreza Azizi , Can Pezeshkian fix Iran's relations with the West?, Ibid.

(17) Ellie Geranmayeh, Managed reform: What Iran's new president means for European diplomacy?, (10/7/2024), accessed: October 1, 2024, https://n9.cl/4dom0

(18) عبد الرؤوف مصطفى ويحي بوزيدي، مرجع سابق، ص 14.

(19) Daniel Byman, Can Iran's New President Change the Regime's Confrontational Foreign Policy?, Ibid.

(20) رانيا مكرم، "محفزات وكوابح استمرار إيران في دعم روسيا في الحرب على أوكرانيا"، مركز الاهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية، فبراير 2023م، ص 55.

(21) Daniel Byman, Can Iran's New President Change the Regime's Confrontational Foreign Policy?, Ibid.

(22) Iran's election may change the direction of its relations with Russia, Ibid.

(23) Center for Strategic & International Studies: Understanding the Growing Collaboration Between Russia and Iran, (June 12, 2024), accessed: October 1, 2024, https://n9.cl/toohd

(24) Idem.

(25)Ellie Geranmayeh, Managed reform: What Iran's new president means for European diplomacy?, Ibid.

(26) المعهد الدولي للدراسات الإيرانية، "الغارات الإسرائيلية على حزب الله.. الاتجاهات والمآلات"، (2024/10/7م)، تاريخ الاطلاع: 1 أكتوبر 2024م، https://n9.cl/uohy82

(27) صحيفة الشرق الأوسط، ماذا وراء الخلاف الحاد بين نتنياهو وماكرون؟، (2024/10/6م)، تاريخ الاطلاع: 1 أكتوبر 2024م، https://n9.cl/bih9nc

(28) Mohammed A. Salih, Pezeshkian and Iran's Regional Policy: Continuity and Grappling with Structural Constraints, (July 2024), accessed: October 1, 2024, https://n9.cl/bowpb

(29) رانيا مكرم، محفزات وكوابح استمرار إيران في دعم روسيا، مرجع سابق، ص 55.

(30) المرجع السابق.

(31) Jon Gambrell, High-wire diplomacy on possible Iran retaliation in the Israel-Hamas war draws in world, (14/8/2024) , accessed: October 1, 2024, https://n9.cl/s0921

(32) قناة روسيا اليوم، "روسيا: إسرائيل بقتلها نصر الله تعمدت تصعيد النزاع"، (2/10/2024م)، تاريخ الاطلاع: 1 أكتوبر 2024م، https://cl.n9/mpu1n7

(33) دانة العنزي، "التوغل الأوكراني في كورسك: الدلالات والتبعات، (27/8/2024م)، تاريخ الاطلاع: 1 أكتوبر 2024م، https://cl.n9/2njtq

(34) Ellie Geranmayeh, Managed reform: What Iran's new president means for European diplomacy?, Ibid.

(35) ميرفت زكريا، مستقبل العلاقات الأمريكية-الإيرانية حال فوز ترامب في الانتخابات الرئاسية القادمة، (7/4/2024م)، تاريخ الاطلاع: 1 أكتوبر 2024م، https://cl.n9/yfbhz

(36) المجلة، روبرت فورد، إيران ضعيفة... ونقطة خلاف أساسية بين هاريس وترمب، (26/8/2024م)، تاريخ الاطلاع: 1 أكتوبر 2024م، https://cl.n9/sywm8

(37) صحيفة الشرق الوسط، "التفاوض أو الردع؟...إيران بين هاريس وترمب"، (30/8/2024م)، تاريخ الاطلاع: 1 أكتوبر 2024م، https://cl.n9/yvb6o

(38) Ellie Geranmayeh, Managed reform: What Iran's new president means for European diplomacy?, Ibid.

(39) Daniel Byman, Can Iran's New President Change the Regime's Confrontational Foreign Policy?, Ibid.

(40) Mohammed A. Salih, Pezeshkian and Iran's Regional Policy, Ibid.

(41) Samuel Ramani, Ibid.

(42) مركز التقدم للسياسات، "لماذا يتأخر إبرام الاتفاق الاستراتيجي بين روسيا وإيران؟"، (21/8/2024م)، تاريخ الاطلاع: 1 أكتوبر 2024م، https://cl.n9/l6mh99

(43) مسعود الزاهد، "مستقبل العلاقات بين موسكو وطهران.. بظل رئيس إصلاحي بإيران"، (12/7/2024م)، تاريخ الاطلاع: 1 أكتوبر 2024م، https://cl.n9/q9bnm

(44) Daniel Byman, Can Iran's New President Change the Regime's Confrontational Foreign Policy?, Ibid.

(45) Mohammed A. Salih: Pezeshkian and Iran's Regional Policy, Ibid.

العلاقات الروسية بجماعة الحوثي في إطار الصراع الجيوسياسي مع الغرب

د. يوســـف مرعـــي

باحث دكتوراه في العلاقات الدولية والسياسة الدولية
بجامعة بطرسبورغ الحكومية في روسيا

مستخلص:

في مطلع العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، بدا أن روسيا تخلت عن الدعم التقليدي الذي كان يقدمه الاتحاد السوفيتي لأصدقائها الفلسطينيين واللبنانيين والسوريين واليمنيين؛ ففي عهد يلتسين وبوتين -إلى حد ما- كان المسار الروسي في الشرق الأوسط مؤيدًا لإسرائيل، أما الآن فيظهر أن روسيا تدعم مرة أخرى أعداء إسرائيل، وكانت نقطة التحول في عام 7002م، في مؤتمر ميونيخ للأمن، عندما أعلن بوتين بوضوح ولأول مرة أن روسيا ليست مستعدة للاكتفاء بدور دولة هامشية، أو حتى قوة عظمى إقليمية، ولا شك أن السابع من أكتوبر 3202م، وما تبعه من تداعيات إقليمية فتح الباب أمام كثير من الأسئلة عن طبيعة الدور الروسي في المنطقة، وكيف عملت موسكو على توظيف هذه الأحداث لصالحها؟ فبالنسبة لبوتين كانت هذه فرصة سانحة ليقول مرة أخرى إن الإستراتيجية الأمريكية طويلة المدى في المنطقة كانت فاشلة، كما أثارت هذه التطورات الجدل حول مزايا الطرق اللوجستية البديلة لموسكو، والمحافظة على أسعار نفط مرتفعة، فضلاً عن التلويح باستخدام هذه الجبهة لإلحاق الضرر بأعدائه الغربيين، الذين تخطوا معظم الخطوط الحمراء لموسكو في الجبهة الأوكرانية. وتحاول هذه الدراسة أن تستكشف طبيعة العلاقة بين جماعة الحوثي وموسكو، وكيف يمكن للكرملين الاستفادة مما يحدث في البحر الأحمر، وتوظيفه في سياق معركته الجيوسياسية مع الغرب على الجبهة الأوكرانية.

الكلمات المفتاحية: روسيا، الحوثيون، اليمن، الولايات المتحدة، البحر الأحمر، باب المندب.

Abstract

In the early years of the 21st century, it appeared that Russia had abandoned the traditional support once offered by the Soviet Union to its Palestinian, Lebanese, Syrian, and Yemeni allies. During the terms of Yeltsin and, to some extent, Putin, Russia's path in the Middle East seemed to favor Israel. However, it now appears that Russia is again supporting Israel's foes. A turning point occurred in 2007 at the Munich Security Conference when Putin explicitly declared for the first time that Russia was not prepared to content itself with a marginal role or even regional superpower status. Undoubtedly, the events of October 2023 ,7, and the subsequent regional ramifications have opened the door to many questions about the nature of Russia's role in the region and how Moscow has worked to leverage these events to its advantage. For Putin, this was a timely opportunity to assert once more that the long-term US strategy in the region had failed. These developments have also sparked debate about the viability of alternative logistical routes for Moscow, the maintenance of high oil prices, and the potential to use this front to harm its Western adversaries, who have crossed many of Moscow's red lines on the Ukrainian front. This article seeks to explore the nature of the relationship between the Houthis and Moscow and how the Kremlin might capitalize on the situation in the Red Sea within the context of its geopolitical battle with the West on the Ukrainian front.

Keywords: Russia, Houthis, Yemen, United States, Red Sea, Bab al-Mandab.

مقدمة

خلقت التطورات الجارية في الشرق الأوسط منذ اندلاع عملية طوفان الأقصى ساحة جديدة للتنافس بين القوى الكبرى، ولاسيما أن الصراع قد اتسع إقليميًا، وامتد إلى نطاقات جيواستراتيجية شديدة الحساسية، كمنطقة البحر الأحمر عقب دخول الحوثيين على خط الصراع، الأمر الذي جذب تدخل القوى الدولية المتنافسة، التي تسعى لتعزيز نفوذها الإقليمي، وربما تكون روسيا إحدى هذه القوى التي وجدت في الصراع فرصة من أجل إلحاق الضرر والتأثير على الولايات المتحدة والغرب المنخرطين ضد روسيا في حربها على أوكرانيا، وهذا السلوك الروسي ربما يتسق مع سياسة موسكو في محاولة موازنة الضغوط ضد الولايات المتحدة والغرب، للتأثير على مجريات المواجهة الراهنة، وهذا ما أشار إليه نائب رئيس مجلس الأمن القومي الروسي، والرئيس السابق دميتري ميدفيديف، عبر قناته على تيليغرام، بدعوته إلى الانتقام من الغرب "في كل مكان ممكن" بسبب الصراع المتزايد في أوكرانيا والعقوبات اللاإنسانية ضد روسيا وشعبها، وأشار ميدفيديف، الذي وصف الغربيين بـ"الأعداء"، إلى الحاجة إلى خلق "صعوبات اقتصادية لهم، وإثارة الاستياء الشعبي من السياسات غير الكفؤة التي تنتهجها السلطات الغربية، وتطوير الحلول الدولية وتعزيزها التي تتعدى على مصالح العالم الغربي. وأشار صديق بوتين القديم إلى أن هذا يجب أن يتم "بشكل مستمر ومنهجي وعلني قدر الإمكان"، ليس هذا فحسب، بل ينبغي على المرء "القيام بأنشطة أخرى على أراضي الغرب ليس من المعتاد الحديث عنها علنًا"[1].

وهذا التوجه الذي يبدو رسميًا مدفوع بمطالب تركز على ضرورة استغلال روسيا للصراع الناشئ في البحر الأحمر؛ للرد على التوجهات الغربية والأمريكية ضد روسيا في أوكرانيا، وكنوع من موازنة الضغوط والتأثير على مجريات الصراع، وذلك عبر مد الحوثيين بالسلاح اللازم لإلحاق الضرر بالولايات المتحدة، كما تفعل الولايات المتحدة مع أوكرانيا وتمدها بالسلاح الذي يهدد روسيا[2].

وبينما تُشير تقارير إخبارية أمريكية حول تقديم الروس دعمًا عسكريًا للحوثيين في حملتهم ضد الولايات المتحدة، فليس من المستبعد أن تعمق روسيا من انخراطها في هذا الصراع؛ لأن ذلك يمنحها تأثيرًا جيوسياسيًا ضد الولايات المتحدة في المنطقة، وقد ينعكس إيجابًا على مواجهتها الحالية في أوكرانيا، فضلًا عن أنه يعزز من توجهاتها الرامية إلى إضعاف الهيمنة الأمريكية، وإضعاف نفوذها الإقليمي. من هنا تثور أسئلة حول علاقة روسيا بالحوثيين، وتفصيلًا حول العوامل المؤثرة على علاقة روسيا بالحوثيين، والتطور في العلاقة بعد حرب غزة ودخول الحوثيون على خط الصراع، وكيفية توظيف روسيا لهذا الصراع في مواجهتها مع الولايات المتحدة والغرب، وتداعيات دخول روسيا على خط الصراع؟

أولا: عوامل مؤثرة على علاقة روسيا بالحوثيين

تؤثر جملة من الاعتبارات على علاقة روسيا بالحوثيين، أهمها:

1. تغيير طبيعة السياسة الخارجية الروسية

بالعودة إلى مفهومي السياسة الخارجية الروسية التي تبناها الرئيس الروسي فلاديمير بوتين في عامي 2016م، و2023م، سنجد أن روسيا ركزت في مقارباتها لقضايا الصراع على ضرورة أهمية تفعيل القانون الدولي، وحل هذه الصراعات عبر منصة الأمم المتحدة، وعبر تفعيل دور الدبلوماسية متعددة الأطراف، ودعم الأنظمة الشرعية. فوفقًا للبند (34) في المفهوم الأول: "تعمل روسيا على تعزيز آليات التسوية السياسية والدبلوماسية للصراعات الإقليمية على أساس العمل الجماعي للمجتمع الدولي، وعلى أساس أن حل هذه الصراعات ممكن من خلال إشراك جميع الأطراف في الحوار والمفاوضات، وليس عن طريق عزل أي من أطرافها"[3]، وقد جاء ذكر منطقة الشرق الأوسط تحديدًا في البند 92 من المفهوم ذاته، وأكد ضرورة " اتباع موسكو لمسار ثابت نحو الحل السياسي والدبلوماسي للصراعات في دول هذه المنطقة على أساس احترام سيادتها وسلامة أراضيها، والحق في تقرير مصيرها دون تدخل خارجي"[4].

وقد أكد مفهوم السياسة الخارجية الروسية لعام 2023م التوجهات ذاتها؛ إذ جاء في المادة السادسة ما يؤكد أن السياسة الخارجية لروسيا سلمية، ومنفتحة، ويمكن التنبؤ بها، ومتسقة، وواقعية، وتقوم على احترام مبادئ القانون الدولي وقواعده المقبولة عموما، والرغبة في التعاون الدولي المتساوي من أجل حل المشاكل وتعزيز المصالح المشتركة.

واستجابة للتطورات الجارية على الساحة الدولية، فقد أظهر المفهوم الجديد نزعة جديدة أكثر ميلا نحو التدخل والانخراط، حيث نصت المادة 11 في الفصل الثاني من المفهوم الجديد "أن تفاقم النزاعات المسلحة طويلة الأمد في عدد من المناطق، يزيد التهديد للأمن العالمي، ويزيد من مخاطر الاشتباك بين الدول الكبيرة، بما في ذلك القوى النووية، ويرفع من احتمالات مخاطر مثل هذه الصراعات وتصعيدها إلى مستوى الحروب الإقليمية أو العالمية، لهذا ركزت المادة 24 من المفهوم الجديد في الفقرة الرابعة على ضرورة" اتخاذ تدابير سياسية ودبلوماسية لمواجهة التدخل في الشؤون الداخلية للدول ذات السيادة، التي تهدف في المقام الأول إلى تعقيد الوضع السياسي الداخلي، أو التغيير غير الدستوري للسلطة أو انتهاك السلامة الإقليمية للدول، وفيما يتصل بالوصول الآمن للبحار والمحيطات وضمان تصدير المنتجات الروسية دون أي عوائق اعتمدت روسيا في مفهوم سياستها الخارجية الجديد فصلًا رئيسا في المفهوم، ومما جاء في هذا الفصل الفقرة الأولى من المادة 36، التي تتضمن" ضمان الوصول الحر والآمن والكامل لروسيا إلى المساحات الحيوية والمهمة وغيرها، واتصالات النقل، والموارد في المحيط العالمي".

وأكد المفهوم أيضًا في الفقرة الثالثة من المادة 17 ضرورة تعزيز تطوير استجابات فعالة وشاملة من قبل المجتمع الدولي للتحديات والتهديدات المشتركة، بما في ذلك الصراعات والأزمات الإقليمية، لكن بقدر ما أكدت روسيا التزامها بقواعد القانون الدولي في مقارباتها في حل الصراعات، وهو ما أكده المفهوم الجديد لسياستها الخارجية، إلا أن الفقرة السابعة من المادة السابقة نفسها تنص على أهمية تقديم الدعم لحلفاء روسيا وشركائها في تعزيز المصالح المشتركة، وضمان أمنهم وتنميتهم المستدامة، بغض النظر عمّا إذا كان هؤلاء الحلفاء والشركاء حاصلين على اعتراف دولي، أو عضوية في المنظمات الدولية"[5].

وهكذا يتضح أن روسيا قد ضمنت في مفهوما الجديد بُعدًا جديدًا مثيرًا للتساؤلات حول ما إن كان القصد هو تقديم الدعم للكيانات التي اعترفت بها روسيا منفردة كجمهوريات مستقلة في فضائها السوفيتي السابق كأوسيتيا الجنوبية وأبخازيا، أم أن هذا الدعم يشمل كيانات وجماعات خارج فضائها الإقليمي السابق، ولم تحصل على اعتراف روسي كجماعة الحوثي، خاصة أن الجماعة حاولت مرارًا قبل الحرب الروسية على أوكرانيا الحصول على اعتراف روسي بمجلسها السياسي!، وهل يمكن الربط بما جاء في النص واعتراف الحوثيين بلوغانسك ودونيتسك كجمهوريتين مستقلتين؟.

2. طبيعة دور روسيا بوصفها وسيطًا بين أطراف الأزمة اليمنية

حاول الحوثيون بعد انقلابهم على السلطة في 2015م التواصل مع روسيا من أجل الحصول على الدعم؛ وذلك استنادًا إلى التحالف الذي يجمع موسكو مع طهران في العديد من الملفات، على غرار التخادم الجاري في سوريا على سبيل المثال، لكن روسيا امتنعت منذ عام 2015م عن تقديم أي دعم للحوثيين في صراعهم الداخلي[6]، وفي الوقت نفسه عارضت أي قرار دولي ضد الحوثيين؛ ففي أبريل 2015م هددت باستخدام حق النقض ضد مشروع قرار خليجي في مجلس الأمن بشأن اليمن، الذي اقترح فرض عقوبات على زعماء الحوثيين والرئيس اليمني السابق علي عبد الله صالح، فضلاً عن فرض حظر على الأسلحة، وفي أغسطس 2016م، أحبط الفيتو الروسي إصدار بيان لمجلس الأمن الدولي، كان قد دعا وفد الحوثيين وحليفهم صالح إلى التعاون مع المبعوث الأممي إلى اليمن آنذاك إسماعيل ولد الشيخ، ودعا إلى تدخل مجلس الأمن لفرض مقترح اتفاق سلام في اليمن، وبدلًا من ذلك طالبت روسيا بفرض حظر على توريد الأسلحة إلى جميع الأطراف بما في ذلك الحكومة المعترف بها دوليًا، لكن القرار تم تمريره لاحقًا في مجلس الأمن. وفي مارس 2021م، عارضت روسيا إصدار مجلس الأمن لبيان يدعو إلى وقف هجمات الحوثيين على مأرب الغنية بالغاز.

ورغم المواقف الروسية المبكرة التي منعت تحركات دولية كبيرة ضد الحوثيين، إلا أن الجماعة لم تشعر بالحماس تجاه الدور الروسي، الذي يبدو أنه فُسّر على أنه نابع من خلاف موسكو مع الغرب، وليس موقفًا إستراتيجيًا تبنته موسكو لصالحهم، على غرار الدعم

الروسي للنظام الســـوري، وهذا ما أكده زعيم الحوثيين عبد الملك الحوثي بقوله: "روسيا لها حســـاباتها ومصالحها وسياساتها، ونحن لا نداعبها ولا نعول عليها، وأتمنى أن تستيقظ الدببة الروسية من سباتها الشتوي بسبب النيران الأميركية".

لقد كان من الواضح أن روسيا حريصة على علاقات جيدة مع كافة أطراف الأزمة اليمينة، وبالفعل منذ 2016م نجحت روسيا رويدا رويدا من ترسيخ نفسها بوصفها وسيطًا رئيسًا في الأزمة اليمنية، خاصة بعدما وجهت حركة أنصارالله (الحوثيين) اليمنية رسالة إلى القيادة الروسية برؤيتها لحل الصراع في اليمن المستمر منذ نحو 10 سنوات[7]، وبعد الانقسام الذي جرى بين الحكومة الشـــرعية والمجلس الانتقالي المدعوم مـــن الإمارات. وعلى الرغم من انســـحاب قوات أبوظبي من اليمن، إلا أنها هي التي فتحت الطريق أمام هذا الدور الروسي، حتى إنها في أواخر أغسطس 2019م، بدأت في تسهيل الاجتماعات بين المجلس الانتقالي الجنوبي ومبعوث بوتين الخاص إلى الشرق الأوســـط وأفريقيا، ميخائيل بوغدانوف، وفي اليوم نفسه، التقى الروس بالحوثيين وبنجل على عبدالله صالح، مع الحفاظ على الاتصال بممثلي هادي، واستُضيفت العديد من الوفود اليمنية في موسكو[8].

3. علاقة روسيا بالقوى الإقليمية المنخرطة في اليمن

إقليميًا كانت روسيا حريصة على التمســـك بسياستها المتمثلة في عدم الانحياز إلى الكتل الإقليمية المتنافسة في الشرق الأوسط، وفي الأزمة اليمنية تحديدًا كانت روسيا حريصة ألا تعـــرّض علاقاتها الودية مع المملكة العربية الســـعودية للخطـــر، وكان الهدف الرئيس لروسيا هنا هو إبعاد حليف رئيس للولايات المتحدة في الشرق الأوسط وهو السعودية عن واشـــنطن، لهذا يلاحظ أن الكرملين استخدم سياسة متوازنة ومفتوحة على كافة الأطراف المتعلقة بالملف اليمني، ويُشـــار في هذا الســـياق إلى ما أكده المستشرق الروسي بافيل غوسترين، الذي عمل في اليمن لعدة سنوات ضمن البعثة الدبلوماسية الروسية في العقد الأول من القرن الحادي والعشرين بقوله: لا يمكن لموسكو أن تنحاز إلى أحد جانبي الصراع؛ لأن ذلك من شأنه أن يفسد العلاقات مع إيران، التي تدعم الحوثيين، أو مع المملكة العربية الســـعودية القوة الإقليمية المؤثرة، والحليف المهم لروسيا في أوبك+، ويضيف أن مهدي المشـــاط ممثل جماعة الحوثيين ليس ممثلا للحكومة الشرعية، فالمجتمع الدولي يعترف بالزعيم الشـــرعي لليمن عبد ربه منصور هادي الذي أُنتخب عام 2012م، ويشير غوسترين إلى أن تقديم المساعدة العسكرية للحوثيين يتعارض مع أحد مبادئ الدبلوماسية الروسية.

هكذا أظهر الكرملين مقاربات حذرة في اليمن، وذلك اســـتنادًا إلى علاقته مع الرياض، خصوصًا مع حالة الحياد الدقيق التي أظهرتها الأخيرة فيما يتعلق بالأزمة الأوكرانية، وعدم انضمامها للعقوبات الغربية ضد موســـكو؛ فالســـعودية الرائدة في سوق النفط العالمي، والدولة الرائدة في العالم الإسلامي يتحتم على موســـكو عـــدم إغضابها، حتى لا يتم دفعها للمواجهة مع روسيا في حرب أسعار في ســـوق الطاقة، كتلك التي حدثت في عام 2020م،

والتي ستدفع موسكو على إثرها فيما لو حدثت ثمنًا باهظًا، خاصة في ظل جبهات حربها المستعرة مع الغرب سواء في جبهة الطاقة، أو العقوبات الاقتصادية، وحتى في الجبهة العسكرية والسياسية في الساحة الأوكرانية، فالإبقاء على أسعار نفط مرتفعة مصلحة روسية – سعودية مشتركة، فموسكو ترى أن ذلك سيصب في مسار الحفاظ على استقرار عملتها الوطنية، الذي بدوره سيحافظ على استقرار جبهتها الداخلية التي يراهن البيت الأبيض عليها كثيرًا لإلحاق الهزيمة بنظام بوتين.

تدرك موسكو أيضا أن الرياض تملك الكثير من أوراق الضغط، وتستخدم ورقة الطاقة في ظل حاجة الغرب لها؛ لتنويع شراكاتها الإستراتيجية مع الكثير من اللاعبين الدوليين، فضلًا عن أن المملكة استطاعت تعميق شراكتها الاقتصادية مع الصين، لا شك أن مصلحة الرياض وموسكو تكاد تكون متطابقة في الحفاظ على أسعار نفط مرتفعة، واستمرار سريان اتفاق خفض الإنتاج على مستوى أوبك+، فللسعودية رؤيتها الطموحة 2030م، التي تحتاج مشاريعها لمئات المليارات، ولروسيا أهمية استقرار عملتها الوطنية الروبل، للحفاظ على تماسك جبهتها الداخلية، كما أن للرياض رؤيتها الخاصة بمعالجة شواغلها الأمنية في إطار ترتيباتها الإقليمية بعيدًا عن استخدام الحلول العسكرية.

4. أهمية منطقة البحر الأحمر في إدارة الصراع مع الغرب

تعد منطقة البحر الأحمر ذات أهمية إستراتيجية للغرب؛ كونها أقصر ممر حيوي للتجارة العابرة بين الشرق والغرب، ولهذا نرى كثافة التواجد العسكري الغربي عبر العديد من القواعد العسكرية على شواطئ البحر الأحمر، وقرب مدخله من جهة الجنوب عند مضيق باب المندب، وفي حين تواجه روسيا عقوبات اقتصادية غربية صارمة، ومحاولة لقطع صلتها مع العالم؛ من أجل التأثير على قرارها في حرب أوكرانيا، فإن روسيا تجد في هذه المنطقة أهمية خاصة في ظل تصاعد التوترات العالمية بسبب الحرب الأوكرانية التي تحولت إلى حرب بالوكالة بين روسيا وحلف شمال الأطلسي بقيادة الولايات المتحدة، وبعدما أصبحت هذه المنطقة هدفًا مهمًا للحوثيين.

فقد حظي الملف اليمني في الآونة الأخيرة باهتمام روسي أكبر من أي وقت مضى، باعتباره قد وفر ساحة لروسيا من أجل الضغط على الغرب، ولهذا يلاحظ تغير علاقة روسيا بالحوثيين بعد الحرب على أوكرانيا، ففي اغسطس 2022م زار وفد حوثي برئاسة المتحدث الرسمي باسم الجماعة محمد عبد السلام موسكو، وتحدث في صفحته على تويتر عن تغير حقيقي في الموقف الروسي تجاه جماعته، وإدراك أن اليمن يستطيع أن يكون مؤثرًا إستراتيجيًا[9].

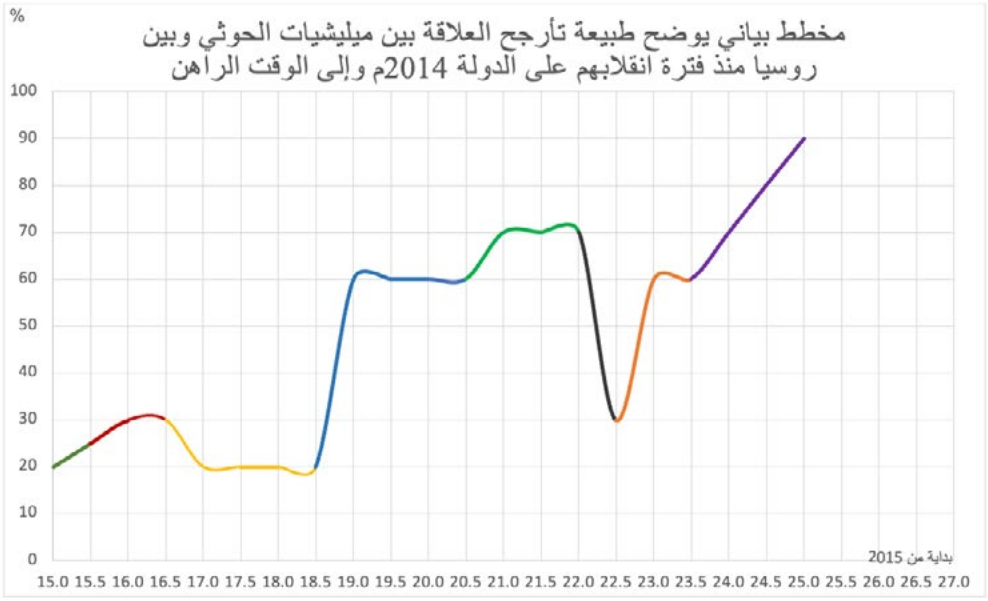

المصدر: إعداد الباحث.

أحداث ومنعطفات في العلاقة بدلالة الألوان في المخطط أعلاه

- امتناع روسيا عن التصويت عن القرار 2216 مع استقبالهم وفد الحوثيين في موسكو والإبقاء على سفارة روسيا في العاصمة صنعاء
- العملية العسكرية الروسية في سوريا مع إدانة روسيا جرائم التحالف العربي في اليمن وتقاربها مع الحوثيين في الموقف
- تصفية الحوثيون لصالح الأمر الذي تسبب بتوتر علاقتهم مع موسكو على إثر ذلك تم نقل سفارة موسكو من صنعاء إلى الرياض وعلى الرغم من توتر العلاقة إلا أن موسكو استخدمت حق النقض الفيتو ضد مشروع قرار يدين إيران ومررت صيغة بديلة لتمديد نظام العقوبات دون ذكر لإيران
- رفع مستوى ضخ النفط في السوق من قبل الرياض الأمر الذي رفع مستوى تقارب موسكو مع الحوثيين
- امتناع روسيا عن إصدار بيان صحفي لمجلس الأمن الدولي يدين الحوثيين أثناء تصعيد هجومهم على مأرب
- تصويت روسيا في مجلس الأمن لصالح القرار 2624 الذي يدين الحوثيين ويصنفهم جماعة إرهابية عقب ضربهم الإمارات بصواريخ باليستية وعُدّ حينه صفقة مقايضة بين موسكو وأبو ظبي مقابل امتناع الإمارات عن التصويت ضد قرار إدانة موسكو لغزوها أوكرانيا
- زيارة محمد عبد السلام إلى موسكو بعد اعتراف الحوثيين بدونيستك ولوغانسك كجمهوريات مستقلة قبل ضم المقاطعات الشرقية الأوكرانية إلى روسيا وحديثه عن تغير حقيقي في الموقف الروسي تجاه جماعته
- تطابق الرؤى بين موسكو والحوثيين تجاه أحداث غزة مع شن الحوثيون ضرباتهم في البحر الأحمر والخليج العربي رغم سماح روسيا بتمرير قرار مجلس الأمن رقم 2722 من خلال امتناعها عن التصويت لكن حزمة المساعدات الأمريكية الأخيرة لنظام كييف وقبل ذلك وعد الحوثي بعدم استهداف السفن الروسية دفع بالإعلام المقرب من الكرملين إلى الدعوة لتحالف عسكري مع الحوثيين لضرب المصالح الغربية.

ثانيا: توظيف روسيا لهجمات الحوثيين

كانت حرب غزة لحظة فارقة في الشرق الأوسط؛ إذ إنها فجرت حالة من الفوضى الإقليمية، والتدخلات الخارجية غير المسبوقة، وكان تدخل الحوثيين على خط الصراع فيما يعرف بجبهة إسناد غزة أحد أهم تداعيات هذا الصراع، ولاسيما أن تدخل الحوثيون قد هدد واحدًا من أهم ممرات التجارة العالمية، وهو ما استوجب تدخلًا من جانب الولايات المتحدة وحلفائها الغربيين، ولا شك أن روسيا والصين اللتين تتفقان في محاولة تقويض الهيمنة الأمريكية، وإضعاف دورها في الشرق الأوسط، قد وجدتا في هذه التطورات فرصة لإشغال واشنطن، ودفع سياساتهم ونفوذهم في المنطقة، من خلال فرض ضغوط وتحديات متزايدة أمام الولايات المتحدة، ولهذا يمكن تفسير التغير الذي طرأ على موقف روسيا من الحوثيين، ومن الحملة التي تقودها الولايات المتحدة ضد الحوثيين فيما يعرف بتحالف الازدهار، ويمكن ملاحظة تطورات موقف روسيا بعد حرب غزة، وهجمات الحوثيين على السفن المارة بالبحر الأحمر والمحيط الهندي على النحو الآتي:

1. إعادة صياغة العلاقة مع الحوثيين

كثفت روسيا من نشاطها الدبلوماسي مع الحوثيين، كما يلاحظ إدراج الصراع في الشرق الأوسط على أجندة المباحثات بين الجانبين، حيث أعقب التصعيد في البحر الأحمر ضمن ما يطلق عليه الحوثيون بـ"إسناد غزة" زيارة وفد من الحوثيين بقيادة ممثل الحوثيين محمد عبدالسلام موسكو في ال25 من يناير 2024م، التقى خلالها بالمبعوث الخاص للرئيس الروسي للشرق الأوسط ودول أفريقيا، ونائب وزير الخارجية ميخائيل بوغدانوف، وكانت آخر زيارات المتحدث الرسمي للحوثيين في الـ2من يوليو 2024، حيث استقبل نائب وزير الخارجية الروسية ومستشار الرئيس الروسي الخاص للشرق الأوسط ميخائيل بوغدانوف وفدًا حوثيًا برئاسة ممثلهم الرسمي محمد عبد السلام، ونشرت وزارة الخارجية الروسية عبر موقعها الرسمي أن المحادثات التفصيلية تناولت مناقشة مفصلة حول قضايا التسوية الشاملة للأزمة العسكرية والسياسية في اليمن، والمستمرة منذ ما يقرب من تسع سنوات، وأكدت أهمية زيادة الجهود الدولية لتهيئة الظروف اللازمة بسرعة لإطلاق حوار وطني واسع النطاق بين اليمنيين تحت رعاية الأمم المتحدة [1]، وبجانب مناقشة قضية التسوية الشاملة للأزمة العسكرية والسياسية في اليمن مع الحوثيين بحسب ما جاء في بيان الخارجية الروسية، فقد تم إيلاء اهتمام خاص خلال اللقاء بتطور الأحداث المأساوية في منطقة الصراع الفلسطيني -الإسرائيلي، فضلًا عن تفاقم الوضع في البحر الأحمر.

2. الاستفادة من هجمات الحوثيين للتأثير على المصالح الاقتصادية للغرب

بينما أعادت روسيا توجيه تجارتها إلى حد كبير نحو الصين وموانئ الشرق الأقصى عبر النقل بالسكك الحديدية، حيث لم يعد يمر أكثر من 10% من حجم تجارة روسيا الخارجية عبر قناة السويس، فإنها رأت أن التصعيد في البحر الأحمر مفيد لروسيا اقتصاديًا في التأثير

على حركة التجارة نحو الغرب، وأنه يمكن الاستفادة من أزمة البحر الأحمر، والوقوف في صف كل من يقف ضد دول الغرب، وفي هذا الصدد من المهم الإشارة إلى ما قاله وزير الخارجية الروسي سيرغي لافروف في 27 من فبراير 2024م عندما قارن تصرفات الحوثيين في البحر الأحمر بالعقوبات المفروضة على بلاده قائلا: "إن تأثير تصرفات الحوثيين في البحر الأحمر على التجارة العالمية يمكن مقارنته بتأثير العقوبات الغربية غير القانونية ضد الاتحاد الروسي"، وقال خلال مؤتمره الصحفي عقب محادثات أجراها مع رئيس الوزراء اليمني ووزير الخارجية أحمد عوض بن مبارك: "إن الغرب شجع استخدام الأوكرانيين لمهاجمة الممرات الآمنة المفترضة والمخصصة خلال الفترة التي كانت فيها مبادرة الأمين العام للأمم المتحدة، بشأن حبوب البحر الأسود، وما زالت سارية المفعول، وأوضح لافروف أن تأثير ذلك انعكس على التسليم اللوجستي المعقد للغاية للبضائع من نقطة إلى أخرى، وأدى إلى زيادة حادة في أسعار التأمين"[2].

من المهم أيضًا الإشارة إلى ما ذكره موقع قناة تسارجراد المحافظة المملوكة لكونستانتين فاليريفيتش مالوفيف السياسي والملياردير الروسي المقرب من الكرملين، وأحد ممولي الشعار القومي "العالم الروسي" أنه لو لم يكن الحوثيون موجودين، لكان من الضروري اختراعهم، وأن أحداث البحر الأحمر تظهر للعالم بشكل مباشر سبب احتفاظ الأميركيين والبريطانيين بقواعدهم على طرق تجارية ذات أهمية إستراتيجية. صحيح أن روسيا اليوم لا تمتلك مثل هذه القواعد عمليًا، لكن الحوثيين موجودون اليوم، ويمكن الاستفادة منهم، وحتى لو وافقت إسرائيل على ترك غزة وشأنها، وهو أمر يصعب توقعه من رئيس وزرائها بنيامين نتنياهو، الذي يناضل من أجل بقائه السياسي، لكن من غير المرجح أن تتوقف هجمات الحوثيين، الذين عثروا على منجم للذهب، خاصة ضد سفن الدول الغربية التي قصفتهم. وهنا يُعاد طرح تساؤل ميدفيديف للغرب، وهو: لماذا ينبغي لروسيا وحدها أن تخضع "لقيود لا نهاية لها"؟ إذا أردتم حربًا هجينة، فسوف تحصلون عليها![3].

وهكذا أُعيد طرح الحوثيين في تناول الإعلام الروسي كورقة رابحة يمكن أن يستفيد منها الكرملين، ومما جاء في هذه التناول اللافت للنظر أن روسيا لا تملك نسخة حوثية في جوارها الإقليمي، إذ كان من الضروري لموسكو قبل عشرين عاما البدء في إنشاء منظمات وحركات تناضل من أجل الاستقلال عن الهيمنة الأمريكية في بلغاريا أو رومانيا، وكانت بلا شك ستشكل بيئة ممتازة للأعمال التخريبية، حينها كانت موسكو تملك ظروفًا مثالية في دول البلطيق لتشكيل حركات وجماعات موالية لها، التي كان من الممكن لهذه الجماعات أن تكون "كابوسًا" للنازيين المحليين[4].

وكانت صحيفة The Wall Street Journal قد أوردت هذا الشهر تقريرًا مثيرًا للاهتمام تحدثت فيه عن عودة "تاجر الموت الروسي" فيكتور بوت لبيع الأسلحة للحوثيين، وكان بوت قد قضى 12 عاماً في سجون الولايات المتحدة الأمريكية، وكان قد قُبض عليه في

عملية سرية عام 2008م في تايلاند، بقيادة عملاء إدارة مكافحة المخدرات الأمريكية متنكرين في هيئة متمردين يساريين كولومبيين، وكان قد أُطلق سراحه في صفقة تبادل الأسرى في ديسمبر/كانون الأول 2022م، ووصف مسؤولو البيت الأبيض ذلك بأنه قرار صعب، ولكنه كان السبيل الوحيد لإخراج الأمريكية بريتني جرينر من سجون روسيا.

وذكرت الصحيفة أن صفقة الأسلحة الصغيرة التي قيل إن بوت كان يتوسط فيها كانت مع ممثلين حوثيين سافرا إلى موسكو تحت غطاء شراء المبيدات الحشرية والمركبات وزارا مصنع لادا. ولم يعرف الأشخاص المطلعون على الصفقة ما إذا كانت الصفقة يجري التفاوض عليها بناء على طلب الكرملين أم بموافقته الضمنية فقط. وفي حين كان الحوثيون يسعون للحصول على أسلحة روسية الصنع، لم تتمكن صحيفة وول ستريت جورنال من تحديد المصدر المحدد للإمدادات المخطط لها.[5] وعدَّ فيكتور بوت ما تناولته الصحيفة الأمريكية في مقابلة مع قناة REN TV. بمنزلة "هدية" من الغرب للرئيس الروسي بوتين في عيد ميلاده، وبحسب قوله فإن المقال يقول إنه لا توجد حقائق، بل هناك تكهنات معينة، لكنه أكد في مقابلته، أن الحوثيين حلفاء لروسيا ويحتاجون إلى الدعم؛ لأنهم حسب رأيه فعالون للغاية في محاربة طائرات الاستطلاع الأمريكية دون طيار، وكلما أسقطوا طائرات أكثر، قلت فرص الولايات المتحدة لاستخدام هذه الطائرات في البحر الأسود ضد روسيا[6].

3. الحفاظ على علاقة متوازنة مع القوى الإقليمية وإبعادها عن واشنطن

لم يكن مستغربًا أن "تحالف حارس الازدهار" الذي شكلته واشنطن على عجل، لم يضم لاعبين إقليميين مهمين في الملف اليمني؛ فقد تجنبت المملكة العربية السعودية والإمارات العربية المتحدة المشاركة فيه؛ إذ لا ترغب الدولتان في تحمل تكاليف صورتهما في العالم العربي من خلال المشاركة علنًا تحت رعاية الأمريكيين ضد الحوثيين، الذين يقولون إنهم يدعمون غزة، فضلا عن حسابتهما الأمنية[7]. وتجدر الإشارة هنا إلى أن روسيا كانت قد امتنعت عن التصويت على قرار مجلس الأمن الدولي الذي أدان الحوثيين، هذا الامتناع الذي سمح بتمرير القرار، والواضح أن هذا الموقف جاء ضمن حسابات الكرملين الذي يريد من جهته المحافظة على علاقات متوازنة مع كل الأطراف المهيمنة إقليميًا، فضلا عن الأطراف الداخلية اليمنية، كما أن إدانتها للضربات الأمريكية البريطانية لمواقع الحوثيين بعد تمريرها لقرار مجلس الأمن الدولي، من خلال الامتناع عن التصويت، واعتبار ذلك انتهاكًا للسيادة وخرقًا لقواعد القانون الدولي وتقويضًا لمساعي السلام، التي كانت قد قطعتها المملكة العربية السعودية مع جماعة الحوثي، وربما كان مدفوعًا أيضًا بمخاوفها المتعلقة بصادراتها الضخمة من النفط للهند، والتي تمر بالبحر الأحمر.

4. شن حملة دبلوماسية ضد الولايات المتحدة وبريطانيا

تدعم موسكو في الوقت الحالي وبنشاط الخطاب المناهض للاستعمار، في محاولة لكسب تعاطف الجنوب العالمي من خلال انتقاد الهيمنة الأمريكية، وبالإضافة إلى الانتقاد

الإلزامي لأي تصرفـــات أمريكية، وقد وجدت في الصراع الجاري فـــي البحر الأحمر فرصة من أجل النيل من صورة الولايات المتحدة، ومـــن إظهار تجاوزها للقانون الدولي، ولنزعتها الإمبريالية، وهذا السلوك أكثر ارتباطًا برغبة روســـيا في مراجعة النظام الدولي وإضعاف الهيمنة الأمريكية، وتوظيف التدخل الأمريكي العســـكري ضد واشنطن وحلفائها، ومن ثم عارضت روســـيا الهجمات التي شـــنتها الولايات المتحدة وبريطانيا على اليمن، وتم إدانة الهجمات الصاروخية التي شـــنتها الدولتان، باعتبارها تزعزع استقرار الوضع الإقليمي[8]، ووصف الكرملين هذه الأفعال بأنها غير شـــرعية، ودعا مجلس الدوما الروسي إلى محاكمة بايدن، وقالت الخارجية الروســـية على لســـان المتحدثة باســـم الوزارة ماريا زاخاروفا "إن الغارات الجويـــة الأمريكية على اليمن هي مثـــال آخر على تحريف الأنجلوسكســـونيين لقرارات مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة، والتجاهل التام للقانون الدولي باســـم تصعيد الوضع في المنطقة لأغراضهم التدميرية".

كما بادر الاتحاد الروسي إلى الدعوة لعقد اجتماع عاجل لمجلس الأمن الدولي "فيما يتعلق بالضربات الأمريكية والبريطانية على اليمن"، السكرتير الصحفي للرئيس الروسي ديمتري بيســـكوف علق بالقول "إن قرار مجلس الأمن الدولي الذي دعا الحوثيين بشكل عاجل إلى إيقاف هجماتهم في البحر الأحمر لم يعط الحق لأي كان بشـــن ضربات، وأن الضربات التي قامت بها الولايات المتحدة غير قانونية، وتشكل انتهاكًا للقانون الدولي، ووفقًا لبيســـكوف فإن بلاده دعـــت مرارًا وتكرارًا الحوثيين إلى التخلي عن الاعتداءات على الســـفن التجارية الدولية، إذ نعتبرها غير صحيحة"[9].

فعلى المســـتوى الخطابي تحاول موســـكو تقديم أزمة البحر الأحمـــر كمثال آخر لأزمة الهيمنة الأمريكية، وأن ما يحدث لا يصب إلا في مصلحة روســـيا "ولن يقود إلى أي نتيجة، وأن اســـتمرار القصف دليل آخر على معاناة الهيمنة الأمريكية" بحســـب تعليق فيلسوف الكرملين ومفكره الكسندر دوغين على قناته في التليغرام.

كما أن تدخل روســـيا في الصراع كان فرصة لموسكو لإظهار تناقضات الغرب وازدواجية المعايير التـــي يتبعها، فضلًا عن أن الصراع قد اســـتلزم إعادة بعض الأصول العســـكرية الأمريكية إلى المنطقة، فضلًا عن مد إســـرائيل بمزيد من الأسلحة والمعدات، وهو ما أثر بلا شك على الدعم الموجه إلى أوكرانيا، ونظرًا لأهمية ممر البحر الأحمر في إطار المصالح الأمريكية والغربية؛ فإن اشـــتعال هذه المنطقة يمثل فرصة لخلق صعوبات أمام الخصوم، وورقة ضغط يمكـــن لروســـيا أن توظفها ضد الولايـــات المتحدة والغرب، ولا شـــك بأن المصالحة التي رعتها الصين بين إيران والسعودية منحت لروسيا لعب دور أكبر فاعلية في الملف اليمني، ويبدو أن أحد أهم المصالح الروسية في اليمن هو تخفيف الضغوط الغربية في أوكرانيا، من خلال لعب دور في بؤر التوتر الأخرى في العالم مثل اليمن[10].

ثالثا: الفرص والتحديات أمام روسيا

مثلما تشكل هجمات الحوثيين على البحر الأحمر فرصة لروسيا، فإنه ذلك ينطوي على تحديات أيضًا، ويمكن الإشارة إلى هذه الفرص والتحديات على النحو الآتي:

1. الخسائر والتحديات

ربما لا يقتصر التأثير الاقتصادي للاضطرابات في البحر الأحمر نتيجة لهجمات الحوثيين على الغرب وحسب، بل قد تتضرر روسيا بصورة غير مباشرة، فبالإضافة إلى الواردات التي تصل روسيا من الصين عبر الممرات البرية بعيدًا عن عبور البحر الأحمر، فإن روسيا ما زالت تستقبل منتجات أوروبية بطرق مختلفة، ونظرًا لأن المصنعين الأوروبيين يستخدمون مكونات ومواد خام من الصين تمر عبر البحر الأحمر، فإن الصراع سوف يزيد من التكاليف النهائية للمنتجات على روسيا. وبالنظر إلى أن حرب روسيا على أوكرانيا جعلت من البحر الأحمر طريقًا حيويًا للنفط الروسي، نتيجة للوضع القسري الذي فرضته الحرب الروسية – الأوكرانية خاصة بعد العقوبات الغربية ضد روسيا، وبعد فرض الاتحاد الأوروبي سقفًا لسعر النفط الروسي عند حوالي 60 دولارًا للبرميل، فإن تصدير النفط الروسي سيصبح أكثر صعوبة، ففي السابق كان الأوربيون هم المشتري الرئيس للنفط الروسي، وكان يمر عبر قناة السويس فقط حوالي 0,12 مليون برميل يوميًا إلى المستهلكين الآسيويين، لكن موسكو أعادت توجيه إمدادات النفط من أوروبا إلى آسيا، وبالأحرى نحو الصين والهند، ومع حلول نهاية نوفمبر 2023 م، كانت شركات النقل الروسية تنقل ما يقارب من 1,7 مليون برميل يوميًا عبر السويس[11].

وفي ظل المخاطر المتزايدة في البحر الأحمر قد تلجأ شركات الشحن إلى استخدام طريق بحر الشمال بشكل أكثر نشاطًا، وبالفعل تروج موسكو لطريق آخر، الذي تم تصميمه بوصفه بديلًا لقناة السويس، وهو ممر النقل (شمال – جنوب) من روسيا عبر إيران إلى المحيط الهندي، وممر نقل بحر الشمال، وربما إذا ما تفاقم الصراع وتضررت حركة الملاحة أن تلجأ موسكو إلى إرسال ناقلات النفط عبر طريق رأس الرجاء الصالح، لكن القدرات المتاحة لروسيا ليست كافية لذلك؛ لذا سيكون من الضروري تجديد أسطول ناقلات الشحن بشكل عاجل، وهذا ما قد يفسر امتناع روسيا عن التصويت، وعدم استخدام حق النقض الفيتو ضد قرار مجلس الأمن رقم 2722 في 11 يناير 2024 م، الذي خول لواشنطن وبريطانيا توجيه ضربات جوية للحوثيين، ومن المهم هنا الإشارة إلى أن موسكو أدانت باستمرار تصرفات الحوثيين، داعية إلى "ملاحة حرة وآمنة في المنطقة"، كما أكد الكرملين أنه دعا الحوثيين مرارًا وتكرارًا إلى التخلي عن مثل هذه الممارسات ويعدها خاطئة للغاية.

وقد يفرض استغلال الحوثيين لعلاقاتهم مع روسيا تكلفة إقليمية على موسكو، وذلك بالنظر إلى مخاوف السعودية والإمارات من تأثير الاستقطاب الراهن على الأمن والاستقرار الإقليمي، فضلًا عن الإضرار بمصالحهم، فما يبدو أن تخلي روسي عن دور

الوسيط، والتدخل للتأثير على مجريات الأحداث خدمة لمصالحها وصراعها مع الغرب بدأ صداه يُسمع في الرياض وأبوظبي، إذ إن اللافت للنظر عودة الصراع بين كل من الحركة المتمردة والحكومة المعترف بها دوليًا، ومهاجمة زعيم الحوثيين للمملكة العربية السعودية، على خلفية إجراءات البنك المركزي اليمني في عدن ضد عدد من البنوك والمصارف في مناطق سيطرة الانقلابين، ليعلن بعد ذلك عن إلغاء هذه الإجراءات، على أن يُناقش الملف الاقتصادي لاحقًا بين الحكومة الشرعية والحوثيين؛ ما يعني أن الجماعة ستستمر في مناورتها في البحر الأحمر للمساومة من أجل الحصول على الاعتراف الدولي، بالإضافة الى محاولتها الدائمة بتقديم نفسها حليفًا مجانيًا لروسيا في صراعها مع الغرب، كما يمكن لروسيا توظيفها ضمن أوراق مساومتها في المنطقة، فعلى إثر زيارة لوفد من الحوثيين لموسكو أشارت بعض وكالات الأنباء الروسية إلى أن هذه الزيارة جاءت في سياق أن اليمن قد أصبح ضمن المنطقة الكلية للنفوذ الروسي، وأن روسيا إذا ما سيطرت على البوابات الجنوبية للبحر الأحمر ستكتسب نفوذًا كبيرًا ليس في أورآسيا وحدها، إنما على مستوى العالم، وتم اقتراح إطلاق خط ملاحي مباشر بين أحد الموانئ الروسية (منطقيا ميناء نوفوروسيسك) والحديدة؛ حيث يمكن تصدير الإمدادات من المنتجات الزراعية بصورة مباشرة دون الاعتماد على دولة ثالثة، كما لم يتم استبعاد أن تكون الغارة الإسرائيلية على الحديدة مرتبطة على وجه التحديد بزيارة الحوثيين الأخيرة إلى موسكو، إذ لا يمكن لـ"المنافسين" السماح للنفوذ الروسي بالانتشار في هذه المنطقة [12].

وبينما ظن الكرملين أن الحرب في غزة والتصعيد في البحر الأحمر سيشتت جهود الغرب على الجبهة الأوكرانية، إلا أن حزمة المساعدات الأمريكية المالية التي أعلن عنها الكونجرس، والتي بلغت 61 مليار دولار لكييف قد كشفت عن أن الغرب لم ينشغل بالصراع في أوكرانيا، وأنه ما يزال لديه تصميم على إلحاق هزيمة إستراتيجية بروسيا، تقضى على تطلعاتها الجيوسياسية، وربما تنظر روسيا بحذر إلى الهجوم الناجح من جانب أوكرانيا، واحتلال أراضي روسية في مقاطعة كورسك، فضلًا عن استهداف المصالح الحيوية الروسية بما في ذلك مناطق إنتاج النفط.

2. المكتسبات والفرص

منذ بداية أحداث البحر الأحمر، كان واضحًا أن المخاطر التي يمكن أن يشكلها الحوثيون على الصادرات النفطية بالنسبة لموسكو تبدو ضئيلة، وكانت روسيا الدولة الوحيدة التي لم تقلل من عبور النفط عبر البحر الأحمر، فوسط الهجمات واصل أسطول ناقلات النفط (الظل) العبور من خلال هذا الطريق، كما بدا واضحًا أيضًا أن الحوثيين لم يهاجموا السفن الروسية عمدًا كأهداف، يرجع ذلك إلى أن موسكو استفادت من علاقتها بإيران التي تزود الحوثيين بمعلومات حول مسار ناقلات النفط الروسية لتجنب الحوادث والأخطاء، وفي هذا الصدد يُشار إلى ما أكده محمد البخيتي، عضو المكتب السياسي لجماعة أنصار الله

(الحوثيين) في مقابلة مع صحيفة إزفيستيا الروسية، أكد فيها أن الحوثيين مستعدون لضمان المرور الآمن للسفن من جميع الدول باستثناء إسرائيل، وشدد بشكل خاص على الضمانات الأمنية للسفن الروسية والصينية.[13] لذلك، بعد ساعات قليلة من تعرض سفينة "سوان أتلانتيك"، المملوكة لرجل أعمال إسرائيلي، لهجوم بطائرة دون طيار نتيجة لهجوم الحوثيين في 18 ديسمبر 2023م، عبرت الناقلة "باترفلاي" الروسية المتجهة إلى الهند محملة بنفط "روسنفت" منطقة الخطر، وعبرت في اليوم نفسه خمس ناقلات أخرى محملة بالنفط الروسي البحر الأحمر بعد مرورها عبر قناة السويس.

لقد نجحت روسيا في تأمين حركة تجارتها عبر البحر الأحمر؛ ففي البداية طرحت بدائلها الممكنة لحماية عبور سفنها في البحر الأحمر، من خلال دراسة للباحثين كوبريانوف أليكسي فلاديميروفيتش، ورامنيك إيليا ألكسندروفيتش، وركزت هذه الدراسة المنشورة في عام 2021م على إمكانية التعاون مع الحوثيين، وذلك من خلال مسارين، الأول: إنشاء هياكل خاصة أو عامة من شأنها أن تشارك في الحماية المباشرة للسفن في البحر الأحمر، بمعنى إنشاء وكلاء خاصين أو قوة مباشرة في المنطقة، لضمان حماية السفن الروسية، والسفن ذات المصالح الاقتصادية الروسية، والشركاء المحتملون في مثل هذا السيناريو يمكن أن يكونوا دول شرق أفريقيا وعلى وجه الخصوص إريتريا. والثاني: تطوير نظام تبادل المعلومات المشروط من نوع "صديق-عدو"، وهو يشير إلى إنشاء نظام ثلاثي لتبادل المعلومات (روسيا-إيران-أنصار الله) بشأن مسألة عبور السفن عبر البحر الأحمر، ويمكن لهذا النظام تجنب عرقلة مرور السفن الروسية عبر المنطقة وتقليل التوتر العسكري بشكل عام.

وبينما كان الخيار الأول لضمان أمن السفن الروسية يتطلب نفقات مالية كبيرة، فإن الخيار الثاني يبدو واعدًا وأكثر فاعلية؛ لأنه يتعلق بالمجال المعلوماتي والدبلوماسي، وهو ما لا يتطلب استثمارات مالية كبيرة[14].

وعلى ما يبدو أن الحوثيين وعدوا كلا من روسيا والصين بعدم مهاجمة سفنهم في البحر الأحمر وخليج عدن، وذلك بحسب ما ذهبت إليه وكالة بولمبرج في 21 مارس 2024م، حيث نقلت عن مصادر لم تسمها أن الطرفين تمكنا من التوصل إلى مثل هذا التفاهم، جاء بعد مفاوضات أجريت في مسقط، ويُزعم أن الحوثيين بعد هذه المحادثات يتوقعون دعمًا سياسيًا من موسكو وبكين في الهياكل الدولية، وخاصة في مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة[15]، وبالنسبة لروسيا يلعب هذا الطريق دورًا إستراتيجيًا؛ لأن أكثر من نصف صادرات النفط الروسية المنقولة بحرًا، أو حوالي مليوني برميل يوميًا تتدفق عبره.

رغم الاعتراضات الروسية على نهج وواشنطن وإدانة سلوكها في الأزمة برمتها، لكنها فعليا لم تتدخل بأي شكل من الأشكال ضد التصرفات الأمريكية في البحر الأحمر، بل نجحت واشنطن في 11 يناير في الحصول على قرار مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة رقم

2722 لإضفاء الشـــرعية على الهجمات على البنية التحتية للحوثيين في اليمن، وروســـيا، خلافًا لعادتها لم تســـتخدم حـــق النقض ضد هذا القرار، ويبدو أن روســـيا كانت راغبة في توريط واشنطن والغرب في الصراع، لهذا بعدما شنت الولايات المتحدة والمملكة المتحدة أولى ضرباتهما ضد الحوثيين في 12 يناير 2024م عقب القرار مباشـــرة، عندها فقط بدأت روسيا تصر على أن القرار المعتمد لا يعطي الحق في ضرب اليمن[16]، ومن الصعوبة بمكان أن نتصور أن الجانب الروســـي عند التصويت على هذه القضية فـــي مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة لم يكن يدرك أن الأمريكيين يمكنهم تفسير البند الخاص بـ "ضرورة القضاء على الأســـباب الجذرية التي تؤدي إلى زيادة التوتر الإقليمي وزعزعة الاســـتقرار" في شن حملة ضد الحوثيين، ولاسيما أنه كان من الواضح خلال التصويت أن الأمور تتجه نحو شن الولايات المتحدة وبريطانيا ضرباتهما[17].

خاتمة

اتبعت روســـيا مقاربات حذرة تجاه العديد من ملفات الصراع في الشـــرق الأوسط، خاصة الملف اليمني؛ نظراً لتشـــابكاته الإقليمية وطبيعة علاقة روسيا مع كل الأطراف الإقليمية الفاعلة في المشـــهد اليمني، فرغـــم رهان جماعة الحوثي على طبيعـــة العلاقة التي تربط طهران بموســـكو في الحصول على اعتراف دولي من الكرملين خصوصا بعد اعتراف طهران بحكومة صنعـــاء الانقلابية، وهو الاعتـــراف الوحيد الذي حصلت عليـــه الجماعة، ورغم اعتراف موســـكو بحكومة هادي باعتبارها الحكومة الشرعية المعترف بها دوليًا، ومع ما تبع ذلك من أحداث في المشـــهد اليمني انتهت بمقتل صالح في ديسمبر 2017م، الذي كانت تربطه علاقة جيدة بموسكو، وما أثار ذلك من حنق روسي تم على إثره نقل السفارة الروسية من صنعاء إلى الرياض، إلا أن جماعة الحوثي لم تيأس من محاولة إظهار نفســـها كجماعة قريبة من توجهات موســـكو وبكين، ويقرأ ذلك من خلال رســـالة القيـــادي الحوثي مهدي المشـــاط إلى موســـكو وطلبه التدخل لحل الأزمة اليمنية، وإيقاف العدوان وفك الحصار على اليمن، فضلاً عن اعتراف الحوثيين باســـتقلال جمهوريتي لوغانسك ودونيتسك فور إعلان موسكو عن عمليتها الخاصة بحســـب الوصف الروسي، كما تدرك موسكو أيضًا أن مقاربتها الحذرة القائمة على اتباع نهج مســـار التوازن بيـــن الأطراف الإقليمية الفاعلة في اليمن سيسهم في تحسين علاقاتها مع الدولتين المهيمنتين في الخليج العربي (السعودية والإمـــارات)، بالنظر لحاجتها إلى ملاذات آمنة لرؤوس أموالها، بســـبب العقوبات الغربية المفروضة عليها بسبب حربها في أوكرانيا خصوصا مع دولة الإمارات، وبما يسهم أيضًا في الحفاظ على علاقاتها مع إيران، وفيما يتعلق بالحرب الإســـرائيلية على غزة، وربط الحوثي عملياته في البحر الأحمر بها، والموقف الروســـي المنحاز لتوجهات المجموعة العربية في الأمم المتحدة، والذي ظهر معظم الأحيان كما لو أنه داعم للمقاومة الفلسطينية. برأيي أن هذا الموقف ما كان ليصبح على ما هو عليه الآن لو لم تكن موســـكو في حالة حرب مفتوحة

مع العواصم الغربية على الساحة الأوكرانية، بالنظر إلى العلاقة الودية التي كانت تجمع الكرملين بحكومات نتنياهو المتطرفة قبل الحرب الأوكرانية، لذلك فروسيا تدرك حاجتها لفتح جبهات جديدة لإضعاف الهيمنة الغربية، وأهمية إشغال الغرب وتشتيت جهوده في جبهات الشرق الأوسط؛ حتى لا ينشغل بها في أوكرانيا.

وبقدر ما منحت أزمة البحر الأحمر لموسكو فرصة طرح مزايا لطرقها اللوجستية البديلة، فضلاً عن زيادة نشاط طرق السكك الحديدية، التي تربط البر الصيني بالروسي وصولاً إلى أوروبا، وبقدر ما أظهرت معاناة الهيمنة الأمريكية حسب وصف مفكري الكرملين، إلا أنها في الوقت نفسه أظهرت ارتباكًا في موقف موسكو تجاه هذه الأزمة، حيث أدانت هجمات الحوثيين، لكنها في الوقت نفسه سمحت بتمرير قرار مجلس الأمن الدولي من خلال امتناعها عن التصويت، ثم نددت بالعدوان الأمريكي البريطاني على اليمن، هذا الارتباك قد يكون مدفوعًا بحالة التوازن الذي ترى موسكو أنها تنتهجها في المنطقة، رغم اختلالها الواضح لصالح طهران، فضلاً عن خشيتها على صادرات نفطها الهائلة التي تمر إلى الهند عبر هذا الطريق، كما أن ربط إدانتها للضربات الأمريكية – البريطانية لمواقع الحوثيين بمحاولة واشنطن تقويض مسار جهود السلام في اليمن، وإفشالاً لمسار مسقط بين الحوثيين والمملكة العربية السعودية يأتي في سياق إظهار موسكو لرغبتها بعدم إغضاب الرياض المهتمة بإنهاء شواغلها الأمنية، وحتى لا ينعكس ذلك سلبا على اتفاقات أوبك+ المتعلقة بخفض الإنتاج، بالإضافة إلى أنها تنظر للتوجهات المستقلة التي أظهرتها الرياض في سياستها الخارجية من خلال حالة "الحياد الدقيق" التي انتهجتها الأخيرة فيما يتعلق بالأزمة الأوكرانية يأتي في سياق دعم دول الجنوب العالمي للتوجه الرئيس لموسكو الداعي إلى بناء نظام عالمي متعدد الأقطاب.

لكن ما بدا لافتًا للنظر خلال الأشهر الأخيرة من عمر هذه الأزمة أن الإعلام الروسي المقرب من الكرملين يدعو بشكل متواصل إلى ضرورة تزويد الحوثيين بالخبرات والتقنيات اللازمة والأسلحة، واعتبار الحركة حليفًا مهمًا لموسكو، ويبدو الأمر كما لو أن له علاقة بتطورات متسارعة تشهدها الجبهة الأوكرانية، وزيادة في حجم الدعم الغربي لنظام كييف، وهو ما ينذر بانتقال الصراع مع الناتو الى مرحلة أكثر خطورة.

المصادر والمراجع

(1) О встрече спецпредставителя Президента Российской Федерации по Ближнему Востоку и странам Африки, заместителя Министра иностранных дел России М.Л.Богданова с делегацией йеменского движения «Ансар Алла» [Электронный ресурс] //МИД РОССИИ Официальный сайт (02.07.2024), дата обращения :11.08.2024, https://n9.cl/2vm841

(2) Лавров назвал сопоставимым влияние на экономику хуситов и санкций против России, [Электронный ресурс] // interfax, (27.02.2024), дата обращения:17.04.2024, https://n9.cl/1xns7

(3) ХУСИТЫ ВЗЯЛИ ЗАПАД ЗА ПОДВОДНЫЕ КАБЕЛИ: РУКА КРЕМЛЯ ПОКАЗАЛА ФИГУ ИЗ КРАСНОГО МОРЯ, [Электронный ресурс] // Царьград, (28. 02.2024), дата обращения :07.05.2024, https://goo.su/HckvhX

(4) Нам не хватает своих «хуситов» , [Электронный ресурс], zavtra.ru , (23. 05. 2024), дата обращения :03.05.2024, https://goo.su/ohJajG

(5) Putin's 'Merchant of Death' Is Back in the Arms Business. This Time Selling to the Houthis. The Wall Street Journal. https://goo.su/cHZTc0F 7.10.2024, [2024 13 October on viewed Last]

(6) Бут: статья про продажу оружия хуситам – «подарок» Запада нашему лидеру, [Электронный ресурс] // ren.tv, 07 октября 2024, https://goo.su/ztfMyg (дата обращения :14.10.2024)

(7) Владимир Сажин: «Союзники хуситов ХАМАС и Иран реально помочь в военном плане не могут» [Электронный ресурс] // business-gazeta, (24 января 2024), дата обращения :11.05.2024, https://goo.su/hitgLK

(8) В МИД России прошли переговоры с делегацией хуситов, [Электронный ресурс], радио sputnik, (25. 01.2024), дата обращения: 22.03.2024, https://n9.cl/ktqh7

(9) Кремль осудил американские и британские удары по Йемену, [Электронный ресурс], РИА НОВОСТИ, (12.01.2024), дата обращения:14.05.2024, https://goo.su/m808SR

(10) Abdullah Al-Shadli, Will Russia Play a Bigger Role in Yemen?, south 24, (18-03-2023), accessed: September 2, 2024, https://n9.cl/ys7br

(11) Как атаки хуситов в Красном море влияют на мировую торговлю, [Электронный ресурс] // journal.tinkoff, (26.01.2024), дата обращения :28.04.2024, https://n9.cl/wph6l

(12) Хуситы в Москве. Йемен присоединяется к российскому макрорегиону?» [Электронный ресурс], информационное агентствоiarex.ru21) , июля 2024), дата обращения :11.08.2024, https://clck.ru/3CfZYH

(13) Хуситы пообещали свободный проход судам России по Красному морю,]Электронный ресурс], «Известия». НОВОСТИ (19.01.24), дата обращения :09.05.2024, https://n9.cl/91rqt

(14) уприянов А. В., Крамник И. А. Перспективы и проблемы использования морских частных военных компаний "нового облика" в Восточной Африке, Анализ и прогноз. Журнал ИМЭМО РАН. (EDN: FCOJBX. – № 1. – С. 84-98. – DOI: 10.20542/afij-2021-1-84-98. –2021), https://n9.cl/fehl4

(15) Эксперт объяснил, зачем хуситы могут сближаться с Россией и Китаем, [Электронный ресурс] // ИА Регнум, (22 марта, 2024), дата обращения :29.05.2024, https://n9.cl/xyjt2

(16) Востоковед Никита Смагин о ситуации вокруг судоходства в Красном море [Электронный ресурс] rutube.ru, дата обращения :28.04.2024,

(17) Востоковед Никита Смагин о ситуации вокруг судоходства в Красном море, там. же

آفاق الوساطة الدبلوماسية الصينية بين المملكة العربية السعودية وإيران

محمـــد زريـــق

باحـــث في الشـــؤون الصينيـــة

مستخلص:

تتنـاول هـذه الدراسـة الوسـاطة الصينيـة في حـل الصـراع بين المملكـة العربيـة السـعودية وإيـران، وتـدرس تحـوُّل الـصين مـن اسـتخدام القـوَّة الناعمـة إلى اعتمـاد نهْـج أكثرجيوسياسـية. كما تبحـث هـذه الدراسـة في السـياقات التاريخيـة للعلاقـات السـعودية-الإيرانية، وأهمِّيـة الاتفـاق الدبلومـاسي الأخير، الـذي توسَّـطت فيـه الـصين، بـل تحلِّـل إستراتيجيـة الوسـاطة الصينيـة وفعاليتهـا وآثارهـا علـى الاسـتقرار الإقليمي والديناميكيـات الدبلوماسـية العالميـة، كمـا تخـوض في مـدى نجـاح أو فشـل التحـوُّل الجيوسـياسي الصيني، والتكاليـف المترتِّبة علـى الموقف الدبلومـاسي الجديد. وتسـتخدم الدراسـة منهجيـة وصفيـة تحليليـة، وذلـك باسـتخدام مصـادر ثانويـة لإجـراء دراسـة نقديـة، لتـقصِّي أثـر الـصين علـى الشـرق الأوسـط والعلاقـات الدولية.

الكلمـات المفتاحيـة: الصيـن، الصـراع السـعودي-الإيراني، الوسـاطة، الجغرافيـا السياسـية، الاسـتقرار الإقليمـي.

Abstract

This research article explores China's mediation in the conflict between Iran and Saudi Arabia, examining its transition from the use of soft power to the adoption of a more geopolitical approach. It investigates the historical context of Iran–Saudi relations and the significance of the recent diplomatic agreement brokered by China. The research article analyzes China's mediation strategy, its effectiveness, and the implications for regional stability and global diplomatic dynamics. It also delves into the potential success or failure of China's geopolitical shift and the costs associated with this new diplomatic stance. The research article employs an analytical descriptive methodology, utilizing secondary sources to critically examine the impact of China on Middle Eastern and international relations.

Keywords: China, Iran–Saudi conflict, mediation, geopolitics, regional stability.

مقدِّمة

ينبثــق الصراع بين المملكة العربية الســعودية وإيــران من عدَّة عوامــل تاريخية ودينية وجيوسياسية، ويمكن إرجاع ذلك إلى تاريخ تأسيس «الجمهورية الإسلامية الإيرانية» في عام 1979م، الذي كان بمثابــة نقطة تحوُّل كبيرة في ديناميكيات القوَّة الإقليمية[1]، إذ جلبت الثورة الإيرانية بقيادة الخميني نظامًا ثيوقراطيًا شــيعيًا إلى السُــلطة؛ ما شكَّل تحدِّيًا على الوضع الراهن، الذي يهيمن عليه السُنَّة في الشرق الأوسط[2].

وكانت المملكة العربية الســعودية -وهي مملكة سُــنِّية والوصية على أقدس المواقع الإسلامية- تنظر إلى النظام الشــيعي الجديد في إيران، على أنَّه تهديدٌ مباشــر لسُلطتها الدينية ونفوذها الإقليمي، وكان الانقسام الأيديولوجي بين السُنَّة والشيعة سببًا في تغذية التنافس، إذ يتنافس البلدان على زعامة العالم الإسلامي[3].

ومن الناحية الجيوسياســية، تفاقم الصراع بســبب المنافســة من أجل الهيمنة على المناطق الإستراتيجية الرئيسية، مثل منطقة الخليج، وأسفر التنافس أيضًا عن المنافسة العسكرية، فكلا البلدين يستثمران وبقوَّة في مجال القُدرات الدفاعية، ويسعيان إلى إقامة تحالُفات مع القُوى العالمية الكُبرى[4]. هذا وقد أثَّر الصراع ســلبًا على الاســتقرار الإقليمي، وغالبًا ما أعاق الجهود المبذولة لحل الصراعات الأخرى، وساهم في نشوء التوتُّرات الطائفية في جميع أنحاء الشرق الأوسط.

ويمثِّل الدور الناشئ، الذي تلعبه الصين كوسيط في الصراع السعودي-الإيراني، تحوُّلاً كبيرًا في سياســتها الخارجية ونهجها الدبلوماســي، فالصين معروفــة تقليديًا بمبدأ عدم التدخُّل في الشؤون الداخلية للدول الأخرى، لكنّها مالت تدريجيًا نحو لعِب دورٍ أكثر نشاطًا في تسوية الصراعات الدولية، خاصَّةً في الشرق الأوسط[56].

ويمكن القول إنَّ جهود الوساطة الصينية، مدفوعة بمصالحها الاقتصادية والإستراتيجية المتنامية فــي المنطقة، فالصين من منطلق كونها أكبر مســتورد للنفــط في العالم، لها مصلحة راسخة في ضمان الاســتقرار في الشرق الأوســط لتأمين إمداداتها من الطاقة[7]. بالإضافة إلى ذلك، تُعَدُّ المنطقة جزءًا مهمًّــا من «مبادرة الحزام والطريق» الصينية، التي تهدُف إلى تعزيز الاتصال والتكامل الاقتصادي عبر آسيا وأفريقيا وأوروبا.

ويمتاز نهْج الصين في الوســاطة، بالتركيز على الحــوار والمفاوضات، إلى جانب تبنِّي موقــف محايد. وعلى عكس القُــوى الغربية، التــي غالبًا ما تنحاز إلى أحــد الجانبين في الصراعات الإقليمية، فإنَّ الصين تقدِّم نفســها كوســيط محايد، وتســتفيد من علاقاتها الجيِّدة مع كلٍّ من المملكة العربية السعودية وإيران، وقد منح هذا الحياد -مقترِنًا بحضورها الاقتصادي- الصين ميزة فريدة في تسهيل الحوار بين الدول المتنافسة.

وتعكس إستراتيجية الوساطة الصينية أيضًا أهداف سياستها الخارجية الأوسع نطاقًا، المتمثِّلــة في تعزيز نظام عالمي متعــدِّد الأقطاب، والحدّ من نفــوذ الولايات المتحدة في

الشرق الأوسط[8]. وتهدُف الصين من خلال لعِب دورٍ بنّاء في حل الصراعات الإقليمية، إلى تعزيز استقرارها العالمي، وترسيخ نفسها على أنَّها قوَّة كُبرى مسؤولة.

وقد اكتسبت الجهود الدبلوماسية، التي بذلتها الصين، بروزًا أكبر في السنوات الأخيرة، كما تجلَّى في دورها كوسيط في الاتفاق التاريخي لاستعادة العلاقات الدبلوماسية بين المملكة العربية السعودية وإيران، وقد أظهر هذا النجاح إمكانات الصين كوسيط، وبرز نفوذها المتنامي في تشكيل المشهد الجيوسياسي في الشرق الأوسط.

ويتلخَّص الغرض من هذه الدراسة، في إجراء دراسة نقدية لدور الصين كوسيط في الصراع بين المملكة العربية السعودية وإيران، مع التركيز على التحوُّل من استخدام الصين للقوَّة الناعمة، إلى تبنِّي نهْج أكثر جيوسياسية. وتهدُف الدراسة إلى تقييم مدى فعالية إستراتيجية الوساطة الصينية، وتأثيرها على الاستقرار الإقليمي، وتداعياتها على الديناميكيات الدبلوماسية العالمية. وتسعى الدراسة -من خلال تحليل نُهج الصين في حل الصراعات وتأثيرها في الشرق الأوسط- إلى المساهمة في فهْم الاتّجاهات الناشئة في الدبلوماسية الدولية، ودور القُوى الصاعِدة في تشكيل السياسة العالمية.

وتكمُن أهمِّية هذه الدراسة، في تناولها لهذا التطوُّر المحوري في منطقة الشرق الأوسط، وهي منطقة ذات أهمِّية إستراتيجية للأمن العالمي وأسواق الطاقة، وبالتالي يصبح فهْم دور الصين -مع استمرار ترسيخ وجودها على المسرح العالمي- في التوسُّط في الصراعات الإقليمية، أمرًا بالغ الأهمِّية بالنسبة لصُنّاع السياسات والباحثين والمراقبين الدوليين. وستوفِّر نتائج هذه الدراسة رؤى قيِّمة حول تعقيدات السياسة الخارجية للصين، وإمكاناتها كصانعة للسلام؛ ما يوفِّر منظورًا دقيقًا للديناميكيات المتطوِّرة للقوَّة والدبلوماسية في القرن الحادي والعشرين.

أولاً: الإطار النظري

يتطرَّق الإطار النظري إلى مفهوم الوساطة، والقوَّة الناعمة، والجغرافيا السياسية في الدبلوماسية، وذلك على النحو الآتي:

1. نظريات الوساطة في الصراعات

توفِّر نظريات الوساطة في الصراعات إطارًا لفهم وحل الصراعات، من خلال تدخُّل طرف ثالث محايد. وتشمل هذه النظريات مجموعة من المناهج والإستراتيجيات، التي تهدُف إلى تسهيل التواصل والتفاوض والاتفاق بين الأطراف المتنازعة. وتتناول السطور التالية بعض النُهُج الأساسية في الوساطة في الصراعات:

أ. النهج العلائقي القائم على المصالح، والذي يركِّز على تحديد ومعالجة المصالح الأساسية للأطراف، بدلًا من مواقفهم المُعلَنة[9]. ويؤكِّد هذا النهج على أهمِّية بناء العلاقات، وإيجاد حلول مفيدة للطرفين تلبِّي احتياجات جميع المشاركين.

ب. نهْج الوســـاطة التحويلية، ويهدُف إلى تغيير طريقـــة إدراك الأطراف وتفاعلهم مع بعضهم البعض. ويســـعى هذا النهج إلى تمكين الأفراد وتشـــجيع الاعتراف المُتبادَل؛ ما يؤدِّي إلى تحوُّلٍ في علاقتهم، وحلِّ الصراع[10].

ج. نهْج الوساطة الســـرْدية، ويركِّز على دورٍ حول الروايات المسرودة في الصراعات؛ ما يُشير إلى أنَّ الصراعات تنشأ من تضارُب الروايات[11]. ويساعد الوُسطاء الأطراف على إعادة صياغة رواياتهم، وفهْم وجهات نظر بعضهم البعض، والمشاركة في بناء سرْد جديد يعترف بالجانبين[12].

د. نهْج التفاوض التكاملي -والمعروف أيضًا باســـم التفـــاوض المُربِح للجانبين- وهو إستراتيجية تسعى إلى إيجاد حلول تُرضي جميع الأطراف، وترقى لمصالحهم. ويُشجِّع هذا النهج على حل المشكلات بشكل تعاوني، والتفكير الخلّاق لتحقيق نتائج مفيدة للجميع[13].

ويمكن تطبيق هذه النُهُج في ســـياق الدبلوماســـية الدولية لفهم الكيفية، التي يتعامل بها الوُسطاء مع الصراعات الجيوسياســـية المعقَّدة، كما هو الحال مع وساطة الصين في الصراع الســـعودي-الإيراني، ويهدُف الوُسطاء من خلال استخدام إستراتيجيات الوساطة المختلفة، إلى تضييق هوَّة الخلافات، وتعزيز الحوار، وتشجيع الحلول السِلْمية.

2. القوَّة الناعمة والجغرافيا السياسية في الدبلوماسية

يُعَدُّ مفهوما القوَّة الناعمة والجغرافيا السياسية مفهومين حاسمين في عالم الدبلوماسية، ويؤثِّران على الكيفية، التي تتفاعل بها الدول، والطريقة التي ترسِّـــخ بها الدول من نفوذها على المسرح العالمي. ويعني مصطلح «القوَّة الناعمة»، الذي صاغه جوزيف ناي، القُدرة على الجذب والضمّ دون الإكراه أو اســـتخدام القوَّة كوسيلة للإقناع[14]. وتنبثق القوَّة الناعمة من ثقافة البلد، وقِيَمه السياسية، وسياساته الخارجية، والتي من شأنها أن تعمل على توليد النوايا الحسنة، وتعزيز التعاون الدولي. وغالبًا ما تُستخدَم القوَّة الناعمة في الدبلوماسية، من خلال التبادلات الثقافيـــة، والبرامج التعليمية، ومبادرات الدبلوماســـية العامَّة؛ لبناء تصوُّرات وعلاقات إيجابية تسهِّل تحقيق أهداف السياسة الخارجية[15].

ومن ناحية أخرى، تشـــمل الجغرافيا السياسية دراســـة الكيفية، التي تؤثِّر بها العوامل الجغرافيـــة -مثل الموقع والموارد والتضاريس- على القرارات السياســـية، وديناميكيات السُـــلطة. وفي الدبلوماســـية، تلعـــب الجغرافيا السياســـية دورًا حاســـمًا في تشـــكيل الإستراتيجيات والإجراءات، إذ تسعى الدول إلى حماية مصالحها، وتأمين الموارد، وممارسة النفوذ في المناطق ذات الأهمِّية الإســـتراتيجية[16]. وغالبًا ما تُحفِّز العوامل الجيوسياســـية اندلاع الصراعات والمفاوضات، وعملية إنشـــاء التحالفات، فـــي الوقت الذي تنخرط فيه الدول في التفاعلات المعقَّدة بين القوَّة والأمن والطموحات الإقليمية.

ويتجلَّى التفاعل بين القوَّة الناعمة والجغرافيا السياســـية في الدبلوماسية الحديثة، إذ تســـتخدم الدول مزيجًا من التأثير الثقافي والمواقع الإستراتيجية لتعزيز مصالحها. وعلى

سبيل المثال، تكشف «مبادرة الحزام والطريق» الصينية استخدام بكين للقوَّة الناعمة، من خلال التنمية الاقتصادية، والتبادلات الثقافية، في حين تسعى في الوقت نفسه إلى تحقيق أهداف جيوسياسية، من خلال توسيع بصمتها الإستراتيجية عبر آسيا وأفريقيا وأوروبا.

3. إستراتيجية الوساطة الصينية في هذا السياق

تتّصِل مفاهيم القوَّة الناعمة والجغرافيا السياسية اتصالًا وثيقًا بإستراتيجية الوساطة الصينية، خاصَّةً في دورها كوسيط في الصراع السعودي-الإيراني. وينبثق النهج الذي تتبنّاه الصين في التعامل مع الوساطة، من عُمق أهداف سياستها الخارجية الأوسع، التي تسعى إلى إيجاد التوازن بين ميلها للقوَّة الناعمة وطموحاتها الجيوسياسية[17].

وتتجلَّى قوَّة الصين الناعمة، في جهودها الدبلوماسية الرامية إلى تقديم نفسها كوسيط محايد يحترم سيادة ومصالح كافَّة الأطراف، وتهدُف الصين من خلال تعزيز ثقافتها وطرْح نموذج التنمية الاقتصادية ومبادئ عدم التدخل والتعايُش السِلْمي، إلى بناء الثقة والمصداقية بين دول الشرق الأوسط، ويُيَسِّر نهْج القوَّة الناعمة على الصين دخولها في المشهد الدبلوماسي في المنطقة؛ ما يمكِّنها من العمل كوسيط في صراعات، مثل الصراع السعودي-الإيراني.

وفي الوقت نفسه، تتأثَّر إستراتيجية الوساطة الصينية بمصالحها الجيوسياسية، ويُعَدُّ الشرق الأوسط منطقة حيوية لأمن الطاقة في الصين، ونجاح «مبادرة الحزام والطريق»[18]. وتسعى الصين من خلال التوسُّط في الصراعات وتعزيز الاستقرار في المنطقة، إلى حماية مصالحها الاقتصادية، وتعزيز حضورها الإستراتيجي. وعلاوةً على ذلك، تتوافق جهود الوساطة التي تبذلها الصين، مع هدفها الأوسع المتمثِّل في وضْع نفسها كقوَّة عالمية كُبرى قادرة على تشكيل الشؤون الدولية.

ثانيًا: السياق التاريخي

لم تُولَد الوساطة الصينية بين المملكة العربية السعودية وإيران من فراغ، لكنَّها ارتبطت بسياقٍ تاريخي، وتطوُّرات مهمَّة لا يمكن إغفالها. في هذا الإطار، يمكن الإشارة إلى ما يأتي:

1. نظرة عامَّة على العلاقات السعودية-الإيرانية

سادت علاقة المملكة العربية السعودية وإيران عقودًا من التنافس والتوتُّر، التي شُكِّلت بفعل عوامل دينية وأيديولوجية وجيوسياسية، فقد تنافست الدولتان -اللتان تمثِّلان كلًّا من الإسلام السُنِّي والشيعي- على النفوذ والزعامة في العالمين العربي والإسلامي؛ الأمر الذي أدَّى إلى تفاقُم الانقسامات الطائفية.

وكانت الثورة الإيرانية من عام 1979م، التي أسَّست نظامًا ثيوقراطيًا شيعيًا، نقطة تحوُّل في العلاقات السعودية-الإيرانية، وكان يُنظَر إلى الأيديولوجية الثورية للحكومة الإيرانية الجديدة ودعواتها للإطاحة بالأنظمة الملكية في منطقة الخليج، على أنَّها تهديدات مباشرة

من جانب النظام الملكي الســـعودي[19]، وردًّا على ذلك، ســـعت المملكة العربية السعودية إلى مواجهة النفوذ الإيراني، من خلال تعزيز أوراق اعتمادها الدينية والسياســـية، وتشكيل تحالُفات مع الدول الأخرى ذات الأغلبية السُنِّية[20].

واشـــتَدَّ هذا التنافس خلال الحرب الإيرانية–العراقية فـــي الثمانينيات، حيث دعمت المملكة العربية السعودية العراق كقوَّة موازِنة لنفوذ إيران المتنامي[21]، ثمَّ اتَخذ الصراع في العقود التالية شكلًا غير مباشر، من خلال توظيف الوكلاء، وعلى الأخصّ في سوريا واليمن ولبنان، ودعْم كلا البلدين الفصائل المتعارِضة.

وظلَّت العلاقة محفوفة بالشكوك والعداء المُتبادَل، على الرغم من الجهود الدبلوماسية، ومحاولات الحوار بين الحين والآخر. هذا وعمِلَت التطوُّرات الأخيرة، مثل هجوم عام 2021م على منشـــآت النفط الســـعودية، الذي ألقت الريـــاض باللوم فيه على طهـــران والصراع المستمِرّ في اليمن، على استمرار توتُّر العلاقات؛ ما جعل أيّ احتمال للمصالحة صعبًا[22].

2. تطوُّر سياسة الصين الخارجية

اتَســـم تطوُّر السياســـة الخارجية للصين بتحوُّلات كبيرة، منـــذ تأسيس جمهورية الصين الشعبية في عام 1949م. ففي البداية، تأثَّرت سياســـة الصين الخارجية، بشدَّة، بتحالفها الأيديولوجي مع الاتحاد السوفييتي، وتركيزها على دعْم الحركات الشيوعية في جميع أنحاء العالم، ومع ذلك، دفَعَ الانقســـام الصيني–السوفييتي في الســـتينيات الصين، إلى تبنِّي موقف أكثر استقلالية في السياسة الخارجية[23].

ثمَّ شهِدَت السياسة الخارجية للصين في السبعينيات تحوُّلًا كبيرًا، مع تطبيع العلاقات مع الولايات المتحدة[24]، وكان هذا التحوُّل مدفوعًا بعوامل إستراتيجية؛ لموازنة نفوذ الاتحاد الســـوفييتي، ومتابعة الحداثة الاقتصادية. وكان انفتاح الصين علـــى العالم في عهْد دنغ شياو بينج، في أواخر الســـبعينيات وأوائل الثمانينيات، بمثابة تحوُّل إضافي عن السياسة الخارجية الأيديولوجية نحو البراغماتية والتنمية الاقتصادية[25].

وقد اتّسمت سياسة الصين الخارجية، منذ تســـعينيات القرن العشرين، بإستراتيجية «الصعود السِلْمي»، أو «التنمية السِـــلْمية»، التي ترسِّخ مفاهيم عدم المواجهة والتعاون الاقتصادي وتعدُّد الأطراف[26]، وقد ســـعت الصين إلى طمأنة العالم حول نواياها الحميدة، في الوقت الذي تشـــهد فيه قوَّتها نموًا، مع التركيز على بناء الشـــراكات، ودمْج نفسها في الاقتصاد العالمي.

وأصبحت السياسة الخارجية للصين في السنوات الأخيرة، وفي عهد الرئيس شي جين بينـــج، أكثر حزمًا، كما يتّضِح من «مبادرة الحزام والطريق»، والمطالبات الإقليمية في بحر الصين الجنوبي، والجهود الرامية إلى زيادة وجودها في المؤسَّســـات الدولية. وقد دفعت قُدرات الصين الاقتصادية والعســـكرية المتنامية بها، إلى اتِّبـــاع نهْج أكثر ثقة في تحقيق مصالحها، وتأكيد دورها كقوَّة عالمية كُبرى.

3. التحوُّل من القوَّة الناعمة إلى الجغرافيا السياسية

يعكس التحوُّل من القوَّة الناعمة إلى الجغرافيا السياسية في العلاقات الدولية، تغيُّرًا في الكيفية، التي تمارس بها الدول نفوذها وسعيها إلى تحقيق مصالحها على المسرح العالمي؛ فالقوَّة الناعمة –وهو مفهوم من صياغة جوزيف ناي– تركِّز على قُدرة أيّ بلد على استمالة الآخرين واستيعابهم، من خلال الجاذبية الثقافية والقِيَم السياسية والسياسات الخارجية، بدلًا من الإكراه، أو استخدام القوَّة كوسيلة للإقناع[27]، فهي تتمحور حول تشكيل التفضيلات، وبناء التصوُّرات الإيجابية؛ لتحقيق النتائج المرجُوَّة.

وفي المقابل، تركِّز الجغرافيا السياسية على الاستخدام الإستراتيجي للعوامل الجغرافية، مثل الموقع والموارد والتضاريس؛ لاكتساب النفوذ السياسي، وتأمين المصالح الوطنية[28]، فهي تنطوي على نهْج أكثر تقليدية وواقعية في العلاقات الدولية، تلعب فيه ديناميكيات القوَّة والسيطرة الإقليمية والقُدرات العسكرية دورًا مركزيًا.

ويمكن فهْم التحوُّل من القوَّة الناعمة إلى الجغرافيا السياسية، ضمن إطار الطبيعة المتغيِّرة للتحدِّيات العالمية، وصعود قُوى جديدة. وثمَّة تركيزٍ متنامٍ –في الوقت الذي تواجه فيه البلدان تهديدات أمنية أكثر تعقيدًا وتعدُّدًا مثل الحرب السيبرانية والإرهاب والتنافس على الموارد– على الإستراتيجيات الجيوسياسية؛ للتغلُّب على هذه التحدِّيات. وبالإضافة إلى ذلك، فقد أدَّى صعود دول مثل الصين وروسيا –التي أصبحت حازِمة جدًّا في الدفاع عن مصالحها الإقليمية والعالمية– إلى تجدُّد التركيز على الجغرافيا السياسية[29].

ولهذا التحوُّل آثارٌ على الدبلوماسية والتعاون الدولي وحلّ الصراعات، وفي حين تظَلّ القوَّة الناعمة أداةً مهمَّة لبناء التحالُفات، وتعزيز النوايا الحسنة. إلّا أنَّ عودة ظهور الجغرافيا السياسية، تسلِّط الضوء على الأهمِّية الدائمة لتحديد المواقع الإستراتيجية وسياسات القوة، في تشكيل الشؤون العالمية.

ثالثًا: إستراتيجية الوساطة الصينية

استخدمت الصين أدواتها وأوراقها؛ من أجل إنجاح وساطتها بين السعودية وإيران، ويمكن توضيح ذلك، من خلال ما يأتي:

1. النهج والتكتيكات الدبلوماسية

تتميَّز إستراتيجية الوساطة الصينية في الصراعات الدولية، مثل الصراع السعودي–الإيراني بنهج دبلوماسي متميِّز، ومجموعة من التكتيكات، التي تعكس مبادئ وأهداف سياستها الخارجية الأوسع. وتتمثَّل أحد العناصر الأساسية للنهج الدبلوماسي الصيني، في التزامها بمبدأ عدم التدخُّل في الشؤون الداخلية للدول الأخرى[30]. ويسمح هذا المبدأ للصين بوضع نفسها كوسيطٍ محايد؛ قادر على تسهيل الحوار بين الأطراف المتنازعة،

مـــن دون أن يُنظَر إليها على أنَّ لها مصلحة خاصَّة في النتائج، وهذا الحياد أمرٌ بالغ الأهِّمية؛ لكسب ثقة طرفي الصراع، ولخلق بيئة مواتية للتفاوض.

وتســـتخدم الصين أيضًا نهجًا خفيًا من وراء الكواليس في الوســـاطة، إذ تفضِّل الصين غالبًا الدبلوماســـية الهادئة، بدلًا من السعي إلى جذْب انتباه الرأي العام، أو الاضطلاع بدورٍ قيادي في مبادرات السلام رفيعة المســـتوى، بل وتنخرط في مناقشات منفصلة، وتعرض مساعيها الحميدة لتسهيل المحادثات. ويساعد هذا النهج على تجنُّب تفاقُم التوتُّرات، أو إثارة المقاومة من جانب الجهات الخارجية الأخرى المشاركة في الصراع.

وتستفيد الصين فيما يتعلَّق بالتكتيكات، من نفوذها الاقتصادي، ومساعداتها التنموية في عملية الوساطة[31]. ويمكن للصين من خلال تقديم الحوافز الاقتصادية، مثل الاستثمار أو المساعدات أو الفُرَص التجارية، تشجيع الأطراف المتنازِعة على المشاركة في الحوار، والسعي إلى التوصُّل إلى حلول سِلْمية[32]. ويكون هذا النفوذ الاقتصادي فعّالًا بشكل خاص في المناطق، التي تـــشكِّل التنمية الاقتصادية فيهـــا أولوية، إذ يوفِّر ذلك حافزًا ملموسًـــا للتعاون. كما تتضمَّن إستراتيجية الوساطة الصينية منظورًا طويل الأمد، منبثِق من إدراكها أنَّ الصراعات المعقَّدة لا يمكن أن تُحَلّ بين عشية وضحاها. هذا ويُعرَف عن الدبلوماسيين الصينيين بصبرهـــم ومثابرتهم، وبناء العلاقات والثقة تدريجيًـــا مع مرور الوقت، وهو أمرٌ ضروري للوساطة الفعّالة.

2. دور المصالح الاقتصادية والسياسية

تُعَدُّ المصالح الاقتصادية والسياســـية أمرًا محوريًا في إستراتيجية الوساطة الصينية في الصراعـــات الدولية، فهذه المصالح لا تحفِّز الصين على المشـــاركة في جهود الوســـاطة فحسب، بل إنَّها تشكِّل أيضًا وجه التكتيكات والأساليب، التي تستخدمها.

ولدى الصين من الناحية الاقتصادية مصالح كبيرة في الشرق الأوسط، خاصَّةً في تأمين موارد الطاقة، وتوســـيع «مبادرة الحزام والطريق»، إذ تُعَدُّ المنطقة موِّردًا رئيســـي للنفط والغاز إلى الصين. وبالتالي، فإنَّ اســـتقرار المنطقة، هو أمـــرٌ بالغ الأهمِّية لضمان إمدادات الطاقة دون انقطاع[33]. وتهدُف الصين من خلال جهود الوســـاطة، التـــي تبذلها، إلى تعزيز بيئة مســـتقِرَّة تحمي مصالحها في مجال الطاقة، وتســـهيل تنفيذ مشاريع البنية التحتية والاستثمار في «مبادرة الحزام والطريق». كما تسعى الصين أيضًا، من خلال وضْع نفسها كوســـيط للسلام، إلى تعزيز سُمعتها كقُوة عالمية مســـؤولة وقادرة على جذْب المزيد من الشراكات الاقتصادية وفُرَص الاستثمار.

ومن الناحية السياسية، تتوافق جهود الوساطة الصينية مع أهداف سياستها الخارجية الأوســـع نطاقًا؛ المتمثِّلة في تعزيز نظـــام عالمي متعدِّد الأقطاب، والحـــدّ من نفوذ القُوى الغربية –خاصَّةً الولايات المتحدة– في الشرق الأوسط. ويمكن للصين من خلال التوسُّط الناجح في الصراعات، أن تنمِّي من حضورها السياســـي، وترسِّـــخ نفسها كلاعب رئيسي

في الشـــؤون الإقليمية والعالمية، وهو ما يعزِّز نفوذها الدبلوماســـي، ومكانتها في المحافل الدولية.

وفضلًا عن ذلك، فإنَّ جهود الوساطة، التي تبذلها الصين، تشكِّل جزءًا من إستراتيجيتها الرامية إلى إبراز القوَّة الناعمة، وبناء الشراكات الإستراتيجية. هذا ويمكن للصين من خلال المساهمة في السلام والاستقرار في الشرق الأوسط، تنمية حُسن النوايا، وتعزيز علاقاتها مع دول المنطقة، التي تحمل أهمِّية على الصعيدين الاقتصادي والإستراتيجي.

3. مقارنات مع جهود الوساطة السابقة

يمكن مقارنة جهود الوساطة، التي تبذلها الصين في الصراعات، بجهود الوساطة السابقة، التي بذلتها جِهات فاعِلة أخرى، في عدَّة جوانب رئيسية.

أ. النهج والأسلوب: خلافًا للقُوى الغربية، التي غالبًا ما تتبنَّى نهجًا أكثر مباشرة ووضوحًا في التعامل مع الوساطة، فإنَّ الأسلوب الصيني يتّسِم بالتحفُّظ والتكتُّم. وقد يلجأ الوُسطاء الغربيون، مثل الولايـــات المتحدة أو الاتحاد الأوروبي، إلى الدبلوماســـية العامَّة، أو الإدلاء بتصريحات قوية، أو فرْض شروط للمفاوضات[34]. وفي المقابل، تفضِّل الصين الدبلوماسية الهادئة، مع التركيز على المفاوضات خلف الكواليس، وتجنُّب إصدار الإنذارات أو الضغوط العلنية.

ب. المبادئ: تسترشد جهود الوساطة الصينية بمبدأ عدم التدخُّل في الشؤون الداخلية للبلدان الأخرى، ويتنافى هذا المبدأ مع بعض جهود الوساطة، التي يقودها الغرب، التي قد يُنظَر إليها على أنَّها تحمل أجندة خفية، أو تحاول فرْض قِيَم أو حلول خارجية على الأطراف المتنازِعة، ويُنظَر إلى أسلوب الصين على أنَّه أكثر حيادًا واحترامًا لسيادة الدول المعنية.

ج. النفـــوذ الاقتصادي: غالبًا ما تســـتخدم الصيـــن قوَّتها الاقتصاديـــة كأداة في جهود الوســـاطة، فيمكن للصيـــن من خلال تقديم الحوافـــز الاقتصادية، مثل الاســـتثمارات أو الفَرَص التجارية، تشـــجيع الأطـــراف المتصارِعة على الجلوس إلـــى طاولة المفاوضات. ويشكِّل هذا النفوذ الاقتصادي سِمةً مميَّزة لإستراتيجية الوساطة الصينية، مقارنةً بالجهود الدبلوماسية التقليدية، التي قد تعتمد بشكل أكبر على الضغط السياسي، أو العسكري.

د. المنظور طويل الأمد: تتميَّز جهود الوســـاطة الصينية بمنظور طويل الأمد، إذ تُدرِك أنَّ الصراعات المعقَّدة تتطلَّب وقتًا وصبرًا لحلِّها، وهذا يتناقض مع بعض جهود الوســـاطة السابقة، التي ربما سعت إلى إيجاد حلول أسرع، لكن أقلّ استدامة للصراعات.

هـ. السياق الجيوسياسي: يمكن القول إنَّ ثمَّة اختلاف في السياق الجيوسياسي لجهود الوساطة الصينية، إذ تشكِّل مشاركة الصين في الوســـاطة، من منطلق كونها قوَّة عالمية صاعدة، جزءًا من إســـتراتيجيتها الأوســـع لتأكيـــد نفوذها على الســـاحة الدولية، وتحدِّي الهيمنة التقليدية للقُوى الغربية. وهذا يتناقض مع جهود الوســـاطة الســـابقة، التي رُبَّما

كانت مدفوعة بالمصالح الإستراتيجية للقُوى الراسِخة في الحفاظ على نفوذها في مناطق معيَّنة.

و. النتيجة والأثر: لا تزال نتائج جهود الوســـاطة الصينية في طور التطوُّر، ويبقى أن نرى مدى فعاليتها على المدى الطويل. ويمكن القول إنَّ نتائج جهود الوســـاطة السابقة، التي بذلتها جهات فاعِلة أخرى، قد جاءت مختلطة، إذ أســـفر بعضها عن اتفاقيات سلام دائمة، بينما فشـــل البعض الآخر في التوصُّل إلى حلٍّ دائم[35]. ويعتمد نجاح الصين في الوســـاطة، على قُدرتها على الإبحار عبر الديناميكيات المعقَّدة للصراعات، التي تنخرط فيها، وقُدرتها على تقديم حلول مقبولة لجميع الأطراف المعنية.

رابعًا: الآثار على الاستقرار الإقليمي

كان للوساطة الصينية تأثيرات جوهرية على التفاعلات الإقليمية، ويمكن تناول ذلك، من خلال ما يأتي:

1. الآثار قصيرة وبعيدة المدى

لجهود الوساطة الصينية في الصراعات آثارٌ قصيرة وطويلة المدى على الاستقرار الإقليمي، ففي الأمد القريب يمكن أن تســـاعد مشاركة الصين كوســـيط في تهدئة التوتُّرات، ومنْع تصعيد الصراعات. ويمكن للصين من خلال توفير منصَّـــة محايدة للحوار والمفاوضات، تسهيل التواصل بين الأطراف المتنازِعة؛ ما يقلِّل من احتمالات اندلاع أعمال عُنف فورية، أو صراع عســـكري. كما يمكن أن يؤدِّي ذلك إلى وقْف مؤقَّت لإطلاق النار، أو اتفاقيات توفِّر الإغاثة الفورية للمنطقة، وتمنع وقوع المزيد من الخسائر في الأرواح والدمار.

وعلاوةً على ذلك، يمكـــن أن يحفِّز النفوذ الاقتصادي، الذي تتمتَّـــع به الصين، وفُرَصها الاســـتثمارية، الأطراف المتصارِعة على الانخراط في المفاوضات؛ ما يؤدِّي إلى اتفاقيات قصيرة الأجل تعمل على اســـتقرار الوضع، كما تعمل هذه الحوافـــز الاقتصادية على تعزيز الشـــعور بالاعتماد المُتبادَل، ما يجعل الصراع أقلّ جاذبية بســـبب التكاليف الاقتصادية المُحتمَلة.

وعلـــى المدى الطويل، يمكن للوســـاطة الناجحة من جانب الصين، أن تُســـهِم في حلِّ القضايا العميقة، وإرساء السلام الدائم في المنطقة. كما يمكن للصين، من خلال معالجة الأسباب الجذرية للصراعات، وتسهيل الاتفاقيات المقبولة لجميع الأطراف، أن تساعد في بناء الأســـاس للاستقرار على المدى الطويل، وهو ما من شـــأنه أن يؤدِّي إلى زيادة التعاون والتكامل بين دول المنطقة؛ ما يعزِّز الاستقرار بشكل أكبر.

وعلاوةً على ذلك، فإنَّ الدور النشِـــط، الذي تلعبه الصين في تعزيز السلام والاستقرار، قادرٌ على إعادة تشـــكيل ديناميكيات القوَّة الإقليمية، والحـــد من نفوذ القُوى الخارجية؛ ما

يؤدِّي إلى نظامٍ إقليمي متعدِّد الأقطاب أكثر توازنًا، ومن شأن ذلك أن يُهيِّئ بيئة أكثر ملاءمة للتصدِّي للتحدِّيات الأخرى، مثل التنمية الاقتصادية، والحوكمة، والأمن البشري.

ومع ذلك، تعتمد الآثار طويلة المدى لجهود الوساطة الصينية، على مدى فعاليتها في تحقيق حلول مُستدَامة واستعداد الجهات الفاعلة الإقليمية، لتبنِّي هذه الحلول ودعمها، وستتأثَّر هذه الآثار، أيضًا، بالسياق الجيوسياسي الأوسع، والمصالح المتطوِّرة للصين والقُوى العالمية الأخرى في المنطقة.

2. الآثار على الدول المجاورة

من الممكن أن يكون لجهود الوساطة الصينية أثرٌ كبير على الدول المجاورة في الشرق الأوسط؛ فأولًا، يمكن للوساطة الناجحة أن تؤدِّي إلى الحد من التوتُّرات الإقليمية؛ الأمر الذي يمكن أن يكون له أثرٌ على استقرار البلدان المجاورة، ومن الممكن أن يؤدِّي انخفاض التوتُّرات إلى تقليل احتمالات حدوث آثار غير مباشرة، مثل تدفُّقات اللاجئين، أو العُنف عبر الحدود، أو انتشار الأيديولوجيات المتطرِّفة[36]، وهذا من شأنه أن يخلق بيئة أكثر أمنًا للبلدان المجاورة؛ ما يسمح لها بالتركيز على التحدِّيات، التي تواجهها في مجالي التنمية والحوكمة.

ثانيًا، يمكن لجهود الوساطة الصينية أن تؤثِّر على توازُن القُوى في المنطقة، إذ يمكن للصين من خلال العمل كوسيط، أن تزيد من حضورها، وأن تبني علاقات أقوى مع دول الشرق الأوسط، وهذا من شأنه أن يغيِّر ديناميكيات القوَّة التقليدية، التي هيمنت عليها القُوى الغربية والدول الإقليمية الكُبرى، مثل المملكة العربية السعودية وإيران. وقد تسعى الدول المجاورة إلى الانضمام إلى الصين؛ للاستفادة من دعمها الاقتصادي والدبلوماسي؛ ما يؤدِّي إلى تحوُّلٍ في التحالفات والشراكات.

ثالثًا، قد يكون لتركيز الصين على التنمية الاقتصادية كجزءٍ من إستراتيجية الوساطة، التي تنتهجها، آثارٌ جانبية إيجابية على البلدان المجاورة أيضًا، ومن الممكن أن تعمل الاستثمارات في مجالات البنى التحتية والطاقة والتجارة، على تعزيز الاتصال الإقليمي، والتكامل الاقتصادي؛ ما يعود بالنفع على البلدان المجاورة، من خلال زيادة الفُرَص التجارية والنمو الاقتصادي[37].

3. الآثار المترتِّبة على ديناميكيات القوَّة العالمية

ولجهود الوساطة، التي تبذلها الصين، آثارٌ كبيرة على ديناميكيات القوَّة العالمية، إذ تتحدَّى الصين من خلال الانخراط بنشاط في حل الصراعات في الشرق الأوسط، الهيمنة التقليدية للقُوى الغربية -خاصَّةً الولايات المتحدة- في المنطقة، ويعكس هذا التحوُّل الأوسع نظامًا عالميًا متعدِّد الأقطاب، تمارس فيه قُوى متعددة، بما في ذلك الصين، نفوذها على المسرح العالمي.

ويمكن لوســـاطة الصين الناجحة، أن تعمل على تعزيز مكانتهـــا العالمية، ومصداقيتها الدبلوماسية، وإظهار قُدرتها على المساهمة بشكل بنّاء في السلام والأمن الدوليين، وهذا من شأنه أن يعزِّز موقف الصين في المنتديات والمفاوضات الدولية، ويزيد من نفوذها في تشكيل قواعد ومعايير النظام الدولي.

وعلاوةً على ذلك، يقدِّم النهج، الذي تتبنّاه الصين في الوساطة، والذي يركِّز على الحياد والتنمية الاقتصادية وعدم التدخُّل، نموذجًا بديلًا لأساليب التدخُّل المرتبطة غالبًا بالقُوى الغربية[38]. ومن الممكن أن يروق هذا النهج للدول، التي تشـــعر بالقلق من التدخُّل الخارجي في شـــؤونها الداخلية؛ وهو ما من شـــأنه أن يؤدِّي إلى إعادة تنظيم التحالُفات والشراكات لصالح الصين.

ولمشاركة الصين المتزايدة في الشرق الأوســـط آثارٌ أيضًا على منافستها الإستراتيجية مع الولايات المتحدة، إذ تزيد -في الوقت الذي تســـعى فيه الصين إلى توسيع وجودها في المنطقة التي كانت ســـاحة تقليدية لمصالح الولايات المتحدة- المنافسة الجيوسياسية بين القوَّتين، ومن الممكن أن تمتَدّ هذه المنافســـة إلى ما هو أبعد من الشـــرق الأوسط إلى مناطق أخرى؛ ما يعيد تشكيل ديناميكيات القوَّة العالمية بشكل أكبر.

ومع ذلك، فإنَّ صعود الصين كوسيط وقوَّة عالمية، يأتي مع حزمة من التحدِّيات المتعلِّقة بذلك، فسوف تحتاج الصين إلى التعامل مع السياسات الإقليمية المعقَّدة، وإدارة علاقاتها مع القُوى الأخرى، ومعالجة المخاوف بشأن نواياها واستدامة جهود الوساطة، التي تبذلها. ويعتمد مدى تأثير وساطة الصين على ديناميكيات القوَّة العالمية، على قُدرتها على موازنة مصالحها مع مصالح المجتمع الدولي، والمساهمة في تحقيق السلام والاستقرار الدائمين.

خامسًا: احتمالات النجاح أو الفشل

مع أهمِّية الوساطة الصينية في وضْع إطار جديد للتفاعلات بين السعودية وإيران، وتأثيرها على التفـــاعلات الدولية المرتبطة بالمنطقة على نطاقٍ اوســـع، فإنَّها محـــل اختبار مهم. ويمكن توضيح احتمالات هذا التأثير، على النحو الآتي:

1. العوامل المساهمة في النجاح

ويعتمد نجاح جهود الوساطة الصينية على عدَّة عوامل:

أ. الحياد والمصداقية: تُعَدُّ قُدرة الصين على الحفاظ على موقف محايد مع مســـاعيها لكي يُنظَر إليها كوسيطٍ ذي مصداقية من جانب جميع الأطراف، أمرٌ بالغ الأهمِّية، وهو الأمر الذي يتطلَّب نهجًا متوازنًا يحترم ســـيادة ومصالح الأطراف المتصارِعة، دون تفضيل طرف على آخر.

ب. النفوذ الاقتصادي: يمكـــن أن يشكِّل الوجود الاقتصـــادي للصين في المنطقة، من خلال مشـــاريع التجارة والاســـتثمار والتنمية، حافزًا قويًا للأطراف للمشاركة في الحوار،

والتوصُّل إلى اتفاقيات، إذ يمكن أن تشجِّع العهود بتقديم المنافع الاقتصادية سُبُلٌ للتعاون والتسوية[39].

ج. المهارة الدبلوماسية: تشكِّل فعالية الجهود الدبلوماسية، التي تبذلها الصين، بما في ذلك قُدرتها على فهْم تعقيدات الصراع وبناء الثقة مع الأطراف وتسهيل المفاوضات البناءة، المفتاح لنجاح وساطتها.

د. الدعم الإقليمي والدولي: يمكن للدعم من القُوى الإقليمية الأخرى والمجتمع الدولي، أن يعزِّز من شرعية وآثار جهود الوساطة الصينية، كما يمكن أن يوفِّر التعاون مع الجهات الفاعلة الأخرى موارد ووجهات نظر إضافية لعملية الوساطة.

هـ. الالتزام طويل الأجل: تتطلَّب الوساطة الناجحة في كثيرٍ من الأحيان مشاركة ومتابعة مُستدامة؛ لضمان تنفيذ الاتفاقيات، ومعالجة القضايا الأساسية[40]، ويُعَدُّ استعداد الصين للالتزام بعملية بناء السلام الطويلة الأجل، أمرٌ ضروري لتحقيق النجاح الدائم.

و. معالجة الأسباب الجذرية: إنَّ من شأن قُدرة الوساطة الصينية على معالجة الأسباب الجذرية للصراع، بدلًا من التركيز فقط على الحلول قصيرة الأجل، أن تحدِّد مدى نجاحها على المدى الطويل، ويشمل ذلك معالجة قضايا مثل التوتُّرات الطائفية، واختلال توازُن القُوى، والمنافسات الإقليمية.

2. العقبات والتحدِّيات المحتمَلة

تواجه جهود الوساطة الصينية العديد من العقبات والتحدِّيات المحتملة، ومنها:

أ. العداء المتجذِّر: تشكِّل طبيعة التنافس السعودي-الإيراني الراسِخ وطويل الأمد، الذي تحرِّكه عوامل دينية وأيديولوجية وجيوسياسية، تحدِّيًا كبيرًا لجهود الوساطة، ويتطلَّب التغلُّب على انعدام الثقة والعداء المتجذِّر، الوقت والمشاركة المستمِرَّة.

ب. الديناميكيات الإقليمية: يمكن للديناميكيات الإقليمية المعقَّدة في الشرق الأوسط، إلى جانب وجود جهات فاعِلة ومصالح متعدِّدة، أن تعقِّد جهود الوساطة، وبالتالي فإنَّ تحقيق التوازن بين مصالح القُوى الإقليمية المختلفة ومعالجة مخاوفها، ليس بالأمر السهل.

ج. التأثيرات الخارجية: يمكن لتدخُّل القوى الخارجية، مثل الولايات المتحدة وروسيا، في الشرق الأوسط، أن يؤثِّر على فعالية الوساطة الصينية، وقد يكون لهذه القُوى مصالح وأجندات متنافِسة؛ ما قد يؤثِّر على رغبة الأطراف المتنازعة في المشاركة في المفاوضات.

د. التنفيذ والإنفاذ: حتى إن لم يُتَوصَّل إلى اتفاق، فإنَّ ضمان تنفيذه وإنفاذه يمثِّل تحدِّيًا كبيرًا، ويقوِّض الافتقار إلى آلية قوية لرصد الامتثال والتحقُّق من استدامة اتفاقيات السلام.

3. تحليل السيناريوهات

يُعَدُّ تحليل السيناريوهات أداةً مفيدة لاستكشاف النتائج المُحتمَلة لجهود الوساطة الصينية في الصراع السعودي-الإيراني، ويمكن من خلال النظر في سيناريوهات مختلفة،

أن يفهم صُنّاع السياسات والمحلِّلون نطاق الاحتمالات بشكل أفضل، والاستعداد لمختلف الاحتمالات.

السـيناريو الأول: الوسـاطة الناجحـة: يمكن أن تُسـفِر الوسـاطة الصينية في هذا السيناريو، عن التوصُّل إلى اتفاقٍ ناجح بين المملكة العربية السعودية وإيران. وقد تتناول الاتفاقية قضايا رئيسـية، مثل المخاوف الأمنية، والنفوذ الإقليمي، والتعاون الاقتصادي. وقد يُسهِم موقف الصين المحايد وحوافزها الاقتصادية في بناء الثقة وتسهيل الحوار، كما يمكن أن تعزِّز الوساطة الناجحة مكانة الصين العالمية، وتسهم في الاستقرار الإقليمي.

السيناريو الثاني: النجاح الجزئي: قد تُسفِر الوساطة الصينية عن اتفاقٍ جزئي يعمل على تهدئة التوتُّرات، لكنَّه لا يحِلّ القضايا الأساسـية بشكلٍ كامل، وقد يتضمَّن الاتفاق تدابير لبناء الثقة أو تعاونًا محدودًا في مجالات محدَّدة. وعلى الرغم من أنَّ هذا السيناريو لا يحقِّق السلام الشـامل، إلّا أنَّه يقلِّل من مخاطر الصراع، ويفتح الباب لمزيد من المفاوضات في المستقبل.

السـيناريو الثالث: الجمود: قد تصِل جهود الصين المبذولة في عملية الوسـاطة إلى طريقٍ مسـدود، مع عدم رغبة المملكة العربية السعودية أو إيران في تقديم تنازلات كبيرة، فالتنافس المتجذِّر والمؤثِّـرات الخارجية تُعيق التقدم. وفي هذا السـيناريو، يصبح دور الصين كوسيط محدود، ويظل الوضع الراهن في المنطقة جامدًا كما هو دون تغيير.

السيناريو الرابع: تصعيد الصراع: في هذا السيناريو، تفشل جهود الوساطة، وتتصاعد التوتُّـرات بين المملكة العربية السـعودية وإيران إلى صراعٍ أكثر مباشـرة. وقد ينجُم هذا السيناريو عن انهيار المفاوضات، أو الاسـتفزازات الخارجية، أو الضغوط الداخلية، ومن شأن تصعيد الصراع أن يخلِّف عواقِب كبيرة على الاستقرار الإقليمي، والأمن العالمي؛ الأمر الذي قد يقوِّض موقف الصين كوسيط.

ويسلِّط كل سيناريو من السيناريوهات تلك الضوء على تحدِّيات وفُرَص مختلفة لجهود الوسـاطة الصينية، ويؤكِّد على أهمِّية اتِّباع نهجٍ دقيق وقابل للتكيُّف، لحل الصراعات في الشرق الأوسط.

سادسًا: التكاليف بالنسبة للصين

قد يترتَّب على الوساطة الصينية تكلفة واسعة النطاق على الصين، ويمكن توضيح ذلك، من خلال العناصر الآتية:

1. التكاليف الاقتصادية والسياسية والإستراتيجية

تنطوي جهود الوساطة الصينية على تكاليف اقتصادية وسياسية وإستراتيجية مختلفة:

أ. التكاليف الاقتصادية: قد تتطلَّب جهود الوسـاطة الصينية استثمارات مالية كبيرة، بما في ذلك تمويل بعثات حفْظ السلام، أو المسـاعدات الإنسانية، أو جهود إعادة الإعمار

في سيناريوهات ما بعد الصراع. وبالإضافة إلى ذلك، يمكن لمصالح الصين الاقتصادية في المنطقة، مثل إمدادات الطاقة ومشاريع البنية التحتية، أن تتعرَّض للخطر إذا فشلت جهود الوساطة وأدَّت إلى مزيد من عدم الاستقرار.

ب. التكاليف السياسية: تحمل مشاركة الصين في الوساطة تكاليفًا سياسية، فالفشل في التوصُّل إلى حلّ من شأنه أن يُلحِق الضرر بسُمعة الصين باعتبارها وسيطٌ جدير بالثقة وقوَّة عالمية. وعلاوةً على ذلك، يتعيَّن على الصين أن تعمل على موازنة علاقاتها مع مختلف البلدان في المنطقة بعناية، لأنَّ تفضيل طرف على آخر قد يؤدِّي إلى تداعيات دبلوماسية، ويُضِرّ بمصالحها في أجزاء أخرى من الشرق الأوسط.

ج. التكاليف الإستراتيجية: قد يُسفِر تورط الصين في صراعات الشرق الأوسط، عن وقوعها في ديناميكيات إقليمية معقَّدة وصراعات على السُلطة؛ الأمر الذي قد يؤدِّي إلى تحويل الانتباه والموارد عن أولويات إستراتيجية أخرى. وبالإضافة إلى ذلك، تخاطِر الصين بالانجرار إلى صراعات مع قُوى كُبرى أخرى، مثل الولايات المتحدة أو روسيا، التي لها مصالحها الخاصَّة في المنطقة، وقد يؤدِّي هذا إلى زيادة التوتُّرات الجيوسياسية والتحدِّيات، التي تواجه سعي الصين إلى البروز السِلْمي.

2. مخاطر التورُّط في صراعات الشرق الأوسط

قد ينطوي تورُّط الصين في صراعات الشرق الأوسط، مثل التوسُّط في الصراع السعودي-الإيراني، على مخاطر عدَّة:

أ. مَسْ السمعة: فقد يُشِّوه فشل الصين في التوسُّط الناجح لإيجاد حلّ، من صورتها كوسيطٍ عالمي فعّال، ويقوِّض مصداقيتها في الدبلوماسية الدولية، وقد يؤثِّر هذا على قُدرة الصين على لعِب دور بنّاء في صراعات أخرى وقضايا عالمية.

ب. التورُّط في المنافسات الإقليمية: يُعَدُّ الشرق الأوسط منطقة معقَّدة ذات منافسات عميقة الجذور وتحالفات متغيِّرة[41]، وعليه فإنَّ الصين تخاطِر بالانجرار إلى هذه المنافسات؛ الأمر الذي قد يؤدِّي إلى توتُّر علاقاتها مع القُوى الإقليمية، وتعقيد أهداف سياستها الخارجية.

ج. التأثير على المصالح الاقتصادية: للصين مصالح اقتصادية كبيرة في الشرق الأوسط، خاصَّةً في مجالي الطاقة والتجارة، ويمكن لتصاعُد الصراعات أو عدم الاستقرار في المنطقة، أن يعطِّل إمدادات النفط، ويعرِّض الاستثمارات للخطر، ويؤثِّر على أسواق الطاقة العالمية؛ ما يؤثِّر على اقتصاد الصين.

د. المخاطر الأمنية: هذا ويمكن للمشاركة المتزايدة في صراعات الشرق الأوسط، أن تعرِّض الصين لتهديدات أمنية، بما في ذلك الإرهاب والهجمات السيبرانية، وقد تصبح حماية المواطنين الصينيين وأُصولهم في المنطقة أكثر صعوبة.

هـ. التوتُّرات الجيوسياســية: قد تؤدِّي جهود الوســاطة الصينية إلى توتُّرات مع القُوى العالمية الأخرى، مثل الولايــات المتحدة، التي لها مصالحها اســتراتيجياتها الخاصَّة في الشرق الأوسط، ويتطلَّب التعامل مع هذه الديناميكيات الجيوسياسية دبلوماسية حذِرة؛ لتجنُّب تصعيد الصراعات، أو إثارة مواجهة أوسع نطاقًا.

3. الآثار المترتِّبة على صورة الصين العالمية

يمكن أن يكون لمشاركة الصين في التوسُّط في الصراعات أثرٌ كبير على صورتها العالمية:

أ. الأثــر الإيجابي: يمكن للوســاطة الناجحة أن تعزِّز من سُــمعة الصيــن كقوَّة عالمية مسؤولة وملتزمة بالسلام والاســتقرار، ويمكن أن تكشف عن براعة الصين الدبلوماسية، وقُدرتها على المساهمة بشكل بنّاء في الشؤون الدولية. وهذا من شأنه أن يعزِّز قوَّة الصين الناعمة، ويقوِّي علاقاتها مع دول في الشرق الأوسط وخارجه.

ب. إظهار القيادة: ويمكن للصين من خلال الاضطلاع بدورٍ استباقي في حل الصراعات المعقَّدة، أن ترسِّخ نفسها كدولة رائدة في الحوكمة العالمية، وهذا من شأنه أن يضع الصين كبديل للقُوى الغربية التقليدية، ويزيد من نفوذها في تشكيل النظام الدولي.

ج. التأثير المحايد أو الســلبي: رُبَّما ينُظَر إلى جهود الوساطة الصينية على أنَّها متحيِّزة، أو غيــر فعّالة، أو مدفوعة بمصلحة ذاتية، فقد يؤدِّي ذلــك إلى الإضرار بصورتها العالمية، فود يؤدِّي الفشل في تحقيق نتائج ملموسة أو النظر إلى الموضوع على أنَّه سببٌ في تفاقُم الصراعات، إلى انتقادات وشكوك حول نوايا الصين وقُدراتها.

د. تحقيــق التوازن: يتطلَّب تورُّط الصين في صراعات الشــرق الأوســط تحقيق توازُنٍ دقيق، ويتعيَّن عليها أن تتعامل مع الحساســيات الإقليميــة، وأن تُدير العلاقات مع القُوى المتنافسة، وأن تتمسَّــك بمبدأ عدم التدخُّل، في حين تسعى في الوقت نفسه إلى تحقيق مصالحها الخاصة. وسوف تؤثِّر الكيفية، التي تُدير بها الصين هذه التحدِّيات، على صورتها العالمية، وتصوُّر صعودها كقوَّة كُبرى.

خاتمة

يمثِّل دور الصين كوسيط في الصراع السعودي-الإيراني تطوُّرًا كبيرًا في سياستها الخارجية، ونفوذها المتزايد في الشرق الأوســط، فقد وضعت الصين نفسها، من خلال تبنِّي موقف محايد والاستفادة من قوَّتها الاقتصادية نفسها، كلاعبٍ رئيسي في الدبلوماسية الإقليمية. ومن الممكن أن يؤدِّي نجاح جهود الوســاطة، التي تبذلها، إلى تعزيز اســتقرارها العالمي، والمســاهمة في الاســتقرار الإقليمي، وتعزيز نظام عالمي متعدِّد الأقطاب. ومع ذلك، فإنَّ انخراط الصين في صراعات الشرق الأوسط لا يخلو من التحدِّيات، فالتنافسات الراسِخة، والديناميكيات الإقليمية المعقَّدة، ووجود قُوى عالمية أخرى، تشكِّل عقبات كبيرة أمام نجاح الوســاطة. وعلاوةً على ذلك، يتعيَّن على الصين أن تُدير التكاليف الاقتصادية والسياسية

والإســـتراتيجية المترتِّبة على مشـــاركتها بعناية، فضلًا عن مخاطر التورُّط في صراعات إقليمية. فتأثير الوســـاطة الصينية علـــى ديناميكيات القوَّة العالميـــة عميق، ولتصرُّفات الصين في الوقت الذي تسعى فيه إلى تأكيد نفوذها في الشرق الأوسط، آثارٌ على علاقاتها مع القُوى الأخرى خاصَّةً الولايات المتحدة، وعلى النظام الدولي الأوســـع. وعليه، فلن يؤثِّر نجاح أو فشل جهود الوساطة على الاستقرار الإقليمي فحسب، بل سيشكِّل أيضًا تصوُّرات لدور الصين كزعيمٍ عالمي. وســـتُوضَع جهود الوســـاطة الصينية في الصراع السعودي-الإيراني في هذا المشهد الجيوسياســـي المتطوِّر تحت المجهر، وستقدِّم تلك الجهود رؤى قيِّمة حول إمكانيات وقيود النهج الدبلوماســـي الصيني، فضلًا عن قُدرتها على الإبحار في شبكة معقَّدة من المصالح والتنافسات في الشرق الأوسط. وسوف يشكِّل دور الصين في التوسُّط في الصراعات -مع استمرار تأكيد حضورها على الساحة العالمية- اختبارًا حاسمًا لطموحاتها وقُدراتها، من منطلق كونها قوَّة كُبرى في القرن الحادي والعشرين.

المصادر والمراجع

(1) Chubin, S., & Tripp, C. (2014). Iran-Saudi Arabia relations and regional order. Routledge
(2) Salamey, I., & Othman, Z. (2011). Shia revival and welayat al-faqih in the making of Iranian foreign policy. Politics, religion & ideology, 212-197 ,(2)12.
(3) Abdo, G. (2017). The new sectarianism: The Arab uprisings and the rebirth of the Shi'a-Sunni divide. Oxford University Press.
(4) Alsultan, F. M., & Saeid, P. (2016). The Development of Saudi-Iranian Relations since the 1990s: Between conflict and accommodation. Taylor & Francis.
(5) Zreik, M. (2021). China and Europe in Africa: Competition or Cooperation?. MJIR| Malaysian Journal of International Relations, 67-51 ,(1)9.
(6) McConnell, F., & Woon, C. Y. (2023). Mapping Chinese Diplomacy: Relational contradictions and spatial tensions. Geopolitics, 618-593 ,(2)28.
(7) Olimat, M. S. (2023). China and the Middle East: An Overview. Routledge Companion to China and the Middle East and North Africa, 24-9.
(8) Moeini, A., Mott, C., Paikin, Z., & Polansky, D. (2022). Middle powers in the multipolar world. The Institute for Peace & Diplomacy.
(9) Mullen-Rhoads, R. E. (2018). E-negotiations between Chinese and US business leaders: a brief review of the literature. International Journal of Teaching and Case Studies, 240-221 ,(3)9.
(10) Bush, R. A. B., & Folger, J. P. (2004). The promise of mediation: The transformative approach to conflict. John Wiley & Sons.
(11) Winslade, J., & Monk, G. D. (2000). Narrative mediation: A new approach to conflict resolution. John Wiley & Sons.
(12) Winslade, J., & Monk, G. D. (2008). Practicing narrative mediation: Loosening the grip of conflict. John Wiley & Sons.
(13) Stoshikj, M. (2014). Integrative and distributive negotiations and negotiation behavior. Journal of Service Science Research, 69-29 ,6.
(14) Nye, J. S. (1990). Soft power. Foreign policy, (171-153 ,(80.
(15) Zreik, M. (2022). Chinese Soft Power. Journal of Global Politics and Current Diplomacy, 37-19 ,(1)10.
(16) Cohen, S. B. (2003). Geopolitics of the world system. Rowman & Littlefield.
(17) Langendonk, S. (2020). Discourse power as a means to 'struggle for position': A critical case study of the belt and road Narrative's effects on foreign policy formulation in the Netherlands. Journal of Chinese Political Science, 260-241 ,(2)25.
(18) Hoh, A. (2019). China's belt and road initiative in Central Asia and the Middle East. Digest of Middle East Studies, 276-241 ,(2)28.
(19) Grumet, T. R. (2015). New Middle East Cold War: Saudi Arabia and Iran's Rivalry (Doctoral dissertation, University of Denver).
(20) Miller, R., & Cardaun, S. (2020). Multinational security coalitions and the limits of middle power activism in the Middle East: the Saudi case. International Affairs, -1509 ,(6)96 1525.
(21) Terrill, W. A. (2011). The Saudi-Iranian rivalry and the future of Middle East security. Department of the Army.
(22) Kaussler, B., & Grant, K. A. (2022). Proxy War in Yemen. Taylor & Francis.
(23) Li, M. (2013). Mao's China and the Sino-Soviet Split: Ideological Dilemma. Routledge.
(24) Jie, L. (2005). China's Domestic Politics and the Normalization of Sino-US Relations, 1979–1969. In Normalization of US-China Relations (pp. 89-56). Harvard University Asia Center.

(25) Zreik, M. (2023). China-US Relations Under the New Economic Order: The Case for the US Withdrawal from the Trans-Pacific Partnership Agreement. Journal of Asia Pacific Studies, 26-13 ,(1)7.
(26) Zubair, B. (2023). From 'Rise of China'to 'Peaceful Development': An Analysis of Competing Discourses. In Chinese Soft Power and Public Diplomacy in the United States (pp. 68-41). Singapore: Springer Nature Singapore.
(27) Nye, J. S. (1990). Soft power. Foreign policy, (171-153 ,(80.
(28) Sloan, G., & Gray, C. S. (2017). Geopolitics, geography and strategic history. Routledge.
(29) Ambrosio, T., Schram, C., & Heopfner, P. (2020). The American securitization of China and Russia: US geopolitical culture and declining unipolarity. Eurasian Geography and Economics, 194-162 ,(2)61.
(30) Zheng, C. (2016). China debates the non-interference principle. The Chinese Journal of International Politics, 374-349 ,(3)9.
(31) Chen, Z., & Yang, D. L. (2023). Governing Generation Z in China: Bilibili, bidirectional mediation, and online community governance. The Information Society, 16-1 ,(1)39.
(32) Sun, D., & Zoubir, Y. (2018). China's participation in conflict resolution in the Middle East and North Africa: a case of quasi-mediation diplomacy?. Journal of Contemporary China, 243-224 ,(110)27.
(33) Sharma, A. (2019). An analysis of 'belt and road' initiative and the Middle East. Asian Journal of Middle Eastern and Islamic Studies, 49-35 ,(1)13.
(34) Melissen, J. (2005). The new public diplomacy. Palgrave.
(35) Wallensteen, P., & Svensson, I. (2014). Talking peace: International mediation in armed conflicts. Journal of peace research, 327-315 ,(2)51.
(36) Linebarger, C., & Braithwaite, A. (2020). Do walls work? The effectiveness of border barriers in containing the cross-border spread of violent militancy. International Studies Quarterly, 498-487 ,(3)64.
(37) Chaziza, M. (2020). China's Middle East diplomacy: the belt and road strategic partnership. Liverpool University Press.
(38) Wong, K. C. (2021). The rise of China's developmental peace: Can an economic approach to peacebuilding create sustainable peace?. Global Society, 540-522 ,(4)35.
(39) Friedberg, A. L. (2018). Competing with China. Survival, 64-7 ,(3)60.
(40) Barakat, S. (2014). Qatari mediation: between ambition and achievement. Washington: Brookings Institution.
(41) Scobell, A., & Nader, A. (2016). China in the Middle East: the wary dragon. RAND corporation.

التداعيات المحتمَلة للانسحاب العسكري الأمريكي من العــراق

د. عبد الرؤوف مصطفى الغنيمي

باحث سياسي بالمعهد الدولي للدراسات الإيرانية

مستخلص:

تستهدف الدراسة بالأساس تحديد التداعيات المحتملة للانسحاب العسكري الأمريكي المحتمل من العراق على مستقبل الدولة العراقية وعلاقاتها الإقليمية من ناحية، وعلى المكانة الأمريكية الدولية من ناحية ثانية، في ظل توقيت غير مناسب تتعاظم فيه أدوار الفاعلين من غير الدول في العراق، وعدم الاستقرار على الصعيدين الداخلي والخارجي للعراق، وكذلك قياس إلى أي مدى يتعارض الانسحاب الأمريكي مع المصالح العراقية والأمريكية ومستقبله في ظل المعادلات والقضايا القائمة في العراق والإقليم الشرق أوسطي، وتوصلت الدراسة إلى جملة من التداعيات على العراق من شأنها عودته إلى المربع الأول على كافة الأصعدة، وتداعيات على الولايات المتحدة من شأنها إعادة لحظتي سايغون وكابل، كما سيكون العراق ومكوناته السنية والكردية والولايات المتحدة وحلفاؤها في الشرق الأوسط أطراف خاسرة حال الانسحاب الأمريكي، أما إيران وميليشياتها في العراق والمعسكر الشرقي ستكون أطراف رابحة، ولذلك انتهت الدراسة إلى أن الانسحاب الأمريكي من العراق على ضوء المعادلات القائمة يظل محل شك، وأن ما يجري من مفاوضات للانسحاب يأتي لكسب المزيد من الوقت من جانب واشنطن وبغداد، لإدراك واشنطن عواقب وخسائر الانسحاب على مكانتها العالمية، كما أنها قد لا تفضل تكرار لحظتي كابل وسايغون وتداعياتها على تراتبية القوة الأمريكية في هرمية القوى الدولية، وتدرك واشنطن أن انسحاب أميركي جديد معناه يخصم نقاط من رصيد رصيدها في إطار معركة الكسب بالنقاط مع القوى التعديلية.

الكلمات المفتاحية: الانسحاب العسكري، القوى العظمى، المصلحة، الأقاليم الإستراتيجية، الفراغ الإستراتيجي، الملء الإستراتيجي، الفاعلين من غير الدول.

Abstract

This research article primarily investigates the potential repercussions of a prospective US military withdrawal from Iraq on both the future of the Iraqi state and its regional relationships, as well as on America's international standing. This analysis is crucial, especially considering the timing when non-state actors are gaining influence in Iraq, coupled with ongoing internal and external instability. The research also evaluates how the withdrawal may conflict with the interests of both Iraq and the United States in light of prevailing issues within Iraq and the broader Middle East. The findings indicate that such a withdrawal could drag Iraq back into a precarious state across multiple dimensions, while also risking historical parallels with the US experiences in Saigon and Kabul. In the event of withdrawal, Iraq, alongside its Sunni and Kurdish factions, as well as US interests and allies in the region, would face significant setbacks, while Iran and its affiliated militias would emerge as beneficiaries. In conclusion, it suggests that the prospect of a US withdrawal remains uncertain, with ongoing negotiations largely viewed as a strategy to buy time for both Washington and Baghdad. Both parties recognize the potential consequences of a withdrawal on the United States' global stature, and Washington is likely hesitant to repeat the events of Kabul and Saigon, which could undermine its position in the international power hierarchy. Thus, a new US withdrawal could considerably diminish its influence in ongoing global power contests against revisionist forces.

Keywords: military withdrawal, great powers, interests, strategic regions, strategic vacuum, strategic fill, non-state actors.

مقدمة

تُشير افتراضات نظريات العلاقات الدولية، إلى أنَّ الانسحابات العسكرية للقُوى العُظمى المُهيمِنة على النظام الدولي، من الدول الإستراتيجية الواقعة ضمن نطاق الأقاليم، التي تحظى بثِقَل جيوإستراتيجي في أجندات القُوى الإقليمية والدولية، في توقيتٍ غير مناسب، لن يسمح بالحفاظ على الوضع القائم، ولن تتأهَّل فيه مؤسَّسات الدولة الأمنية والعسكرية بشكلٍ كافٍ لحفظ السيادة، واحتكار القوَّة، وفرض السيطرة بمفردها دون مساعدة أمنية من القُوى المنسحبة. وعادةً ما تترتَّب عواقب سلبية، ليس فقط على الدولة المُنسحَب منها، وإنَّما إيضًا على القُوى المُنسحِبة ومكانتها ونفوذها العالمي وترتيبها في هرمية القُوى الدولية؛ لكون الانسحابات تُرسِي حالة من «الفراغ الإستراتيجي»[1*]؛ تهرول القُوى الإقليمية والدولية التعديلية ذات النزعات والمصالح الجيوسياسية والجيواقتصادية والجيوأمنية لاستغلاله، والترويج له على أنَّه انتصار على القُوى المُنسحِبة؛ مما يؤدي إلى الخصم من رصيد حضورها ونفوذها العالمي.

لذلك، يشغل الجدل الدائر بين المتخصِّصين حول الانسحاب العسكري الأمريكي المُحتمَل من العراق حيِّزًا واسعًا من النقاشات في أروقة مراكز الفكر والدراسات، بالنظر إلى حجم عواقبة المُحتمَلة على المصالح العراقية، في ظل توقيت دقيق يمُرّ به العراق من تكدُّس في التحدِّيات المعقَّدة أمام أجهزتها الأمنية -التي لا زالت قيد البناء والتطوير- نتيجة انتشار السلاح المنفلِت المدعوم من إيران، وهجماته العسكرية المتكرِّرة ضدّ الأهداف الأمريكية بمعزلٍ عن قرارات الدولة، وعدم تمكُن مؤسَّسات النظام العراقي من تسوية الأزمات المعقَّدة منذ أكثر من عقدين من الزمان، على الرغم من الثروات الهائلة، وبالنظر -أيضًا- إلى حجم عواقبه المُحتمَلة على الولايات المتحدة ومكانتها وقيادتها الدولية، في ظل احتدام الصرع الجيوسياسي بين الأقطاب الدولية المُهيمِنة والتعديلية على النفوذ والحضور العالمي، كشروط جوهرية لتعديل النظام الدولي القائم من عدمه.

تتمحور إشكالية الدراسة حول التناقض العراقي والأمريكي، تجاه مسألة الانسحاب الأمريكي المُحتمَل من العراق. بالنسبة للعراق، فهناك مفارقة بين مطالب الحكومة بخروج القوّات الأمريكية وتعارُض المطالب مع المصالح القومية؛ لكون الانسحاب يعيد سيناريو ما بعد 2011م، حيث ترتَّب على انسحاب القوّات الأمريكية في 2011م، انتشار تنظيم داعش الإرهابي، وسيطرته المكانية على ثُلث مساحة الأراضي العراقية تقريبًا، ولا تزال خلاياه النائمة تسعى لتجميع شتاتها للعودة من جديد.

أمّا بالنسبة للولايات المتحدة، فهناك أيضًا مفارقة بين التوجُّه لاستكمال سلسلة الانسحابات، وأنَّ أيّ انسحاب جديد من إقليم جيوإستراتيجي بوزن الشرق الأوسط سيتعارض والمصالح الأمريكية؛ كونه سيخصم نقاطًا إضافية من مستوى الحضور والنفوذ الأمريكي العالمي لصالح القُوى الإقليمية والدولية التعديلية، والتأثير على نظرة

الحُلفاء للنظام الأُحادي القطبية، مما يؤدي إلى تكرار لحظتين: «لحظة كابل» عبر سقوط النظام الحليف للولايات المتحدة وسيطرة حركة طالبان على كابل نتيجة الانسحاب الأمريكي الفوضوي من أفغانستان، و«لحظة سايغون» التي قُتِل خلالها حُلفاء الولايات المتحدة في فيتنام بعد الانسحاب الأمريكي، حيث يمُرّ العراق بهشاشة أمنية، وبتصاعُد أدوار الفاعلين من غير الدول، مثلما كان يجري في البيئتين الأفغانية والفيتنامية قبيل لحظتي كابل وسايغون.

ومن ثَّم هناك تساؤل رئيس للدراسة: إلى أيّ مدى تتماشى مباحثات الانسحاب الأمريكي من العراق مع مصالح الدولتين الأمريكية والعراقية؟

كما أنَّ هناك بعض التساؤلات الفرعية، التي تسعى الدراسة إلى الإجابة عنها، وهي: ما هي دوافع مطالب الانسحاب العسكري الأمريكي من العراق؟ وما هو موقف القُوى السياسية العراقية من مطالب الانسحاب العسكري الأمريكي؟ وما حجم التداعيات المُحتمَلة للانسحاب الأمريكي المُحتمَل من العراق على مستقبله، وعلى مكانة الولايات المتحدة العالمية؟ وما هي الأطراف الرابحة والخاسرة حال الانسحاب العسكري الأمريكي من العراق؟

أولاً: مطلب الانسحاب بين مقتضيات السيادة والضغوط الخارجية

تُكثِّف الحكومة العراقية برئاسة محمد شيّاع السوداني منذ تولّيها مقاليد الحُكم في العراق في السابع والعشرين من أكتوبر 2022م جهودها لتحقيق مطلب خروج الهيئات والقوّات الأجنبية من البلاد: التحالف الدولي لمحاربة داعش في العراق[*2] المشكَّل منذ عام 2014م بقيادة أمريكية والنسبة الأكبر في قوّاته أمريكية، وبعثة الأُمم المتحدة لمساعدة العراق «يونامي»[*3] المشكَّلة في أعقاب الغزو الأمريكي للعراق عام 2003م، ولذلك سارت الحكومة العراقية في اتّجاهين:

الأول: البدء في جولات تفاوُض أمنية مع الولايات المتحدة منذ أغسطس 2023م، أفضت إلى تشكيل «اللجنة العسكرية العُليا HMC» المشتركة مطلع يناير 2024م، والتي عقدت عدَّة جولات برئاسة السوداني؛ لدراسة حجم مخاطر الخلايا الإرهابية المتبقِّية من «داعش»، وتقييم الموقف الأمني والعسكري والبيئة العملياتية، وقُدرات قوّات الأمن العراقية على مواجهة التحدِّيات الأمنية، بقصد جدولة انسحاب قوّات التحالف نهائيًا من العراق، والانتقال إلى صيغة شراكة أمنية ثنائية شاملة مع دول التحالف تتّسِق ورؤية الحكومة العراقية.

الثاني: التقدُّم بطلب رسمي لمجلس الأمن الدولي في 8 مايو 2024م، لإنهاء مهمَّة «يونامي» بنهاية العام 2025م، على أن تتولَّى الحكومة العراقية مهامها. استجاب المجلس في جلسته المنعقدة في 31 مايو 2024م، للمطلب العراقي، بتصويته بالإجماع على مطلب إنهاء مهمَّة «يونامي»، مُحدِّدًا نهاية ديسمبر 2025م، موعدًا نهائيًا لإنهاء مهمَّتها. في حين

لم ترتِّب كافَّة الجهود، التي بذلتها الحكومة العراقية، سواءً مع السفارة الأمريكية في بغداد، أو أثناء اللقاءات مع المسؤولين الأمريكيين أثناء زيارتهم للعراق، أو من خلال زيارات كبار المسؤولين العراقيين لواشنطن -حتى تاريخ نشر الدراسة- أيّ جدولة بالنسبة لإنهاء المهام العسكرية لـ «التحالف» في العراق. غير أنَّ وكالة أنباء «رويترز» كشفت في 6 سبتمبر 2024م، عن تفاهُم بين وشنطن وبغداد ينتظر التوقيع النهائي والإعلان الرسمي، يتضمَّن خروج مئات من قوّات التحالف بحلول سبتمبر 2025م، ويخرج البقية في نهاية 2026م، مع التفاهم على إقامة علاقة استشارية جديدة تسمح ببقاء بعض القوّات الأمريكية في العراق بعد الانسحاب عام 2026م[4].

1. المبرِّرات العراقية للمطلب

حمَلَ المطلب العراقي الرسمي[5] المُقدَّم للأُمم المتحدة لإنهاء مهمَّة «يونامي» بعد مرور 20 عامًا من تواجدها بالعراق عدَّة دوافع، أولها: الاستقرار السياسي والأمني بالبلاد، وثانيها: متطلَّبات السيادة الوطنية للعراق بصفتها الدولة المستضيفة، وثالثها: تطوُّر القُدرات القتالية للقوّات العراقية في التعامل مع التحدِّيات الأمنية، خاصة التعامل مع بقايا خلايا تنظيم داعش النّشِطة والنائمة، ورابعها: النجاحات والإنجازات، التي حقَّقتها الحكومات المتعاقِبة بمساعدة الدول الصديقة والوكالات الأُممية المتخصِّصة، التي ذلَّلت العديد من العقبات. لذلك عدَّ رئيس الوزراء العراقي تصويت مجلس الأمن على القرار العراقي لإنهاء مهام «يونامي»، اعترافًا دوليًا وأُمميًا بالتطوُّرات الإيجابية في جميع المجالات العراقية[6].

وأضاف المتحدِّث باسم الحكومة العراقية باسم العوادي مبرِّرات إضافية لمطلب إنهاء مهام البعثة، تتمثَّل -على حدِّ قوله- في تعافي العراق من الأزمات التي أصابته من الصراعات التي شهِدَها منذ 2003م، في إشارة إلى مرحلة العُنف الطائفي، التي تلت الغزو الأمريكي للعراق، ومرحلة سيطرة «داعش» على رقعة من الأراضي العراقية، وعودة العراق لسابق عهده في القيام بدوره الإقليمي، وتوصية لجنة المراجعة الأُممية الإستراتيجية، التي شكَّلتها الأُمم المتحدة برئاسة الألماني فولكر بيرتس لتقييم كافَّة المجالات العراقية لاتّخاذ قرار بشأن المطلب العراقي بإنهاء مهام البعثة، بالمُضي في خيار إنهاء مهامها، عطفًا على ما عدَّته اللجنة تطوُّراتٍ ملحوظة على كافَّة المستويات العراقية[7]. لذلك عدَّت حكومة بغداد تطابُق وجهات النظر العراقية والأُممية، دليلًا على واقعية المطلب ومصداقيته بإنهاء مهام «يونامي».

بمراجعة كافَّة التصريحات الرسمية لكبار المسؤولين الأمريكيين حول مطلب العراق جدولة انسحاب قوّات التحالف من الأراضي العراقية، تبيَّن إبداء واشنطن المرونة في شروطها لسحب قوّات التحالف -تحقيق الهدف الرئيس للتحالف بالقضاء على «داعش» وبقاياها في العراق، وقف الميليشيات المسلَّحة هجماتها على الأهداف الأمريكية بالعراق (المقار الدبلوماسية، القواعد والقوّات العسكرية، المقاولون المدنيون، مركبات الدعم

اللوجستي)-، وذلك بدخولها في سلسلة محادثات مع الجانب العراقي لجدولة انسحاب قوّات التحالف، في ظلّ استمرارية تنفيذ الخلايا الإرهابية المتبقّية عمليات في العراق، واستمرارية القصف الميليشياوي للأهداف الأمريكية بشكل متكرّر في الساحة العراقية. غير أن برقية صادرة عن وزارة الخارجية الأمريكية في يناير 2024م أشارت إلى أنَّ محمد شيّاع السوداني لا يريد انسحابًا أمريكيًا من العراق، كما أشارت إلى أنَّ أحد كبار مستشاري السوداني أبلغ مسؤولين أمريكيين، بأنَّ مطالب السوداني تأتي في إطار المناورات لإرضاء الجماهير والتحالفات السياسية الرافضة للوجود الأمريكي[8].

2. الدوافع الحقيقية للمطلب

لم تدخُل المبرِّرات الرسمية العراقية حيِّز الاقتناع لدى العديد من المتابعين للشأن العراقي، بالنظر إلى تأرجُح حالة الاستقرار السياسي والأمني بالعراق، والأزمات الاقتصادية والمعيشية والخَدَمية المستعصية: الكهرباء، المياه، البطالة، واستمرارية الفساد بكافّة أشكاله، وديمومة السلاح المنفلِت وعملياته ضدّ الأهداف الأمريكية بعيدًا عن قرارات الدولة، واستمرارية العمليات الإرهابية بواسطة الخلايا المتبقّية من تنظيم داعش. لذلك، طرحوا عدَّة أسباب وراء المطلب العراقي لسحب القوّات الأجنبية من العراق، أولها: الضغوط الإيرانية المتصاعِدة على العراق لطرد القوّات الأمريكية منذ التصعيدات الأمريكية-الإيرانية المتبادلة على خلفية إستراتيجية الضغوط القصوى الأمريكية تجاه إيران، وردود الأخيرة باستهداف ناقلات النفط وسُفُن التجارة الدولية عقِبَ الانسحاب الأمريكي من الاتفاق النووي في 2018م، حيث طالب المرشد على خامنئي العراق عدَّة مرات بطرد القوّات الأمريكية؛ فأثناء لقائه رئيس الحكومة الأسبق عادل عبدالمهدي في طهران عام 2018م، صرَّح قائلًا: «وجود العسكريون الأمركيون في دول المنطقة يضُرّ بدول وشعوب المنطقة»، مضيفًا: «عليك أن تجعل الأمريكان يسحبون جيشهم من العراق في أسرع وقت»[9]، وفي 2019م، صرَّح: «إنَّ إيران لا تتدخَّل في علاقات العراق مع أمريكا، لكنَّها تتوقَّع من الأصدقاء العراقيين أن يعرفوا أمريكا، وأن يعرفوا أنَّ وجود أمريكا في أيّ بلد هو مصدر الفساد والخراب والدمار»، مضيفًا: «إيران تتوقَّع متابعة قرار طرد الأمريكيين؛ لأنَّ وجودهم يسبِّب انعدام الأمن»[10]، وأيضًا جدَّد خامنئي مطالبه مصعِّدًا ومهدِّدًا بمواصلة استهداف القوّات الأمريكية، بعد مقتل قائد «فيلق القدس» الإيراني السابق الجنرال قاسم سليماني برفقة قائد قوّات الحشد الشعبي السابق أبو مهدي المهندس قُرب مطار بغداد الدولي، مطلع يناير 2020م، وأثناء لقائه الرئيس العراقي عبد اللطيف رشيد في طهران أبريل عام 2023م، طالبه بضرورة طرد قوّات التحالف بقيادة الولايات المتحدة، قائلًا: «وجود جندي أمريكي واحد في العراق أكثر من اللازم»[11]. أمّا ثاني الدوافع: يتمثَّل في تحوُّل العراق إلى ساحة لتصفية الحسابات بين الطرفين الأمريكي والإيراني، منذ استهداف الميليشيات الموالية لإيران الأهداف الأمريكية، ضمن إستراتيجية مضادَّة لإستراتيجية

الضغوط القصوى، وبالتالي انتقلت أزمات العراق إلى مرحلة جديدة من التعقيد المُكلِف على حكوماته، لاستخدام الطرفين القوَّة المسلَّحة في تصفية الحسابات، على نحوٍ أعاد الأمن العراقي إلى المربَّع الأول، حيث وضعت الميليشيات قضية إخراج القوّات الأجنبية من العراق على قمَّة أولوياتها، في تجاوُزٍ لقرارات الدولة.

لذا اتّخذت الميليشيات من الهجمات المستمِرَّة بواسطة الصواريخ والمسيَّرات ضدّ الأهداف الأمريكية، توجُّهًا ضمن أدوات ضغطها لإخراج القوّات الأمريكية من العراق. في المقابل، كثَّفت الولايات المتحدة هجماتها ضدّ التمركزات الميليشياوية في العراق، بل قدَّمت ضربة مُدوِّية لإيران باغتيال مهندس المشروع الإيراني الإقليمي قاسم سليماني، لإيصال رسائل ردع قوية لإيران وميلشياتها.

اتّخذت الميليشيات من مقتل سليماني ذريعة في تبنِّي إستراتيجية تستهدف الضغط على واشنطن بتكثيف الهجمات ضدّ الأهداف الأمريكية، وعلى الحكومات العراقية؛ لدفعها نحو مطالبة الولايات المتحدة بإخراج قوّاتها. وقد اتّخذت الميليشيات أيضًا من التطوُّرات الإقليمية، التي فرضها انفجار الحرب في غزة، ذريعةً للتصعيد ضدّ الأهداف الأمريكية في العراق، بمزاعم الضغط على واشنطن وتل أبيب لوقف الحرب في غزة، حيث سجَّل الجيش الأمريكي على سبيل المثال لا الحصر ما لا يقِلّ عن 170 هجومًا ضدّ قوّاته في العراق وسوريا، خلال الأشهر الأربعة الأولى فقط من حرب غزة[12]. ورَدَّ الجيش الأمريكي باستهداف العديد من قيادات الميليشيات، مثل القائد العسكري في كتائب حزب الله العراقي أبو باقر الساعدي، والقائد العسكري في حركة النجباء مشتاق طالب السعيدي الملقَّب بـ «أبو تقوى»، في يناير 2024م. وتمتلك الميليشيات أدوات ضغط متعدِّدة للتأثير على الحكومة العراقية في قضية إخراج القوّات الأمريكية، مثل ورقة السلاح المنفلِت، والقُدرة على تفجير الساحة، وورقة التحالفات المؤثِّرة في الحكومة والمُهيمِنة على البرلمان، التي لعِبَت دورًا في دفع البرلمان للمطالبة بإخراج القوّات الأجنبية مرَّتين: الأولى بعد مقتل قاسم سليماني في 2020م، والثانية في فبراير 2024م.

ويتمحور ثالث الدوافع في: تراجُع الدور الأمريكي في الشرق الأوسط، باستثناء الفترة الأخيرة، التي كثَّفت فيها واشنطن حضورها العسكري في المنطقة؛ لتحقيق قوَّة ردع لصالح إسرائيل، ومنع اندلاع حرب إقليمية كُبرى يخشاها الجميع بعد انفجار الحرب في غزة. ويعود تراجُع هذا الدور إلى التغيُّر في الأولويات الأمريكية تجاه مهدِّدات الأمن القومي الأمريكي، حيث حدَّدت وثائق الدفاع والأمن القومي الأمريكي خلال السنوية الماضية دائرة «الإندوباسفيك»، على أنَّها الدائرة الأخطر على الولايات المتحدة، حيث صعود الصين بوصفا قوَّةً تعديلية طامحة في تغيير النظام الدولي. لذلك، صاغت واشنطن إستراتيجية «الاتّجاه شرقًا» لتطويق الصين وحصارها في محيطها الإقليمي، إذ نصَّت إستراتيجية الأمن القومي الأمريكي للعام 2022م، على ما أسمته بـ «العقد الحاسم»، وتقصد عقد

العشـــرينيات من القرن الحادي والعشـــرين؛ بهدف تعزيز تمكيـــن الولايات المتحدة من التفوُّق على منافسيها الجيوسياسيين.

ترتَّب علـــى تراجُع أولوية المنطقة في الإســـتراتيجية الأمريكية، صعـــود أدوار الدول ذات النزعات الجيوسياســـية، وأدوار الفاعلين من غير الدول، وغالبيتهم من الميليشيات المســـلَّحة الموالية لإيرن، على حســـاب الفاعلين من الدول؛ لذلك تنامـــت أوراق التأثير على القرارات العراقيـــة، وبالتالي ازداد الضغط على الحكومـــات العراقية لإخراج القوّات الأمريكية، والانفراد بالساحة العراقية لمركزية العراق في الإستراتيجية الإيرانية.

يتّضِح ممّا سبق، أنَّ مطلب إخراج القوّات الأمريكية من العراق لم يعبِّر عن مطلب عراقي وطنـــي ينبع من تصوُّر ضمن المصالح العُليا للعراق والتوافق الوطني الشـــامل، وإنَّما يعبِّر بالأساس عن مطلب خارجي يُنفَّذ بواسطة الميليشـــيات المسلَّحة الموالية لإيران. لذلك؛ على الرغم من أهمِّية اســـتقلال الدولة وسيادتها الكاملة في عملية بناء الدولة وتطوُّرها، إلّا أنَّ السياق والظروف التي يأتي فيها هذا المطلب، لا تخدم الجانب العراقي، في حين تخدم الأجندة التوسُّـــعية لإيران؛ لكون العـــراق غير جاهز لخروج القـــوّات الأجنبية ذات الرمزية الكبيرة لتحقيق قدرٍ من التوازن في الداخل والخارج، وســـيُتيح الانسحاب الأمريكي تحقيق فراغ إســـتراتيجي، ســـتكون له تداعياته على العراق والعراقيين؛ ما يكشف عن أنَّ معادلة الحُكم والتأثير في العراق تقوم على: أولوية العسكري على السياسي، وأولوية المؤدلَج على الوطني في الداخل، وأولوية مصالح الخارج على المصالح العراقية.

ثانيًا: التحالفات السياسية وقضية الانسحاب الأمريكي

انقسمت مواقف التحالفات الرئيسة: الشيعية والسُنِّية والكردية، تجاه مطلب الانسحاب العسكري الأمريكي من العراق، إلى اتّجاهين:

1. مؤيِّد وضاغِط نحو خروج القوّات الأمريكية

يقود هذا الاتّجاه الحملات السياســـية والإعلامية للمطالبة بانســـحاب القوّات الأجنبية من العراق، ويمثِّله «الإطار التنســـيقي» المدعوم من إيران، الـــذي يضُمَ عددًا من الرموز السياسية والعسكرية الشيعية، مثل: «تحالف دولة القانون» بزعامة رئيس الوزراء العراقي الأسبق نوري المالكي، و«تحالف الفتح» برئاسة زعيم منظَّمة بدر هادي العامري، و«حركة حقوق» برئاسة الناطق باسم كتائب حزب الله العراقي -أقوى حليف لإيران- حسين مؤنس (أبو علي العسكري)، و«تيّار الحكمة الوطني» بزعامة رجل الدين عمّار الحكيم، و«تحالف النصر والإصلاح» برئاســـة رئيس الحكومة الأســـبق حيدر العبـــادي، و«كتائب حزب الله العراقي» برئاسة أبو حســـين المحمداوي، و«ميليشيا حركة النجباء» بقيادة أكرم الكعبي، و«ميليشيا عصائب أهل الحق» بقيادة قيس الخزعلي. كما تتبنَّى غالبية تحالفات «الإطار التنسيقي» وميليشياته مبدأ الدولة المذهبية، الذي يدور حول مفاهيم الطائفية والتوافق

والتبعية والوجهة الإيرانية، وينسجم موقف «التيّار الصدري» مع «الإطار التنسيقي»، في تلك القضية.

على سبيل المثال لا الحصر، صرَّح المتحدِّث العسكري باسم «كتائب حزب الله العراقي» جعفر الحسيني، في لقاء له على قناة «بي بي سي عربي»، في يوليو 2021م: «كافَّة القواعد الأمريكية -سواء الخاصَّة بالقوّات الأمريكية أو المشتركة- في العراق، تعرَّضت للضربات فصائل المقاومة»، مضيفًا: «إنَّ جهد الفصائل وتركيزها الآن، لا ينصَبّ على القوّات الأمريكية الموجودة على الأراضي العراقية، وإنَّما الهدف الأساس هو إخراج كامل القوّات الأمريكية من غرب آسيا»[13]. وفي في أعقاب مقتل عناصر من «الحشد الشعبي» في غارة أمريكية في نوفمبر عام 2023م، دعا أكرم الكعبي إلى ضرورة إعلان الحرب على أمريكا، وإخراج قوّاتها من العراق، وتوعَّدت حركته في يناير عام 2024م، من أسمتهم بـ«الخونة من الذين باعوا دينهم للمحتَلّ، بما حصَلَ في أفغانستان، فإمّا أن يهرب بشكل مُخزٍ، أو يبقى ليُحاكَم بجريمته قريبًا»[14]. وعدَّ قيس الخزعلي أنَّ المطلب العراقي خطوة بالاتِّجاه الصحيح لاستكمال السيادة الوطنية، ولم تتوقَّف بيانات الميلشيات عند حدود إخراج القوّات الأمريكية، بل دعت إلى إغلاق المقار الدبلوماسية الأمريكية. وينسجم موقف «التيّار الصدري» مع «الإطار التنسيقي» في تلك القضية، حيث دعا زعيم التيّار مقتدى الصدر في يناير عام 2020م إلى مظاهرة سِلمية مليونية للمطالبة بإخراج القوّات الأمريكية، كما كان يدعو تيّاره إلى إغلاق القواعد العسكرية، والمقار الدبلوماسية الأمريكية في بغداد.

2. متحفِّظ تجاه خروج القوّات الأمريكية من العراق

تُشير الحسابات البراغماتية إلى أنَّ الانسحاب الأمريكي ليس من صالح التحالفات السُنِّية (التقدُّم الوطني، السيادة، متّحِدون، عزم، الحزب الإسلامي العراقي)، والكُردية (الحزب الديمقراطي الكردستاني، الاتحاد الوطني الكردستاني)؛ لذلك عبَّر بعض رموزها عن رفضهم خروج القوّات الأمريكية من العراق، في ظل حزمة الأزمات الراهنة. فعلى سبيل المثال لا الحصر، غرَّد البرلماني السُنِّي السابق مشعان الجبوري على منصَّة «إكس» في فبراير 2024م: «تتعالى أصوات القيادات والفصائل والكُتَل الشيعية القريبة من إيران، مطالبة بخروج القوّات الأمريكية من العراق.. وليس سرًّا أنَّ أغلبية العرب السُنَّة والكُرد السُنَّة، لا يؤيِّدون هذا الطلب، ويتّفقون على الرغبة في بقائها»[15]. كما أوضح عرفات كريم، المستشار السياسي لرئيس الحزب الديمقراطي الكردستاني: «لا يمكن لطرف أن يتحكَّم بمصير دولة وفق أيديولوجيته الدينية المُستورَدة، إنَّهم يتذكَّرون السيادة حين تقصف أمريكا، وينسونها عندما تقصف إيران»[16].

اعتبارات عديدة تقف وراء تخوُّف السُنَّة والكُرد من خروج القوّات الأمريكية، يتقدَّمها التخوُّف من فُقدان قاعدة التوازن بين التحالفات، والهيمنة الشاملة للتحالفات الشيعية

على الحُكم العراقي بل على مفاصل الدولة العراقية ذاتها، وتحوُّل القوَّة لصالح الميليشيات على حســـاب الجيش الوطني، وبالتالي فرض الهيمنة الشـــيعية الموالية لإيران بالقوَّة المسلَّحة على بقية التحالفات، بما يسمح بـ «استنساخ حرس ثوري مماثل للحرس الثوري الإيراني»، ومزيد من الهيمنة علـــى مفاصل الدولة، والتأثير على قراراتها الإســـتراتيجية، والتحسُّب من اســـتمرارية المكوِّن الشـــيعي في فرض هويَّة فرعية على الهويَّة الجماعية الوطنية، بما يجعل النظام بُكّل أجهزته وهيئاته يعمل لصالح المكوِّن الشيعي فقط.

لكن الســـؤال المطروح: هل تُمثِّل تحالفات «الإطار التنســـيقي» فـــي مطلبها بخروج القوّات الأجنبية من العراق الشارع الشيعي بأكمله؟ الإجابة قطعًا بـ «لا»؛ لأنَّ واقع المشهد العراقي الشيعي يكشـــف عن أنَّ تحالفات الإطار لها نوعان فقط من الجماهير في الشارع الشيعي: الجمهور المنتمي للإطار عقائديًا وتنظيميًا، والجمهور المنتمي براغماتيًا، والاثنان يضُمّان العدد الأقلّ عند مقارنتهما بالجمهور الشـــيعي العريض في المحافظات الجنوبية، الذي عبَّر عن رفضه للمشاريع المذهبية، التي ينشدها الإطار بشدَّة في مشهدين، أولهما: الضربة المدوِّية، التي قدَّمهـــا لتحالفات الإطار في الدورة الانتخابيـــة البرلمانية 2021م، حيث فقدت التحالفات الشيعية الموالية لإيران حضورها القوي في البرلمان لولا انسحاب نوّاب الصدر من البرلمان، وثانيهما: الاحتجاجات الشعبية العراقية الحاشدة ضدّ المشروع الإيراني في العراق، ليس فقط في المحافظات السُنِّية، بل في قلب المحافظات الشيعية، وقد عبَّر المحتجُّون عن رفضهم للمشـــروع الإيراني خلال الاحتجاجات، التي تكرَّرت خلال السنوات الماضية بأكثر من طريقة، منها استهداف المقار الدبلوماسية الإيرانية، ومقرّات التحالفات الشيعية، وتمركُزات الميليشيات المســـلَّحة، وإضرام النيران في صور المرشد الإيراني وقاسم ســـليماني؛ ما يؤكِّد وجود كُتلة عراقية وطنية عابرة للطائفية ضدّ التخندُق المذهبي والنفوذ الإيراني المستشري في مفاصل الدولة العراقية.

يُفيـــد عموم الموقف الشـــيعي، إلى افتقاد قضية الانســـحاب الأمريكي مـــن العراق لـ «الإجماع بين التحالفات الشيعية وعموم الشيعة»، بما يعكس وجود تصوُّرين سائدين في المكوِّن الشـــيعي العراقي تجاه القضية، الأول: شعبي شيعي يقترب في نظرته للقضية من نظرة المكوِّنين السُنِّي والكُردي، بانطلاقه من ضرورة معالجة القضية ضمن المصالح العُليا للعـــراق، لا المصالح العُليا للأطراف الخارجية، ولاســـيّما الإيرانية، وبالتالي النظر للقضية على أنَّها قضية إســـتراتيجية تتعلَّق بأمن العراق وسيادته ومستقبله، ويجب النقاش حولها واتّخاذ القرار بصددها ضمن توافُق وطني شامل موحَّد. أمّا الثاني: فهو تصوُّر نخبوي شيعي ينطلق في معالجة القضية ضمن منظور يخدم الأجنـــدة الإيرانية، وبالتالي النظر للقضية على أنَّها قضية جيوسياســـية تتعلَّق بمستقبل المشـــروع الإيراني التوسُّعي، ويجب اتّخاذ القرار حولها ضمن توافُق التحالفات الشيعية المُنفِّذة للأجندة الإيرانية.

في المقابل، يُلاحَظ أنَّ مواقف الجماهير العربية السُنِّية منسجمة مع مواقف التحالفات السُنِّية من القضية. وتُفيد المعطيات بأنَّ العرب السُنَّة لا يشعرون بالارتياح لانسحاب الولايات المتحدة في هذا التوقيت، ويعتقدون أنَّ الانسحاب الأجنبي سيجعلهم مكشوفين أمام خطر الميليشيات وخطر بقايا «داعش»، كما أنَّ مواقف غالبية الجماهير الكُردية من القضية متطابق تمامًا مع مواقف التحالفات الكُردية، حيث يرفضون أيّ انسحاب أمريكي من العراق. أمّا مواقف المكوِّن التركماني تجاه القضية، فهي منقسمة، إذ إنَّ هناك تركمان شيعة وتركمان سُنَّة: التركمان الشيعة منقسمون إلى قسمين أحدهم داعم لمطلب خروج القوّات الأجنبية من العراق بحُكم انتمائه عقائديًا وتنظيميًا بالتحالفات المدعومة من إيران، والآخر رافض لخروجها، ولديهم نفس هواجس التحالفات السُنِّية والكُردية والعرب الشيعة، أمّا التركمان السُنَّة فهم أيضًا منقسمون إلى قسمين، أحدهما مؤيِّد للانسحاب الأجنبي من العراق، لما فيه من مصلحة للتركمان السُنَّة حال شمِلَ مناطق شمال العراق؛ كونه سيُضعِف قوَّة بعض القُوى الكُردية، التي تستقوي بالحضور الأمريكي في استهداف التركمان، والآخر يرفض الانسحاب الأجنبي ويشاطر التحالفات السُنِّية والكُردية والعرب الشيعة الهواجس نفسها [17].

إجمالًا، تكشف المعطيات السابقة عن أنَّ قضية خروج القوّات الأجنبية من العراق تفتقد لقاعدة «الإجماع الوطني الشامل»، حيث لا تحظى القضية بإجماع القوى العراقية: الشيعية والسُنِّية والكُردية، كما لا تحظى أيضًا بإجماع شيعي-شيعي شامل.

ثالثًا: التداعيات المُحتمَلة للانسحاب الأمريكي على العراق

في حال تحقُّق الانسحاب الأمريكي بشكلٍ غير محسوب وغير مدروس، مع هشاشة المؤسَّسات الأمنية والعسكرية في مواجهة التحدِّيات الأمنية، ومع افتقاده لقاعدة الإجماع الوطني، وارتباطه بأجندات خارجية ضمن تصوُّر مذهبي طائفي فرعي لا ينطلق من منظور المصالح العُليا للعراق، يُتوقَّع التداعيات المُحتمَلة الآتية على العراق:

1. فرض العقوبات الاقتصادية وآثارها المُحتمَلة

تزداد فُرَص فرض العقوبات الأمريكية على العراق، تحت مبرِّر تعاونه مع إيران الخاضعة للعقوبات في قطاع الغاز؛ مما يؤدي إلى حرمان العراق من عائدات بيع النفط، التي تُشكِّل العصب الرئيس للاقتصاد، والمورد الأكبر للموازنة. وفي الأساس تتحكَّم واشنطن في عائدات النفط العراقي، عبر إيداع العراق لعائداته في حساب تابع للبنك المركزي العراقي في البنك الفيدرالي الأمريكي، وهي آلية معمول بها منذ أكثر من عقد ونصف العقد من الزمان، بعدما كانت العائدات تُوضَع في «صندوق تنمية العراق»، الذي أسَّسته الولايات المتحدة عام 2003م [18]، بموجب قرار أُممي لحماية الأموال العراقية من الملاحقات القضائية للشركات الدولية، التي كانت تستثمر في الكويت لأخذ التعويضات المُستحَقَّة

على العراق نظير الخسائر التي مُنِيَت بها بسبب الغزو العراقي للكويت[19]، وكذلك رفع العراق من قائمة الدول المُستثناه من العقوبات الأمريكية على إيران بما تسبِّبه من حرمانه لاستيراد الغاز والكهرباء من الخارج، في ظل حالة العجز الشديد في إنتاج الكهرباء.

كما يترتَّب -أيضًا- على العقوبات المُحتمَلة، هروب المستثمرين من العراق، وتدهُور العلاقات التجارية الخارجية؛ مما يؤدي إلى تفاقُم حدَّة الأزمات، التي تعاني منها الدولة بالأساس، حيث يُتوقَّع انتقال الأوضاع المعيشية والأزمات الخَدَمية، الكهرباء والمياه والبطالة، إلى مرحلة أكثر سوءًا. فعلى سبيل المثال، يُتوقَّع زيادة عدد ساعات انقطاع الكهرباء في فصل الصيف؛ لعدم القُدرة المالية عندئذٍ على دفع النفقات المالية لاستكمال محطَّات الكهرباء الجديدة للمساهمة في معالجة أزمة العجز الكهربائي، وصعوبة الاستمرار في دفع تكاليف شراء الكهرباء من دول الجوار؛ ما قد يؤدِّي بدوره إلى تنامي معدلات الاحتقان الشعبي المُفضي إلى فوضى عارمة. ولذلك؛ فإنَّ مجرَّد تحذيرات بعض العراقيين من حدوث تلك النتائج، يكفي في للحفاظ على التوازن في الداخل.

2. انهيار التوازن في الداخل وترسيخ مسار اللادولة

على مدى السنوات السابقة، قطَعَ العراق شوطًا في مسيرة إرساء التوازن بين مساري الدولة واللادولة، حيث برَزَ ما يُسمَّى بـ «تحالفات مسار الدولة»، منذ «الاحتجاجات التشرينية» في 2019م، التي تتمسَّك بالطابع المدني للدولة ضمن رؤية وطنية شاملة لمفهوم العراق الجديد، الذي يسعى لتغيير القاعدة المعمول بها في تشكيل الحكومات من التوافقية إلى الوطنية، ومن سيادة الهويَّة الفرعية الشيعية إلى الهويَّة الجماعية، وتحقيق السيادة والاستقلالية في صناعة القرارات وتنفيذها، وحصر السلاح المنفِلت بيد الدولة، ورفض التدخُّلات الخارجية، وتأسيس علاقات خارجية متوازنة. أمَّا تحالفات مسار اللادولة المدعومة من إيران، والمهيمنة على المعادلة العراقية منذ أكثر من عقدين من الزمان تتمسَّك بسيادة الطائفية ضمن رؤية مذهبية تسعى لسيادة الهويَّة الفرعية، على نحوٍ يضمن استمرارية السلاح المنفلِت، وتبعية العراق لإيران لخدمة المشروع الإيراني.

من شأن الانسحاب الأمريكي أن يؤدي إلى انهيار التوازن لصالح مسار اللادولة، وإرساء مرحلة جديدة في الداخل عنوانها «تعزيز الهيمنة الإيرانية المنفردة على العراق»، يكون فيها لإيران التأثير الأكبر على قرارات العراق وتسمية رؤساء حكوماته المتعاقبة، وسيطرة واسعة للتحالفات الموالية لإيران على الحقائب الوزارية والمقاعد البرلمانية، بما يتيح تمرير القوانين المذهبية مقابل تعطيل القوانين المدنية، وفرض إيران سيطرتها على الاقتصاد والسوق العراقي، وتعزيز الأنشطة والطقوس الثقافية الشيعية لتوطيد أركان الهويَّة الشيعية، ومدّ نطاق العسكرة في بقية المناطق الإستراتيجية، وتسهيل إرساء «الكوريدور» الرابط بين طهران والبحر المتوسِّط، وبالتالي المزيد من تفشِّي الفساد في

بلدٍ يُعَدُّ من أكثر البلدان فسادًا في العالم؛ لأنَّ إيران تعتمد على شخصيات غير وطنية في تنفيذ أجندتها، ما يقلِّص من جهود المحاسبة ويسهِّل نهب الثروات.

وكل ذلك سيُفاقم من الاحتقان الشعبي بوصفه وقودًا لاندلاع الاحتجاجات الحاشِدة، أمّا في الخارج، يُرجَّح إعادة بوصلة السياسة العراقية نحو إيران، بعدما أمضى العراق خطوات نحو العودة لمحيطه العربي، وكذلك الترويج على أنَّ الانسحاب انتصار لإيران في الصراع مع الغرب، وإدارة الظهر للمعسكر الغربي بقيادة أمريكية لصالح المعسكر الشرقي بقيادة صينية-روسية.

3. عودة الفوضى الأمنية ونزع الاستقرار الهشّ

لعِبَت القوَات الأُممية والدولية بقيادة أمريكية دورًا بارزًا في مواجهة الفوضى الأمنية، التي خلَّفتها الصراعات الطائفية في مرحلة ما بعد الغزو الأمريكي للعراق، عبر التدريبات المستمِرَّة للقوّات العراقية لرفع كفاءتها، وتكثيف الانتشار في البؤر المنفلِتة، وتوفير المعلومات الاستخباراتية عن الخلايا الإرهابية، ومشاركتها ضمن العمليات العسكرية التي نفَّذها -ولا يزال ينفِّذها- العراق لمحاربة التنظيم وفلوله، والحفاظ على التوازن في الأدوار، والتأثير على القرارات الأمنية بين المؤسَّسة العسكرية والقوّات الرديفة.

ويُحسَب للتحالف الدولي لمحاربة داعش دوره الرئيس في فقدان التنظيم السيطرة المكانية على معظم الأراضي، التي كانت تحت سيطرته في المحافظات السُنِّية منذ عام 2014م، وكانت تُشكِّل ثُلث مساحة الأراضي العراقية تقريبًا، ودوره أيضًا في استرداد العراق الحقول النفطية، التي استولى عليها التنظيم؛ ما أفقده مصادر إيراداته المالية. كما تمكَّنت قوّات التحالف بفضل أجهزة استخباراتها المتطوِّرة من تصفية القائدين الأولين للتنظيم، أبوبكر البغدادي في أكتوبر عام 2019م، وخليفته إبراهيم القرشي في فبراير عام 2022م، إضافة إلى تصفية العديد من قيادات الصف الثاني والثالث، وإن كانت هناك بعض الفلول النشطة، التي لا تزال منتشرة في كلٍّ من العراق وسوريا.

لذلك؛ من شأن خروج القوّات الأمريكية من العراق التسبُّب في عودة الفوضى الأمنية، بإعادة سيناريو ما بعد 2011م، نتيجة الانسحاب الأمريكي غير المحسوب من العراق، حيث تفشَّى الإرهاب في المحافظات السُنِّية، وبعدها تأسَّس تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام المعروف اختصارًا بـ «داعش»، في عام 2013م، ثمَّ أعلن التنظيم عن قيام «الخلافة الإسلامية» في العراق في يونيو عام 2014م، تحت شعار «باقية وتتمدَّد»؛ للتعبير عن الاعتقاد في التوسُّع المكاني غير المحدود للخلافة، مع الإعلان عن تعيين «أبوبكر البغدادي» في منصب الخليفة[20]. وحثَّ التنظيم المسلمين في جميع أنحاء العالم على الهجرة إلى دولة الخلافة؛ لذلك أشارت التقارير الأُممية المعنية بالإرهاب، إلى أنَّه بحلول 2015م، قد دخل العراق وسوريا نحو 40 ألف شخص من أكثر من 120 دولة للقتال، وقرابة 80% منهم انضمُّوا إلى «داعش» للعيش تحت حُكم الخلافة، وأنَّ أكثر من

50 جماعة إرهابية بايعت التنظيم[21]، ليحتَلَّ التنظيم ثُلث مساحة الأراضي العراقية تقريبًا ببداية 2017م. وفيما يلي أبرز المؤشِّرات الداعمة لإعادة سيناريو ما بعد 2011م، في حال الانسحاب الأمريكي:

أ. العودة الفعلية التدريجية للتنظيم: واقعيًا، ينشَط التنظيم في العديد من المُدُن العراقية. فعلى سبيل المثال لا الحصر، تبنَّى التنظيم الهجمات الدامية، التي استهدفت مناطق في ديالى وكركوك (شمال شرق العراق)، في ديسمبر عام 2023م، وتبنَّى تفجيرات قضاء الطارمية، التي استهدفت قافلة عسكرية بعبوّات ناسفة في مارس 2024م، وتفجيرات مطيبيجة شرق صلاح الدين، التي راح ضحيتها 5 عسكريين بينهم آمر فوج برتبة عقيد، وإصابة 6 عسكريين آخرين في مايو 2024م. وتُشير التقديرات إلى انتشار ما بين 5 إلى 7 آلاف مقاتلٍ داعشي بين سوريا والعراق، وأن ما يقرُب من 11 ألف مسلَّحٍ يُشتبَه في انتمائهم لـ«داعش» في شمال شرق سوريا، محتجزين في مقرّات تابعة لقوّات سوريا الديمقراطية الكُردية. وتكشف دلائل عودة التنظيم في العراق عن هشاشة المؤسَّسات الأمنية، وغياب المشروعات التنموية في المناطق المُحرَّرة من «داعش»، لتصبح طاردة لعناصر التنظيم.

كما أن البيانات التي أصدرتها القيادة الأمريكية المركزية «سنتكوم»، قد أشارت بوضوح إلى أنَّ عدد العمليات المشتركة ضدّ «داعش» بلغ 137 عملية، في غضون الأشهر الستة الأولى من العام 2024م؛ ما يُعَدُّ دليلًا على أنَّ العراق لا يزال بحاجة إلى الدعم العسكري الأمريكي. وكذلك تُشير الإحصاءات إلى أنَّ هجمات «داعش» في العراق وسوريا خلال الأشهر الستة الأولى فقط من عام 2024م، بلغت 120 هجومًا، في حين بلغ عدد الهجمات خلال عام كامل (عام 2023م)، نحو 120 هجومًا؛ ما يعني أنَّ العمليات الإرهابية في العراق في تصاعُد[22].

ب. استمرارية الحواضن الفكرية لفلول التنظيم: تتوافر في العراق حواضن فكرية للتنظيم، في ظل تنامي مشاعر السخط الاجتماعي نتيجة الهيمنة الشيعية على العراق، واعتماد النظام الشيعي الحاكم في العراق على برامج مذهبية لإرساء الهويَّة الشيعية، مع تبنِّي سياسة الإقصاء والتهميش تجاه بقية المكوِّنات المذهبية والعِرقية. هذه المعادلة أسهمت في خلق شرائح شبابية ساخطة وناقمة على الدولة والنظام؛ ما يُسهِّل من عمليات التجنيد والانخراط في التنظيمات الإرهابية. لذلك؛ كان إعلان رئيس الحكومة العراقية الأسبق حيدر العبادي عام 2017م، بأنَّ الانتصار على «داعش»، «انتصارُ عسكري»، إعلانٌ بالغ الدلالة؛ لكونه قصَرَ الانتصار على الجانب العسكري فقط لا الفكري، وفي ذلك إشارة إلى وجود حاضنة فكرية تُشكِّل تربة خصبة لإعادة بزوغ التنظيم الإرهابي وانتشاره من جديد.

ج. البيئة الأمنية الرخوة ومناطق الفراغ الأمني: البيئة العراقية تعجّ بالعديد من مناطق الفراغ الأمني، سواءً في الأقضية ذات الطبيعة الحقلية كثيفة الأشجار، أو التضاريس الجبلية الوعرة، التي تُتيح لعناصر التنظيم سهولة التخفِّي والتحرُّك بسرعة، مثل: التاجي والطارمية والشرقاط وغيرها، كما تتعدَّد في المحافظات المُحرَّرة من «داعش»، وفي المناطق الحدودية مع سوريا وتركيا؛ وذلك نتيجة تعدُّد الأجهزة والهيئات المعنية بحفظ الأمن، ما بين وزارة الداخلية والجيش وهيئة الحشد الشعبي، وتداخُل صلاحياتها وتعدُّد خلافاتها حول المصالح ما بين الجيش والداخلية، اللذين يُعليان من المصالح الوطنية ضمن تصوُّر وطني شامل، وهيئة الحشد الشعبي التي تُعلي من المصالح الطائفية ضمن تصوُّر مذهبي؛ ما أضعف من مستويات التنسيق الأمني والحيلولة دون خِطَط فعّالة لإدارة المعارك بفاعلية ضدّ التنظيمات الإرهابية، إضافة إلى ضعف الجيش بشكل عام؛ إذ يرى الخبير العسكري العراقي أحمد الشريفي، أنَّ العراق لا يمتلك الجهد التقني، الذي يمكِّنه من تعويض الثغرة، التي يُتوقَّع حدوثها حال الانسحاب الأمريكي، موضِّحًا: «ما يمتلكه العراق لا يكفي لتنفيذ إستراتيجيات مواجهة أو ردع ضدّ تنظيمات مثل "داعش"، أو حتى ضبط الأمن داخل البلاد»[23]. وأشار تحليل نشره المعهد الدولي للدراسات الإستراتيجية، إلى أنَّ «العراق لا يزال قوَّة عسكرية ضعيفة نسبيًا»[24]، كذلك أشار بعض وُجهاء العشائر إلى قُدرة التنظيم على استغلال الانتشار الميليشياوي في المناطق السُنِّية المُحرَّرة من «داعش»، بارتداء أزياء مشابهة لأزياء مقاتلي الميليشيات في التخفِّي، ولاسيّما أنَّ الميليشيات لا تبدو في الواقع على عداء كبير مع التنظيم بقدر عدائها مع قوّات التحالف الدولي المعنية بمحاربة التنظيم[25]، بدليل عدم شنِّها هجمات ضدّ التنظيم منذ مشاركتها في الحملة العسكرية الواسعة في عام 2017م، التي على ما يبدو كانت تشارك فيها للسيطرة على المناطق المُحرَّرة، على الرغم من أنَّ أحد ادّعاءاتها في انتشارها في العراق محاربة التنظيم، مقابل شنِّها عشرات بل مئات الهجمات ضدّ قوات التحالف.

د. استئناف التنظيم لأنشطته في الخارج: أعاد التنظيم تجميع صفوفه في سوريا الحدودية مع العراق، واستأنف أنشطته في مناطق بادية حمص والسويداء وحماة والرقّة ودير الزور وحلب، كما يضُمّ شمال شرق سوريا مخيَّمي «الهول» و«روج»، اللذان يضُمّان نحو 55 ألف شخص، بينهم أكثر من 11,800 عراقي، ونحو 16,000 سوري، والبقية من أكثر من 60 دولة[26]؟ وتُشير التقارير الإستخباراتية إلى أنَّ سُكّان المخيَّمين تجمعهم روابط عائلية بعناصر التنظيم، وفُرَص تجنيدهم عالية، وإلى مساعي «داعش» ضمن برنامج «أشبال الخلافة» لتجنيد الأطفال في المخيَّمين، وانتشار العديد من العناصر الإرهابية، التي غيَّرت ثوبها العسكري بثوب مدني، بعد انتهاء المعارك في العديد من المُدُن السورية، واندمجوا ضمن سُكّانها كنوع من التمويه على انتماءاتهم، ولاسيّما أنَّ تلك المدن تعاني من تراخي القبضة الأمنية بما يتيح لهم إمكانية الانخراط في عمليات داخل العراق. كذلك تُتيح

التوتُّرات الإقليمية منذ انفجار الحرب في غزة، بيئة أمنية مواتية تُسهل التخفِّي لعناصر التنظيم عبر الحدود العراقية-السورية.

هـ. ارتفاع فُرَص الصراعات الطائفية والعِرقية: من بين التداعيات المُحتمَلة للانسحاب الأمريكي، تكرار سيناريو الصراعات الطائفية والعِرقية، التي شهِدها العراق خلال المراحل الأولى من الغزو الأمريكي، وذلك بالنظر إلى تنامي حالات السخط في الأوساط السُنِّية والكُردية؛ نتيجة تبنِّي الشيعة سياسة الإقصاء والتهميش ضدّ المذاهب المختلفة، والاستقواء بالخارج ضدّ المصالح الوطنية، وبالتالي ارتفاع فُرَص الصراعات الطائفية والعِرقية، التي من شأنها إهدار الطاقات والموارد والثروات، وإظهار مزيد من التدخُّلات الخارجية، التي من مصلحتها ديمومة الصراعات لتنفيذ المخطَّطات، ورُبَّما فتح الباب على مصراعية للحديث عن مخطَّطات تقسيم العراق، الحضارة والتاريخ، على أساس الدين والعِرق، في توقيت خطى فيه العراق خطوات نحو تسطير الأمن، بل وقيامه ببعض الأدوار الإقليمية، مثل الوساطة في جولات المباحثات السعودية-الإيرانية، التي مهَّدت لتوقيع اتفاق المصالحة برعاية صينية في مارس عام 2023م.

إجمالًا، يزيد خروج القوّات الأجنبية من العراق الوضع تعقيدًا، ويُسهِم في ترسيخ القبضة الإيرانية على الساحة العراقية؛ مما يؤدي إلى خلق فوضى أمنية عارمة، وتعقيد الأزمات السياسية والأمنية والخدمية، ويوفِّر تربة خصبة لمزيد من الأنشطة الإرهابية، وتنشيط الخلايا النائمة في العراق وسوريا.

رابعًا: التداعيات الإقليمية المُحتمَلة للانسحاب الأمريكي

من شأن خروج القوّات الأجنبية من الساحة العراقية التأثير على قاعدة التوازن الإقليمي، وتأثُّر العلاقة بالشركاء الخليجيين، وذلك على النحو الآتي:

1. انهيار التوازن الإقليمي لصالح إيران

بما أنَّ العراق يُشكِّل قاعدة الإنطلاق الأولى لإيران في مشروعها الجيوسياسي، ويحتوي على ذراع عسكري مسلَّح، وممرّ رئيس لتهريب الأسلحة إلى ميليشياتها في سوريا ولبنان؛ فإنَّ خروج القوّات الأمريكية من شأنه إرساء معادلة إقليمية جديدة ينهار خلالها التوازن الإقليمي لصالح إيران، إذ تزداد توقُّعات تشكيل قوَّة موحَّدة من الميليشيات المسلَّحة أكثر صلابة في الساحتين العراقية والسورية، مماثلة لقوَّة حزب الله في لبنان والحوثيين في اليمن، باعتبارهما الحلقتين الأضعف في النفوذ الإيراني، وتعزيز المخزونات العسكرية والحربية لـ «حزب الله» في لبنان؛ لإحداث مزيد من التحوُّل في قوَّة الحزب؛ مما يسهم في تغيير موازين القوَّة في الشرق الأوسط، وتغيير قواعد اللعبة لصالح ما أسمته إيران بـ «محور المقاومة»، وصعود أدوار الفاعلين من غير الدول كفاعلين رئيسيين وليس ثانويين

في ساحات النفوذ، وتوفير حواضن مواتية لتنشيط الخلايا الإرهابية؛ لأنَّ التجارب كشفت عن أنَّ تنامي أدوار الفاعلين من دون الدول يلازمه صعود أدوار التنظيمات الإرهابية.

المعادلة الإقليمية المُحتمَلة ستُخلِّف مزيدًا من الفوضى الإقليمية، وتعزيز الخصومات وتعقيد الصراعات، وإنهاء الهُدَن والتسويات عند تسابُق القُوى الإقليمية للسيطرة على التداعيات الأمنية الناجمة عن الفراغ العسكري الأمريكي، حيث يُتوقَّع أن تسعى إيران التي استثمرت بكثافة -ماديًّا وبشريًا- في مشروعها التوسُّعي لسدِّ الفراغ بتعزيز أدوار ميليشياتها في الساحة الإقليمية؛ ما يؤدِّي بدوره إلى مزيد من المواجهات المسلَّحة بين إيران وخصومها الإقليميين المناهضين للمشروع الإيراني التوسُّعي. كما يمكن الإشارة إلى حَدَث إقليمي بارز أضرَّ -ولا يزال- بالأمنين الإقليمي والدولي، نتيجة تراجُع الدور الأمريكي في المنطقة، حيث انقلب الحوثيون المدعومون من إيران من السيطرة على العاصمة صنعاء عام 2014م، وتمكَّنوا من تكثيف الحضور العسكري على البحر الأحمر. ومن حينه يكتوي الإقليم والعالم -بما فيه الولايات المتحدة ذاتها- بتهديدات واعتداءات الحوثيين للملاحة والتجارة الدولية في البحر الأحمر، بل وتمادى الحوثيون في أنشطتهم، لتطال الأمن الملاحي في البحر المتوسِّط، والانخراط العسكري في الحرب في غزة.

2. خسارة العراق للشراكة الخليجية

يُتوقَّع أن يكون مستقبل العلاقات الخليجية-العراقية على المحكّ، ليس رغبةً من الدول الخليجية الساعية لتعزيز علاقاتها بالعراق، وإنَّما سيكون واقعًا مفروضًا على الدول الخليجية بحُكم ورقة العقوبات المُتوقَّع أن تلجأ إليها واشنطن بوصفها ورقةً ضاغطة على العراق للحدِّ من علاقاته مع إيران، وفي هذه الحالة ستحُول سياسة العقوبات دون قُدرة الدول الخليجية على تعزيز علاقاتها بالعراق.

وأولى التداعيات السلبية لفرض العقوبات، تتمثَّل في تعطيل مشروعات الربط الكهربائي الخليجي-العراقي، مما يؤدي إلى استمرارية أزمة الكهرباء، خصوصًا في ظل العجز الكبير في إنتاج الكهرباء إلى النصف تقريبًا؛ 14 ألف ميجاوات (عجز 49%)، الذي ظهر تأثيره في عدد ساعات انقطاع الكهرباء على مدار اليوم، حيث يُنتِج العراق نحو 16 ألف ميجاوات من الكهرباء فقط، بما فيها الحصَّة الإيرانية (الغاز والكهرباء الإيرانيين المصدَّرين للعراق) كاملة، البالغة الثُلث تقريبًا من إجمالي الكهرباء العراقية[27]، في وقت تبلغ فيه الحاجة العراقية إلى الضعف تقريبًا بنحو 30 ألف ميجاوات؛ لكي تتمكَّن البلاد من تأمين الكهرباء على مدار اليوم[28]، وبالتالي استمرارية استغلال إيران للأزمة كورقة ضغط ضدّ الحكومات العراقية، وتنامي حالات الاحتقان الشعبي المُفضِي لإشعال فتيل الاحتجاجات، خاصَّةً في فصل الصيف.

ويتتمثَّل ثاني التداعيات المُحتمَلة، في تعثُّر تنفيذ مقترحات المشروعات التنموية العابرة للحدود مع دول الخليج، ولاسيّما مشروع «طريق التنمية»، الذي اقترحه العراق

بوصفه مشروعًا تنمويًّا داعمًا لتوجُّهات الاقتصاد المُستدام وتنويع مصادر الدخل، وتحويل العراق إلى محطَّة عبور رئيسة للتجارة بين العراق ودول الخليج وتركيا ثمَّ أوروبا، بما يسهم في معالجة أزماته، ويربط العراق بتسع دول[29*] أغلبها خليجية، وبالتالي فُقدان العراق لمكاسبه الإستراتيجية والاقتصادية التي يطمح في تحقيقها عند تنفيذ المشروع[30].

أما ثالث التداعيات، فيتمثَّل في إضعاف الطفرة، التي تشهدها العلاقات التجارية والاستثمارية الخليجية-العراقية منذ منتصف العقد الثاني من الألفية الثالثة؛ حيث باتت الإمارات شريكًا تجاريًا هامًّا للعراق، بحجم تجاري لا يقِلّ عن 27 مليار دولار سنويًا، ومعدل نمو سنوي لا يقِلّ عن 6%[31]. كما عمِلَت قطر على تعزيز استثماراتها في العراق وتنويعها، حيث وقَّع البلدان على اتفاقيات استثمارية بقيمة 7 مليارات دولار في مجالات التطوير العقاري والسياحي في يونيو 2023م. وازداد أيضًا معدل التبادل التجاري بين الرياض وبغداد خلال الأعوام الستة الماضية، ليصِل إلى مليار دولار سنويًا؛ ما يشكِّل بداية علاقة تجارية متسارِعة في ظل مساعي الشركات السعودية لمضاعفة صادرتها، التي يزداد الطلب العراقي عليها، مثل المواد الغذائية والإنشائية والكهربائية[32]. العراق والدول الخليجية في حالة احتياج إستراتيجي مُتبادَل، ليس فقط بحُكم الروابط الدينية واللغوية والقومية والتاريخ المشترك، وإنَّما لأبعاد إستراتيجية تتعلَّق بارتباط العراق بحدود مع دولتين خليجيتين: السعودية والكويت، وضرورة التنسيق في السياسات النفطية في منظَّمة «أوبك»، بحُكم الاحتياطات النفطية.

خامسًا: التداعيات المُحتمَلة على المكانة الأمريكية الدولية

تُفيد التجارب التاريخية، بأنَّ «الفراغ الإستراتيجي» الناجم عن الانسحابات العسكرية للقوَّة العُظمى، مثل الولايات المتحدة، لا يُحدِث خللًا في التوازنات الداخلية في الدولة المُنسحَب منها فقط، وإنَّما بالطبع يرتِّب تداعيات إستراتيجية على موقع الولايات المتحدة ومكانتها، كالآتي:

1. الولايات المتحدة.. من الهيمنة إلى حروب الهيمنة

تُعَدُّ الانسحابات الأمريكية من الأقاليم الإستراتيجية، أحد الأسباب الجوهرية لتراجع القوَّة الأمريكية في هرمية القُوى الدولية؛ لكونها تُسهِم في تقليص الحضور الأمريكي العالمي، الذي تعتمد عليه الولايات المتحدة في فرض أجندتها وهيمنتها العالمية، وبالتالي تُتيح فُرصة للقُوى التعديلية لإحداث تغييرات في توزيع القوَّة لصالحها، ومزيد من تمرُّد القُوى الإقليمية والدولية على القواعد الأمريكية العالمية؛ مما يؤدي -وفقًا لآراء كبار المنظِّرين مثل روبرت غيلبين وروبيرت كوهين- إلى مزيد من صراعات الهيمنة تمهيدًا لما يُسمَّى بـ «حروب الهيمنة» بين الولايات المتحدة والصين، نتيجة إدراك واشنطن إعادة توزيع القوَّة لغير صالحها. لذلك؛ تعزِّز الولايات المتحدة من استخدام أدوات «الإقناع الإكراهي»، التي

تستند إلى عناصر قوَّتها المتفوِّقة، أو عن طريق توجيه ضربة إجهاضية مُكلِفة للغاية للقُوى الصاعدة؛ لوقف التحوُّل في القوَّة[33].

تحدَّث مقال بعنوان «أمريكا فقدت قيادتها العالمية» في صحيفة «نيويورك تايمز» الأمريكية، عن أنَّ «الصين وإيران وكوريا الشمالية اقتربت من روسيا لمواجهة الهيمنة الأمريكية، وأنَّ بقية العالم ليس في عجلة من أمره للوقوف إلى جانب الولايات المتحدة، فقط حُلفاء الولايات المتحدة فرضوا عقوبات على روسيا، وفي أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية والشرق الأوسط، تحسَّنت بالفعل التصوُّرات عن روسيا والصين منذ عام 2022م»[34]. وسبق أن ذكرت صحيفة «الإيكونوميست» البريطانية، أنَّ النظام العالمي الليبرالي ينهار، وقد يكون انهياره لا رجعة فيه[35]؛ لذلك فإنَّ أيّ انسحابات أمريكية من شأنها الدفع نحو تقليص النفوذ الأمريكي العالمي.

2. زحْف القُوى الإقليمية والدولية التعديلية لسدِّ الفراغ

يوفِّر الفراغ الإستراتيجي الناجم عن الانسحابات الأمريكية في الأقاليم الإستراتيجية، مساحات تحرُّك مصلحي وأمني وإستراتيجي أمام القُوى التعديلية: الصين وروسيا وإيران، التي عادةً ما تسارع نحو استغلالها ضمن إستراتيجية ملء الفراغ، لكون الفراغ دائمًا يبحث عمَّن يملؤه؛ لأنَّ السياسة تخشى الفراغ، وذلك بهدف الحدِّ من الهيمنة الأمريكية العالمية، وإحداث تقارُب قوَّة بين القُوى المُهيمِنة والمنافِسة؛ والعمل على فرض ترتيبات جديدة في الإقليم الإستراتيجي، الذي انسحبت منه القُوى المُهيمِنة، بما يدفع القُوى الإقليمية الحليفة للقُوى المُنسحِبة نحو تعزيز ثقتها بالقُوى التعديلية المنافسة كقطب دولي يمكنه التأثير في مجريات الشؤون الدولية، بما يحقِّق مصالحها ويعزِّز مكانتها وتراتُبية قوَّتها في هيكل النظام الدولي، وانتزاع دور أكبر في القيادة الدولية.

3. اهتزاز ثقة الحُلفاء في الولايات المتحدة

يُحدِث الفراغ الإستراتيجي الناجم عن الانسحابات الأمريكية ارتباكًا في الترتيبات الإقليمية القائمة، لصالح ترتيبات جديدة يقِل خلالها التزام الولايات المتحدة بأمن الحُلفاء؛ لكونها تُحدِث فوضى إقليمية تزيد من حدَّة الصراعات القائمة، وتُشعِل الصراعات القابلة للانفجار، وبالتالي زيادة عبء وتكلفة الحُلفاء عند التحرُّك لمواجهة تداعيات ارتباك البيئة الأمنية الإقليمية. ولعلّ ذلك ما يولِّد أزمة ثقة بالنسبة للحُلفاء في قُدرة الولايات المتحدة على توفير الحماية اللازمة؛ ما يدفعهم نحو تعزيز قُدراتهم الذاتية، أو إنهاء التعويل على البديل الأمريكي فقط. وفي الحالتين، تتأثَّر المكانة الأمريكية عالميًا؛ لأنَّ شبكة التحالفات الإستراتيجية تُشكِّل أبرز عناصر القوَّة الأمريكية في القُدرة على الهيمنة الدولية، حيث تعتمد الولايات المتحدة على القُوى الإقليمية الحليفة في تعزيز نفوذها وحضورها الإستراتيجي في الإقليم الكائنة فيه من ناحية أولى، وفي مواجهة القُوى الإقليمية والدولية المنافسة على ذلك الإقليم الإستراتيجي من ناحية ثانية، وفي تعزيز حضورها ونفوذها

وقيادتها الدولية، والحفاظ على القواعد الدولية، التي أرســتها لخدمة مصالحها وهيمنتها العالمية، من ناحية ثالثة.

4. تعزيز اتّجاه التمرُّد الإسرائيلي على واشنطن

منذ توالي الانســحابات العســكرية الأمريكية، ســواءً الانســحاب الجزئي من سوريا أو الانسحاب الفوضوي من أفغانستان، أو تنامى الحديث عن الانسحاب من العراق، يتشكَّل اتّجــاهٌ في تل أبيب يركِّــز على عدم الاعتماد على واشــنطن في مواجهــة القضايا المُلِّحَة والملفات الســاخنة، حيث ترتفع تحذيرات مراكز الأبحاث الأمنية والإستراتيجية المقرَّبة من الحكومة في تل أبيب، من مغبَّة تداعيات الانســحابات الأمريكية على الشرق الأوسط وإســرائيل. وثمَّة من طرَحَ في المراكز الإســتراتيجية، بأنَّ الإدارات الأمريكية تعتمد نهجًا يُشير إلى رغبة واشــنطن في التخلّي عن الشرق الأوسط، بما يعزِّز من النفوذ الإيراني، على حدِّ تقديرها، حيث عدَّ الباحث في «معهد القدس للدراسات الإستراتيجية»، والذي شغَلَ سابقًا منصب مستشــار الأمن القومي لرئيس الوزراء بنيامين نتنياهو، الجنرال المتقاعد في الجيش الإســرائيلي يعقوب عميدرور، أنَّ الانســحاب الأمريكي من أفغانستان مؤشِّرٌ على انســحاب مماثل من العراق، وأنَّ حدوث ذلك الأمر من شأنه وضع إسرائيل في مقدِّمة المواجهــة مع إيران، وتعزيز نفوذ التيّارات والحركات الإسلامية في المنطقة بعد محاربتها، وتصاعُد التوتّــرات الإقليمية بتنامي الطموحات النووية والجيوسياســية الإيرانية مقابل تراجُع مكانة حُلفاء الولايات المتحدة، الذين ســيواجهون متغيِّرات أمنية تُهدِّد استقرارهم، بل والتأثير على مكانة الولايات المتحدة عالميًا في مواجهة الصين وروسيا[36].

انســجمت آراء كلٍّ من المحلِّل العســكري في صحيفة «يســرائيل هيوم» يوآف ليمور ويعقوب عميدرور ومدير «مركز أبحاث الأمن القومي الإسرائيلي» التابع لجامعة تل أبيب أودي ديكل، بأنَّ الانهيار الســريع للقوّات الأفغانية وسرعة سيطرة حركة طالبان على كابل يعكس فشلًا أمريكيًا في أفغانســتان؛ ما يفرض على تل أبيب أن تراقب بيقظة التطوُّرات المُحتمَلة في المنطقة، في حال الانسحاب الأمريكي، وما يمكن حدوثة في ساحات النفوذ الإيرانية، خاصَّةً في العراق وســوريا ولبنان واليمن، وبالتالي على إســرائيل اختبار قُدراتها وإعادة تقييم حدود قوَّتها العســكرية، في الاعتماد على ذاتها بخصوص مواجهة التحدِّيات الإقليمية المُحتمَلة للانسحاب الأمريكي. وطرَحَ أودي ديكل تساؤلًا مفاده: «يُطرَح السؤال مرَّةً أخــرى بين حُلفاء الولايات المتحــدة في المنطقة، ومن ضمنهم إســرائيل، هل يمكن الاعتماد على واشنطن في حالة وجود تهديد وجودي؟»[37]، ورُبَّما يُعَدُّ ذلك أحد التفسيرات لما تقوم به إسرائيل، في حربها حاليًا على غزة والجنوب اللبناني.

5. مزيد من تجرُّؤ الدول على قواعد الأُحادية القطبية

رُبَّما يعزِّز تراجُع الدور الأمريكي في الشـــرق الأوســـط، نظرة الدول تجاه تراجُع تأثير أدوات الهيمنة الأمريكية على القيادة الدولية، وضرورة الحصول على القدر المناســـب من القيادة الدولية، وبالتالـــي إظهار المزيد من التجرُّؤ على القواعد الحاكمـــة للنظام الدولي الأُحادي القطبية، حيث يربط الكثير من المنظِّرين الانســـحاب الأمريكي الفوضوي من أفغانستان بعِدَّة متغيِّرات تعكس تجرُّؤ الدول على القواعد الدولية المستقِرَّة منذ نهاية الحرب الباردة:

أ. قُدرة روسيا على اتّخاذ قرار بشَّن الحرب ضدّ أوكرانيا المحسوبة على المعسكر الغربي، واحتلالها جزء من الأراضي الأوكرانية.

ب. التحوُّل فـــي النمط التصعيدي الصينـــي تجاه تايوان، من التصعيد السياســـي إلى العسكري والاقتصادي، بإجراء بكين المناورات العسكرية الضخمة[38*]، في سيناريوهات تحاكي حصارها وعزلها بشـــكل كامل عن العالم، بل كسرت بكين قاعدة الاحتكار الأمريكي لفرض العقوبات، بفرضها عقوبات مماثلة على واشنطن.

ج. الانقسام الأوروبي في التعاطي مع الموقف الأمريكي تجاه تايوان، بعدما كانت العواصم الأوروبية تؤيِّد واشنطن تجاه تايبيه؛ نتيجة تداعيات الحرب الروسية-الأوكرانية المُكلِفة، حيث وضعت الحرب أوروبا في مأزق إستراتيجي.

د. ارتفاع مخاوف الدول في العديد من الدوائر الجغرافية؛ الشـــرق أوســـطية والعربية والشرق آســـيوية واللاتينية والأفريقية، من مسألة البديل الأمريكي فقط في علاقاتها الخارجية، وراحت تُعيد النظر في سياساتها نحو خلق بدائل وشراكات دولية جديدة إضافة إلى البديل الأمريكي، لخدمة مصالحها الإقليمية والدولية.

هـ. جُملة المتغيِّرات الســـابقة تُعطي مزيدًا من الإشارات الســـلبية للدول الراغبة في الانفصال عن المعسكر الغربي، حيث يُتوقَّع ارتفاع حالات عدم الثقة في الولايات المتحدة والغرب، مقابل ارتفاع الثقة في المعسكر الشرقي، وبالتالي مزيد من تعزيز الحضور الصيني والروسي العالمي؛ ما يُعَدُّ ضربةً كبيرة للنفوذ الغربي.

خاتمة

بما أنَّ الانسحاب الأمريكي المُحتمَل سيكون من دولة محورية في الشرق الأوسط؛ العراق، والدولة المُنســـحِبة تتقدَّم كُبريات القُـــوى الدولية، ويكون من إقليمٍ إســـتراتيجي يرتبط تاريخيًا بنظرية «الملء الإستراتيجي»، باعتباره من الأقاليم الأكثر أهمِّية في العالم، إن لم يكُن أهمَّها، ومنطقة اختبار للقُوى الطامحة في القيادة الدولية، وأنَّ من يسيطر عليه يمكنه فرض الســـيطرة على القرار الإقليمي بل والدولي؛ لذلك كان ولا يزال العراق إقليمًا للتكالب الدولي، وبالتالي فحتمًا ســـتكون هناك أطراف خاســـرة ورابحة من الانســـحاب الأمريكي المُحتمَل.

العراق -كدولة مكونات مذهبية وعِرْقية (شيعة/سُـنَّة/ كُرد)- أول الخاسرين بحجم خسـائر ضخمة قد تصِل لمسـتوى شـلَل الدولة والنظام عن آداء وظائفـه بالكامل؛ لأنَّه في حال فرض العقوبات، سيخسـر العـراق عائدات بيع النفط والاسـتثمارات الأجنبية والعلاقـات التجارية الخارجية (مثلما حدَثَ مع إيران بعد فرض العقوبات)، والقدر المُتاح من الاستقرار الهشّ، والمعلومات الاستخباراتية الحسّاسة، التي كان يحصل عليها العراق من الاستخبارات الأمريكية عن المخطَّطات الإرهابية والمناطق السرِّية لتمركُزات العناصر المتطرِّفـة والخلايا النائمة والتكتيكية والنشِـطة، وبالتالي سـتزداد الأعباء على الجيش العراقي بمختلف صنوفها، سواءً على المستوى الاستخباراتي، أو القتالي، أو الغطاء الجوِّي الضروري للجيش العراقي في مواجهة التحدِّيات الأمنية. كذلك سيخسـر العراق التوازن غيـر المتكافئ بين مكوِّنات الدولة السياسـية والمذهبية والعِرقية، ممـا يؤدي إلى عودة الصراعات العرقية والطائفية، وكل ذلك من شـأنه أن يفاقم حدَّة الأزمات، التي تعاني منها الدولة، وانتقال الأوضاع المعيشـية إلى مرحلة أكثر تأزُّمًا لحدِّ الانفجار الشعبي المُفضِي إلى فوضى عارمة. ومع توقُّع ضعف مؤسَّسـات الدولة في السيطرة على زمام الأمور، ربما يتدخَّل الفاعلين من غير الدول للسيطرة على الأوضاع، في مشهد رُبَّما يقترب من المشهد الأفغاني.

فهل لم يستفِد العراق من دروس الماضي القريب، عندما أصرَّ نوري المالكي عام 2011م على إخراج القـوّات الأمريكية، حيـث ترتَّبت على إصراره تداعيات خطيرة أسـفرت عن ولادة تنظيم داعش وسـيطرته المكانية، وبعدها اضطرَّ العراق إلى دعوة القوّات الأمريكية لمساعدته في دحر التنظيم الإرهابي؟

الولايات المتحدة وحلفاؤها في الشـرق الأوسط ثاني الخاسـرين بحجم خسائر كبير؛ لكونها تمّسّ انتشارها العسكري العالمي، الذي يلعب دورًا كبيرًا في فرض هيمنتها الدولية، حيث تفقد بانسحابها العسكري المُحتمَل منطقة نفوذ إستراتيجية في الشرق الأوسط، بما يعيد للأذهان سيناريو الانسـحاب الفوضوي من أفغانستان، ويرتِّب أبعادًا إقليمية ودولية سلبية تُؤثِّر على مكانتها الدولية، مثل الأبعاد السلبية التي رتَّبها الانسحاب من أفغانستان على موقع الولايات المتحدة ومكانتها عالميًا؛ مما يؤدي إلى إعادة توزيع القوَّة لصالح القُوى الدولية التعديلية، مثل الصين وروسـيا. كما ستخسـر الثقة المتبقِّية لدى الحُلفاء، ليس فقط في الشرق الأوسـط وإنَّما في الأقاليم الجغرافية المختلفة في آسيا وأفريقيا وأوروبا، في قُدرة الولايات المتحدة على الاستمرارية في توفير الحماية، بما يدفعهم نحو خلق مزيد من الشراكات مع القُوى التعديلية على نحوٍ يُقلِّص من الفترة الانتقالية، التي يمُرّ بها النظام الدولي لصالح الأقطاب الصاعِدة. كما أنَّ الانسـحابات العسكرية المُحتمَلة تؤثِّر على أمن الحُلفاء، وتزيد من تكلفتهم لتوفير الحماية الذاتية، بما يعطي مزيدًا من الإشارات السلبية للدول الراغبة في الانفصال عن المعسكر الغربي، مقابل ارتفاع الثقة في المعسكر الشرقي.

أمّا بالنسبة للأطراف الرابحة، تأتي إيران وميليشياتها في العراق في المقدِّمة؛ لكونها ستُبرِز نفسها على أنَّها الطرف المنتصر في المعركة مع الولايات المتحدة في العراق، وتحقيق الهيمنة المنفردة على العراق دولةً ونظامًا، بما يسمح لها لرُبَّما بنقل مشروعها التوسُّعي إلى مرحلة أكثر تمدُّدًا وتوسُّعًا من مرحلة العسكرة والدمج، وهو ما قد يسمح لها بمزيد من إرساء الهويَّة الشيعية، والتحكُّم في مصادر قوَّة الدولة وعناصر الإنتاج. كل ذلك يوفِّر لإيران فُرَص القضاء على مسار الدولة، مع تنفيذ مشروعاتها الجيوسياسية، مثل «الكوريدور» الإيراني أو ما يُسمَّى بـ «الهلال الشيعي». فما كُنَّا نتحدَّث عنها بوصفها مشاريع رغبوية إيرانية حينها، يمكن تطبيقها على أرض الواقع؛ ما يفاقم تكلفة المواجهة. أيضًا ستربح الصين وروسيا، فكل منطقة فراغ تخلِّفها الولايات المتحدة تستغِلّها الصين وروسيا، ضمن إستراتيجيتهما لمزاحمة الولايات المتحدة في القيادة الدولية والهيمنة على النظام الدولي، كما يمثِّل الانسحاب الأمريكي من العراق خبرًا سارًّا للقُوى الآسيوية الحليفة للولايات المتحدة؛ لكونهم يريدون من واشنطن المزيد من تطويق الصين.

على ضوء المعطيات السابقة، يظلّ الانسحاب الأمريكي من العراق محلّ شكّ، وأنَّ ما يجري من مفاوضات للانسحاب، يأتي لكسب المزيد من الوقت من جانب واشنطن وبغداد، لإدراك واشنطن عواقِب الانسحاب وخسائره على مكانتها الدولية، كما أنَّها قد لا تُفضِّل تكرار لحظتي كابل وسايغون، وتداعياتها على تراتُبية القوَّة الأمريكية في هرمية القُوى الدولية. وتُدرِك واشنطن أنَّ أي انسحاب أمريكي جديد، يعني خصم نقاط من رصيدها في إطار معركة الكسب بالنقاط مع القُوى التعديلية، حيث سيُقرأ على أنَّه انتصار للمعسكر الشرقي، الذي يزاحم الولايات المتحدة في المنطقة، كما أنَّه سيكون انتصارًا لإيران الطامحة في طرد القوّات الأمريكية من الشرق الأوسط، حيث إنَّ الحضور الأمريكي في العراق يحقِّق للولايات المتحدة توازنًا مهمًّا مع النفوذ الإيراني في العراق والإقليم وحفظ أمن الحُلفاء، ولاسيّما إسرائيل. كما يصعُب تصوُّر الانسحاب في توقيت تعزِّز فيه الولايات المتحدة حضورها العسكري في المنطقة، على خلفية انفجار الساحة الإقيمية؛ ما يجعل من مسألة الانسحاب أمرٌ شبه مستحيل، كما يبدو أنَّ رئيس الوزراء العراقي يعي عواقب الانسحاب على بلاده؛ ما دفعه إلى فتح ملف المفاوضات مع الجانب الأمريكي بخصوص الانسحاب، من خلال تشكيل «اللجنة العسكرية العُليا HMC» المشتركة، مُضِيًا على طريقة حكومتي عادل عبد المهدي ومصطفى الكاظمي، التي تهدُف إلى امتصاص مطالب وضغوط بعض القُوى السياسية الضاغِطة المطالِبة بالانسحاب الأمريكي، وتتطرَّق للخطوط العريضة الأمريكية-العراقية، دون تحديد جدولة وتوقيتات صريحة للانسحاب الأمريكي من العراق.

وقد يرتبط الأمر بنتائج الانتخابات الرئاسية الأمريكية 2024م، حيث يُتوقَّع في حال فوز كامالا هاريس مُضِيها في استكمال توجُّه الرئيس جو بايدن الإستراتيجي وإستراتيجية

الأمن القومي الأمريكي للعام 2022م، التي تقضي بأولوية مسرح جنوب شرق آسيا على الشرق الأوسط لتطويق الصين، وبالتالي يُتوقَّع مُضِي هاريس نحو تخفيض عدد القوّات الأمريكية في العراق، أمّا في حال فوز دونالد ترامب، والذي يُتوقَّع أن يستأنف سياسته الأكثر تشدُّدًا تجاه إيران، يُرجَّح تحويله العراق إلى ساحة رئيسة للتنافس مع إيران. لكن على واشنطن إدراك أنَّ تنامي الغضب الشعبي، وأحيانًا الرسمي، إزاء موقفها الداعم لإسرائيل سياسيًا وعسكريًا في حرب غزة ولبنان، من شأنه إظهار المزيد من الضغوط على الحضور العسكري الأمريكي في العراق، بما قد يدفع نحو مزيدٍ من الضغط لجدولة الانسحاب من العراق.

المصادر والمراجع

(1) يُقصَد بالفراغ الإستراتيجي: تلك المساحات المصلحية، التي تسمح لقُوى خارجية إقليمية كانت أو دولية بالتدخُّل لاستغلالها، في محاولة منها لممارسة أدوار أو ترتيبات جديدة تحقِّق لها مزيدًا من مصالحها، وتعزِّز مكانتها في النظام الدولي وتحقيق التحوُّط الإستراتيجي والأمني، من خلال العمل فيها، وتنجُم تلك المساحات عن انهيار ترتيباتٍ إقليميةٍ ما، بفعل انسحاب أو تراجُع دور دولة عُظمى أو كُبرى من إقليمٍ ما، أو بفعل تراجُع أو غياب دور دولة قيادة إقليمية في إقليمٍ ما، أو بفعل انهيار دولةٍ ما بشكل يترك خلفه مجالًا لعمل القُوى الخارجية.

(2) «التحالف الدولي لمحاربة تنظيم داعش» تأسَّس عام 2014م، برعاية أمريكية وبمشاركة 87 دولة، تحظى فيه الولايات المتحدة بالمشاركة الأوسع، بعدد قوّات 2500 جندي، بعدما كان 5500 جندي. ويهدُف التحالف إلى محاربة «داعش» في العراق، من خلال ضرب البنية التحتية الاقتصادية والمالية للتنظيم، والتصدِّي لتدفُّق المقاتلين الأجانب عبر الحدود، ودعْم الاستقرار في المناطق المُحرَّرة من داعش. المصدر: https://2u.pw/VcdHxsn

(3) «يونامي» بعثة سياسية أُممية تأسَّست في عام 2003م، بموجب قرار من مجلس الأمن رقم 1500، بناءً على طلب الحكومة العراقية، لمساعدة العراق على مواجهة متطلَّبات إعادة بناء الدولة. وتعمل البعثة على تقديم المشورة والدعم والمساعدة للحكومة العراقية، بشأن تعزيز الحوار السياسي الشامل والمصالحة الوطنية، وتقوم بدور رقابي على الأداء الحكومي، من خلال مكاتبها المنتشرة في عموم العراق، والتي يبلغ عدد العاملين فيها نحو 648 شخصًا، بينهم 251 موظَّفًا دوليًا و397 محليًا، بيْد أنَّ هذا الدور الرقابي يُثير استياء وغضب بعض الأطراف السياسية التي لا ترغب بوجودها. المصدر: الموقع الرسمي للبعثة: https://2u.pw/kVd6ux7y.

(4) Reuters, Exclusive: US-Iraq deal would see hundreds of troops withdraw in first year, sources say, (Sep 6, 2024), Accessed: Sep 10, 2024, https://2u.pw/mTPTlnk7

(5) كردستان 24، بالوثيقة | السوداني يطلب رسميًا إنهاء أعمال بعثة الأُمم المتحدة في العراق، (10 مايو 2024م)، تاريخ الاطلاع: 20 أغسطس 2024م، https://2u.pw/cr5XAi4Y

(6) وكالة الأنباء العراقية، رئيس الوزراء: إنهاء مهمَّة يونامي جاء بفضل تضحيات شعبنا وقوّاتنا، (04 يونيو 2024م)، تاريخ الاطلاع: 20 أغسطس 2024م، https://2u.pw/0hwDf6TA

(7) وكالة الأنباء العراقية، العوادي: إنهاء عمل بعثة اليونامي جاء بطلب عراقي وتوصية أُممية، (11 مايو 2024م)، تاريخ الإطلاع: 2 أغسطس 2024م، https://2u.pw/EoUVNRIH

(8) politico, Iraqi officials privately signal they want US forces to stay, (Sep 1,2024), Accessed: Sep 10, 2024, https://2u.pw/EwTg89f

(9) رهبر معظم انقلاب اسلامی در دیدار نخست وزیر عراق: کاری کنید که نظامیان امریکایی هرچه زودتر از عراق خارج شوند، (17 فروردین، 1398)، تاریخ الإطلاع: 2 سبتمبر 2024م، https://2u.pw/q0LHMrnL

(10) رهبر معظم انقلاب اسلامی در دیدار نخست وزیر عراق: ایران خواهان عراقِ عزتمند و مستقل، و آمریکا دشمن عراق قوی است، (31 /تیر/ 1399)، تاریخ الإطلاع: 2 سبتمبر 2024م، https://2u.pw/ViibgbZI

(11) خامنه‌ای: حتی حضوریک امریکایی در عراق "بیش از حد" است، (1402/2/10)، تاریخ الإطلاع: 2 سبتمبر 2024م، https://2u.pw/CRJjmV0o

(12) NY times, After U.S. Strikes, Iran's Proxies Scale Back Attacks on American Bases, (Feb 27, 2024), Accessed: Sep 20, 2024), https://2u.pw/pNvwqEG

(13) وكالة دجلة للأنباء، المتحدِّث العسكري لكتائب حزب الله: كل القواعد الأمريكية في غرب آسيا أصبحت أهدافًا للمقاومة العراقية، فيديو على اليوتيوب، (28 يوليو 2021م)، تاريخ الاطلاع: 5 سبتمبر 2024م، https://2u.pw/BJx8nzjG

(14) إذاعة طهران، النجباء: تواجُد سرِّي للأمريكان في جميع مفاصل الدولة العراقية، (28 يناير 2024م)، تاريخ الاطلاع: 5 سبتمبر 2024م، https://2u.pw/pbkaYlDS

(15) مشعان الجبوري، مشاركة على منصَّة إكس، (8 فبراير 2024م)، تاريخ الاطلاع: 5 سبتمبر 2024م، https://2u.pw/3NWzFkbD

(16) الشرق الأوسط، في ظلّ الرفض السُنّي والكُردي وعدم قبول معظم القُوى السياسية بمعاداة واشنطن، (11 فبراير 2024م)، تاريخ الاطلاع: 7 بتمبر 2024م، https://2u.pw/j9yar2fE

(17) كرار حيدر الموسوي، من يقرِّر انسحاب القوّات الأمريكية من العراق الحكومة أم السياسيون أم الفصائل المسلَّحة أم إيران، (22 نوفمبر 2021م)، https://2u.pw/iJY4V9t9

(18) federalregister, Protecting the Development Fund for Iraq and Certain Other Property in Which Iraq Has an Interest, (May 28, 2003), Accessed: Sep 20, 2024, https://2u.pw/i5PfiVrs

(19) الحرة، الحصانة الأميركية على أموال العراق.. كيف بدأت وماذا تعني؟، (18 أبريل 2024م)، تاريخ الاطلاع: 1 سبتمبر 2024م، https://2u.pw/FAhxKdRw

(20) مؤسَّسة البتّار الإعلامية المعنية بتفريغ الفيديو المرئي وعرضه بمضمونه في نصوص وكلمات مكتوبة، مضمون فيديو «كسْر الحدود»، (02 يوليو 2014م)، ص 8، https://2u.pw/fSINWa6i

(21) مكتب الأُمم المتحدة المعني بالمخدّرات والجريمة –الأُمم المتحدة– فيينا، المقاتلون الإرهابيون الأجانب دليل لمعاهد التدريب القضائي في بلدان الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، الإصدار الأول 2021م، ص 21، تاريخ الاطلاع: 1 سبتمبر 2024م، https://2u.pw/1lzdoBKd

(22) الحرة، الانسحاب الأمريكي من العراق .. تبايُن في المواقف ومخاوف من التبِعات، (22 سبتمبر 2024م)، تاريخ الاطلاع: 11 سبتمبر 2024م، https://2u.pw/8vTbRRJb

(23) الحرة، ماذا قد يعني انسحاب قوّات التحالف من العراق؟، (27 يناير 2024م)، تاريخ الاطلاع: 11 سبتمبر 2024م، https://2u.pw/UHuTV5yL

(24) csis, Iran and the Changing Military Balance in the Gulf–Net Assessment Indicators, (Mar 26, 2020), Accessed: Sep 20, 2024, https://2u.pw/N0zN8aXd

(25) الحرة، هجمات «داعش» في العراق.. التنظيم يستغلّ ثغرات أمنية في مناطق الفراغ، (03 مايو 2021م)، تاريخ الاطلاع: 11 سبتمبر 2024م، https://2u.pw/jXMP5wD2

(26) الحرة، أتباع بالآلاف في سوريا والعراق.. خبراء أُمميون يحذِّرون من «تهديدات داعش»، (15 أغسطس 2023م)، تاريخ الاطلاع: 11 سبتمبر 2024م، https://2u.pw/2MV4rVZ

(27) «بي بي سي عربي»، كهرباء العراق: ما البُعد الإيراني في أزمة الكهرباء التي يعيشها العراق؟، (02 يوليو 2021م)، تاريخ الاطلاع: 11 سبتمبر 2024م، https://2u.pw/qmfsKHuM

(28) روداو، الكاظمي: من حقّ العراق امتلاك الطاقة النووية وكل خطوة لحلّ مشكلة الكهرباء تتطلَّب سنوات، (03 يوليو 2012م)، تاريخ الاطلاع: 11 سبتمبر 2024م، https://2u.pw/ceq9g5ks

(29) خمسة دول خليجية: السعودية والإمارات وسلطنة عُمان والكويت وقطر، بالإضافة إلى تركيا وإيران وسوريا والأردن، اقترحه رئيس الحكومة العراقية محمد شيّاع السوداني في مايو 2023م، كطريق للتنمية يربط ميناء الفاو الكبير على الخليج العربي بتركيا، من خلال شبكات السكَّة الحديدية والطُرُق، ومنها إلى شبكة النقل الأوروبية للوصول إلى الأسواق الأوروبية.

(30) الباحث العراقي: د. ثامر محمود العاني، نظرة على طريق التنمية بين تركيا والعراق ودول مجلس التعاون الخليجي، الشرق الأوسط، (06 مارس 2024م)، تاريخ الاطلاع: 20 مايو 2024م، https://2u.pw/LvIs1dLy

(31) العربية، مصرف التنمية الدولي: نُدير نحو 8% من التبادل التجاري بين الإمارات والعراق، (28 سبتمبر 2023م)، تاريخ الاطلاع: 20 أغسطس 2024م، https://2u.pw/FS6WIPDt

(32) العربية، ارتفاع التبادل التجاري بين السعودية والعراق إلى نحو مليار دولار سنويًا، (14 يناير 2024م)، تاريخ الاطلاع: 05 سبتمبر 2024م، https://2u.pw/FUHJkoJ

(33) جمال محمد سويلم، دراسة نقدية لنظرية القوَّة في العلاقات الدولية، مجلة كلِّية السياسة والاقتصاد، العدد الثامن عشر أبريل 2023م، تاريخ الاطلاع: 05 سبتمبر 2024م، https://2u.pw/vdVTGpYL

(34) the New York Times , America Isn't Leading the World, (Jun 6, 2024), Accessed: Sep 20, 2024, https://2u.pw/rVZ0Rmho

(35) economist, The liberal international order is slowly coming apart, (May 9th 2024), Accessed: Sep 20, https://2u.pw/K9mRQJFc

(36) محمد وتد، على الرغم من بُعدها عنها.. لماذا تشعُر إسرائيل بالقلق من عودة «طالبان» لأفغانستان والانسحاب الأمريكي منها؟، الجزيرة، (18 أغسطس 2021م)، https://2u.pw/lJDVG1FG

(37) المرجع السابق.

(38) الأولى أعقبت زيارة رئيسة مجلس النوّاب الأميركي السابقة نانسي بيلوسي في 2022م، والثانية أعقبت لقاء الرئيسة السابقة تساي إنغ وين برئيس مجلس النوّاب الأميركي آنذاك كيفن مكارثي في 2023م، والثالثة بالتزامن مع الخطاب الانفصالي للرئيس التايواني الجديد لاي تشينغ–تي في 2024م.

مجلة الدراسات الإيرانية

دراسـات وأبحـاث علميـة متخصصـة

RASANAH
المعهد الدولي للدراسات الإيرانية
International Institute for Iranian Studies